فصول في تاريخ الخليج العربي

والجزيرة العربية الحديث والمعاصر



تأليف

أ.د. غانم محمد رميض العجيلي

الدار العربية للموسوعات

فصول في تاريخ الخليج العربي

والجزيرة العربية الحديث والمعاصر

اسم الكتاب: فصول في تاريخ الخليج العربي والجزيرة العربية الحديث والمعاصر

المؤلف: أ. د. غانم محمد رميض العجيلي

الطبعة الأولى: ٢٠١٤م - ١٤٣٥هـ

ISBN 978-614-424-142-4



الدار العربية للموسوعات

المدير العام: خالد العاني

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط١ - بيروت - لبنان
ص.ب: ٥١١ الحازمية - هاتف: ٩٥٢٥٩٤ ٥ ٠٠٩٦١ - فاكس: ٤٥٩٩٨٢ ٥ ٠٠٩٦١
هاتف نقال: ٣٨٨٣٦٣ ٣ ٠٠٩٦١ - ٥٢٥٠٦٦ ٣ ٠٠٩٦١
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

فصول في تاريخ الخليج العربي
والجزيرة العربية الحديث والمعاصر

تأليف
أ. د. غانم محمد رميض العجيلي

الدار العربية للموسوعات
بيروت

الإهداء

إلى روح المغفور لهم بإذن الله

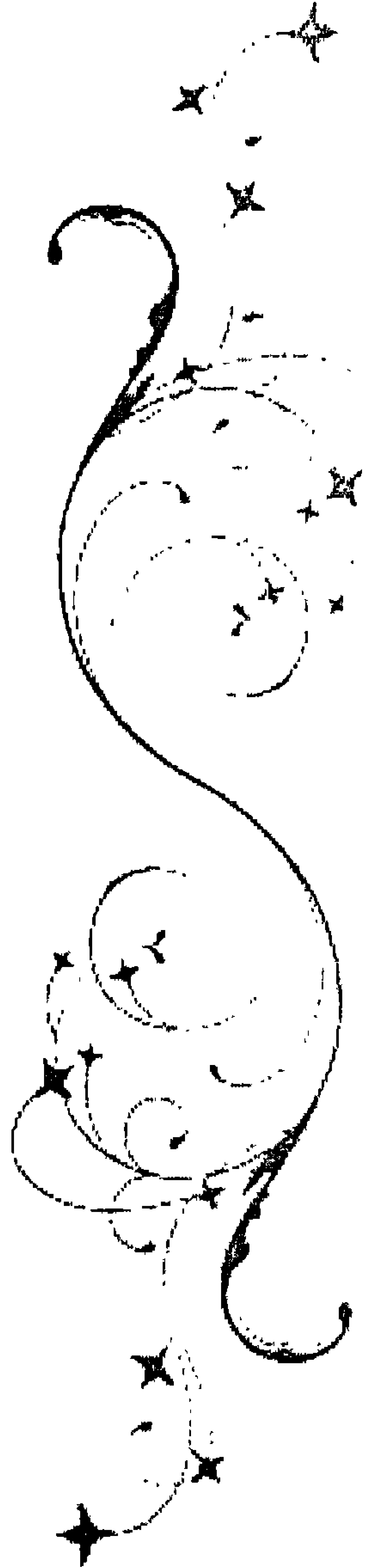
المرحوم والدي

المرحومة والدتي

المرحوم أخي الغالي جاسم (أبو رائد)

تغمدهم الله برحمته الواسعة

وأسكنهم فسيح جناته



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

شهدت منطقة الخليج العربي والجزيرة العربية منذ مطلع العصور الحديثة بفضل أهميتها الجغرافية والإستراتيجية والاقتصادية أحداثاً مهمة، تركت بصماتها الإيجابية والسلبية عليها في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وجعلتها عرضة للحملات الاستعمارية منذ وقت مبكر، كما أن هذه المنطقة درست على نحو واسع من قبل الباحثين الذين أنتجوا دراسات تاريخية جادة، إلّا أن المنطقة لازالت بحاجة إلى المزيد من الدراسات التي تسد الكثير من الفراغ والزوايا، التي لم تدرس بشكل كاف.

لا بد من الإشارة إلى أن هذا الكتاب هو عبارة عن عدد من البحوث التاريخية نشرت في المجلات العلمية العراقية والعربية، حرصت على جمعها في كتاب واحد لتكون في متناول الدارسين والباحثين والقراء، بطريقة سهلة. لا سيما وأن هذه البحوث جميعها تصدت لموضوعات خاصة بمنطقة الخليج العربي والجزيرة العربية، وقد حرصنا على ترتيبها زمنياً من الفصل الأول إلى الفصل السابع.

تألف الكتاب من سبعة فصول:

تطرقت في الفصل الأول منه إلى الغزو البرتغالي للسواحل اليمنية

منذ مطلع القرن السادس عشر، والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة على المنافذ البحرية العربية الإسلامية وإخضاع البحر الأحمر والتحكم المطلق بالتجارة الإسلامية.

وفي الفصل الثاني تناولت تأسيس القوة البحرية العُمانية والدور الذي اضطلعت به في زعزعة الوجود البرتغالي غرب المحيط الهندي، ولا سيما منطقة الخليج العربي وشرق إفريقيا منذ النصف الثاني من القرن السابع عشر وحتى النصف الأول من القرن الثامن عشر، حيث بلغت القوة البحرية العُمانية، درجة من القوة وصفتها المصادر الأوروبية بأنها أقوى قوة غير أوروبية في عموم المحيط الهندي.

وتحدثت في الفصل الثالث عن الزعامات القبلية في منطقة الخليج العربي منذ مطلع القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر، وعلاقاتها مع قوى المنطقة، التي اقتصرنا فيها على عُمان وفارس، حيث أدت تلك الزعامات أدواراً بارزة في المنطقة وشاركوا على نحو مباشر، في الأحداث السياسية الكبرى فيها، كما ساهموا في تشكيل الأنظمة السياسية المعاصرة.

وفي الفصل الرابع سلطت الضوء على السياسة العُمانية تجاه البحرين في القرن التاسع إذ أصبحت عُمان قوة يحسب لها حساب في منطقة الخليج العربي بل في الجزيرة العربية برمتها ولم تخف توجهاتها التوسعية ومحاولاتها المتكررة لإخضاع البحرين.

وأشار الفصل الخامس إلى حكم سلالة آل ثاني في قطر للمدة (١٨٦٨-١٩١٣م) وهي مدة حكم الشيخ محمد آل ثاني وولده الشيخ قاسم والدور الذي أدته تلك السلالة في تحشيد القبائل القطرية تحت لوائها وتحقيق الاستقلال في قطر تحت زعامة شيوخها من آل ثاني.

وتناول الفصل السادس العلاقات اليمنية السعودية بين الحربين العالميتين، حيث شهدت تلك الحقبة مشكلات حدودية بين البلدين الجارين، نتج عنها اندلاع الحرب بينهما وتدخلات من قبل الدول العربية والإسلامية لإيقافها.

في حين درس الفصل السابع والأخير تجربة المجالس المحلية في اليمن، كونها تجربة جديدة لبلد مثل اليمن شهد في عهد الأئمة الزيديين، انغلاقاً على العالم الخارجي والتطورات الديمقراطية في العالم المتمدن، وعلى الرغم من تواضع هذه التجربة، إلّا أن من الإنصاف عدها خطوة على الطريق الصحيح على الرغم من الثغرات الكثيرة، التي رافقت تطبيقها.

اعتمد الكتاب بفصوله السبعة على عدد كبير جداً من المصادر والمراجع، يرتقي العديد منها إلى الأصالة كالوثائق والمخطوطات والمذكرات والرسائل والأطاريح الجامعية والكتب المتخصصة، لا يسع المجال لذكرها لكثرتها سيجدها القارئ الكريم في ثنايا البحث.

وأخيراً لا يسعني إلّا أن أتقدم بالشكر والتقدير إلى كل من مد يد العون لي في تأليف كتابي هذا، وإذا كان ليس من حقي أن أشير إلى الصعوبات الكثيرة التي واجهتها في مسيرتي العلمية وتأليف الكتاب فأن من واجبي أن أتقدم بخالص شكري وعظيم امتناني إلى أساتذتي الأفاضل الذين تتلمذت على أيديهم الكريمة النظيفة: في مقدمتهم المغفور له بإذن الله العالم الجليل الأستاذ الدكتور صالح محمد العابد تغمده الله برحمته الواسعة وأسكنه فسيح جناته، والعالم الجليل الأستاذ الدكتور كمال مظهر أحمد، والأستاذ الفاضل الدكتور جعفر عباس حميدي والأستاذ الفاضل الدكتور نوري عبد الحميد العاني، والأستاذ الفاضل الدكتور صادق حسن السوداني، والأستاذ الفاضل طارق نافع الحمداني، والأستاذ

الفاضل حسين محمد القهواتي. أسأل الباري عز وجل أن يمنحهم الصحة والعمر المديد، ويبقيهم ذخراً لطلابهم ونجوماً لامعة في سماء وطننا الجريح. كما أتقدم بالتقدير الكبير للأخ المبدع الأستاذ فراس صاحب الذي صمم غلاف هذا الكتاب، فله مني المحبة والاحترام.

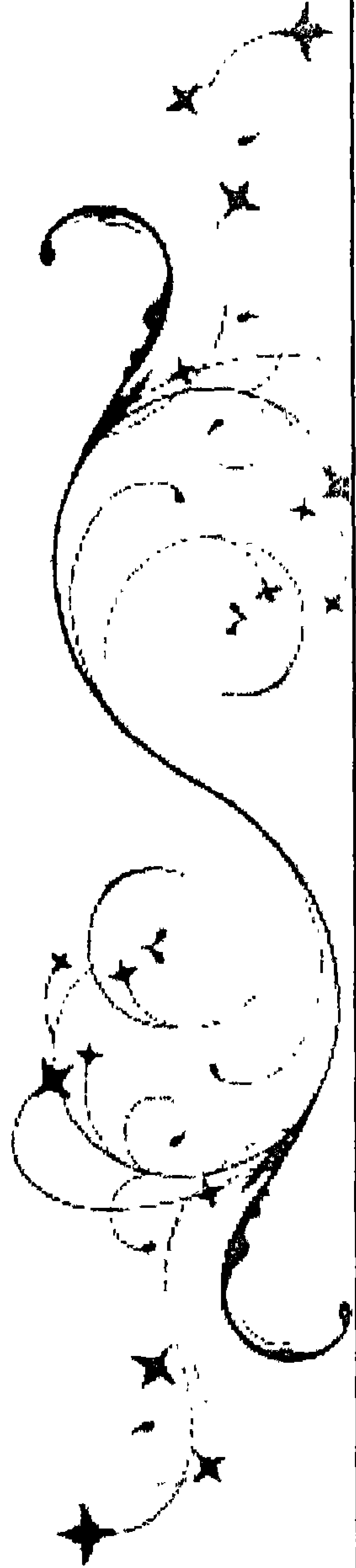
ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر والتقدير إلى عائلتي: زوجتي العزيزة التي رافقت عناء مسيرتي العلمية وتحملت مشاقها وهيأت أفضل الأجواء المناسبة لإتمام مسيرتي العلمية بنجاح، وكذلك ولدي الغالي وقرة عيني محمد وابنتي الغالية رماح (أم ليا) وزوجها المهذب مصطفى صباح، وابنتي فرح وإيثار، لما بذلوه من جهد وعناء في طباعة كتبي وبحوثي، فجزاهم الله خير الجزاء، وأخيراً أتمنى أن يكون لهذا الكتاب صدى طيباً في مضمار الدراسات التاريخية التي تناولت دراسة تاريخ منطقة الخليج العربي والجزيرة العربية، والله من وراء القصد.

المؤلف

الفصل الأول

الغزو البرتغالي للسواحل اليمنية

(١٥٠٣-١٥٣٨م)



مقدمة

الفصل الأول

تأتي أهمية هذا البحث في أنه يبحث في حقبة مهمة من تاريخ اليمن والجنوب العربي الحديث، شهدت خلالها تدخلات أجنبية لا مثيل لها انعكست أثارها ليس على اليمن والمنطقة التي تقع فيها المياه العربية فحسب بل أغلب مناطق المحيط الهندي.

ظلت البحار العربية ولا سيما البحر الأحمر وبحر العرب بحار إسلامية خاضعة للقوى الإسلامية في العصور الوسطى ومع مطلع العصور الحديثة شهدت تلك المناطق قدوم طلائع القوى الأوروبية الغازية متمثلة بالبرتغاليين التي مخرت عباب البحار العربية منذ نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر، وأصبحوا سادة التجارة في المحيط الهندي برمته ولا سيما في المياه العربية بفعل قوتهم البحرية الكبيرة.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الفترة التي واكبت الغزو البرتغالي لمنطقة الجنوب العربي قد شهدت أفول بعض القوى الإسلامية التي كانت تتزعم العالم الإسلامي متمثلة بالدولة المملوكية في مصر والتي كان لها الدور الكبير في تقليم مخالب الاستعمار البرتغالي بينما بدأت دولة جديدة تمثلت

بالعثمانيين تتجه بتوسعاتها للتواجد في المياه والسواحل العربية الإسلامية بغية التصدي للتوسع البرتغالي الصليبي وسياستهم التي استهدفت ضرب العالم الإسلامي وتجارته في الهند والشرق الأقصى.

ولأجل إعطاء صورة واضحة عن الفترة التي تناولت الغزو البرتغالي للشريط الساحلي اليمني والجزر اليمنية في النصف الأول من القرن السادس عشر ومحاولة الوصول إلى حقيقة موقف القوى المحلية والإقليمية من هذا الغزو، قسمت البحث إلى عدة اقسام، يشمل القسم الأول منها: الأسباب التي دفعت بالبرتغاليين إلى وضع الخطط الكفيلة للاستحواذ على مفاتيح الشرق والاستيلاء على مواقع التجارة العربية والإسلامية الرئيسية وهي عدن وهرمز وملقا، وأول تواجد لهم في المياه العربية، أما القسم الثاني فتمثل بالمحاولات البرتغالية الأولى للاستيلاء على الموانئ اليمنية في بحر العرب والبحر الأحمر والموقف المحلي والإقليمي منها، أما القسم الثالث فتمثل بعقد المعاهدات بين البرتغاليين وحكام بعض الموانئ اليمنية ومنها عدن في عام ١٥٢٤م، كما شهدت هذه الفترة ومنذ عام ١٥٢٨ وحتى عام ١٥٣٨م، تحول أغلب الحملات البرتغالية إلى نماذج عدة من القرصنة البحرية.

اعتمد البحث على عدد من المصادر والمراجع التي تميزت بالتنوع وتباين الاهتمامات كما أنها ضمت القديم والحديث والمعاصر للمدة الزمنية المبحوثة.

وسنحاول من خلال البحث أن نتعرف على أهمية منطقة اليمن والجنوب العربي والمحاولات البرتغالية للسيطرة على هذه المنطقة.

الغزو البرتغالي للسواحل اليمنية
(١٥٠٣ - ١٥٣٨)(*)

بعد أن وطد البرتغاليون نفوذهم على ساحل الهند الغربي، تطلعوا إلى الخليج العربي والبحر الأحمر، خصوصاً وإنهم وجهوا ضربات قوية للتجارة العربية غرب المحيط الهندي[١].

ولما كان التجار المسلمون قد بدؤوا يستخدمون طريق الشواطئ العربية الإفريقية من أجل الوصول إلى أسواق الشرق الأقصى في ملقا[٢]

(*) هذا البحث مشترك مع الآنسة ذكرى شمسي جواد صفوك الحاصلة على شهادة الماجستير والتي أشرف عليها المؤلف.

(١) أحمد محمد بن بريك، اليمن والتنافس الدولي في البحر الأحمر (١٨٦٩-١٩١٤م)، ط١، دار الثقافة العربية للنشر، الشارقة - الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠١م، ص٢٧.

(٢) ملقا (مالقا): تقع على الساحل الغربي لشبه جزيرة الملايو على نقطة تكون فيها المضايق بين القارة وسومطرة على أضيق ما يكون، وكانت ذات أهمية عظمى لنظام التجارة الإسلامي لكونها ليست الميناء المهم المؤدي إلى الصين فحسب، بل لكل جزر الهند الشرقية أيضاً، حيث كانت تبحر منها معظم التوابل المطلوبة إلى أوروبا وقد جعلها موقعها الجغرافي مرسى لأية قوة تسيطر على المحيط الهندي، ومفتاح جزر التوابل. ينظر: صالح محمد العابد، دور القواسم في الخليج العربي (١٧٤٧-١٨٢٠م)، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٦م، ص٢٢؛ G.E. Hall, History of South East, London 1955, P.180.

متحاشين ساحل المليبار(١). فقد وجد البرتغاليون إنه بالرغم من القوة البحرية الهائلة التي نقلوها إلى المحيط الهندي فأنهم لم يستطيعوا إيقاف حركة الملاحة العربية في المحيط الشاسع(٢)، ولأن العرب أصبحوا من جديد سادة ساحل المليبار(٣)، وكذلك فقد راجت في الهند شائعات عن قرب وصول أسطول إسلامي من البحر الأحمر للقضاء على البرتغاليين مما أحدث بلبلة وقلقاً في نفوسهم(٤) ولا سيما إن الوصول إلى البحر الأحمر جزءاً من أهداف النشاط الصليبي البرتغالي من أجل تدمير المقدسات الإسلامية في الحجاز(٥) حتى يتمكنوا من إجبار المسلمين على التخلي عن الأماكن المقدسة في القدس(٦).

---

(١) السيد رجب حراز، إفريقية الشرقية والاستعمار الأوروبي، المطبعة العالمية، القاهرة، ١٩٦٨م، ص١٤؛ محمود حسن عبد العزيز الصراف، هرمز والاستعمار البرتغالي من الاحتلال إلى الاستقلال، المطبعة التجارية الحديثة، القاهرة، ١٩٩٢م، ص١٧.

(٢) صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، (د.ت)، ص١٢؛ محمد حسن العيدروس، سقوط الحكم البرتغالي في الخليج العربي (١٦٢٢-١٦٥٠م)، ط١، دار المتنبي للطباعة، أبو ظبي، (د.ت)، ص١٣.

(٣) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، ألفه وجمع وثائقه ابنه الغير شرعي أفونسو دلبوكيرك (الصغير)، ج١، ترجمه عن البرتغالية والتردي جراي بيرش، ترجمه إلى العربية عبد الرحمن عبدالله الشيخ، المجمع الثقافي، أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٠م، ص١٠١.

(٤) وليد محمد جرادات، الأهمية الإستراتيجية للبحر الأحمر (بين الماضي والحاضر)، ط١، دار الثقافة، قطر - الدوحة، ١٩٨٦م، ص٩٥.

(٥) محمد حسن العيدروس، تاريخ العرب الحديث، دار الكتاب الحديث، ٢٠٠٠م، ص١٢٥.

(٦) غسان علي محمد الرمال، صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، (د.م)، ١٩٨٥م، ص٩٩.

لذلك قرر البرتغاليون وضع الخطط الكفيلة للاستحواذ على مفاتيح الشرق[(١)]، والاستيلاء على مواقع التجارة العربية الإسلامية الرئيسية الثلاثة وهي عدن، بعد أن برزت أهمية مينائها كقاعدة مهمة على الطريق البحري للهند، وأفضل نقطة إستراتيجية يمكن من خلالها السيطرة على حركة المرور في البحر الأحمر، والذي يؤدي إلى الأماكن المقدسة الإسلامية، وهرمز باعتبارها مفتاح للخليج العربي، والبحر الأحمر وجنوب شرق آسيا، وملقا، والتي تعد من أهم المضايق التي تتحكم في احتكار التجارة القادمة من الصين[(٢)].

كان أول تواجد للبرتغاليين في المياه العربية عام ١٥٠٢م، عندما قام فاسكو دي كاما أثناء رحلته الثانية إلى الهند بتكليف احد قادته (سودري) بالإقامة الدائمة على رأس خمس سفن حربية عند مدخل البحر الأحمر، لمهاجمة السفن العربية، ومنع السفن المختلفة من المتاجرة أثناء إبحارها في المحيط إلّا بتصريح خاص من قبل البرتغاليين، وقد نجح هذا القائد في مهاجمة سبع سفن عربية واستولى عليها بل إنه قام بقتل ركابها وأسر البعض الآخر[(٣)]، وكانت دوافع اختيار دي كاما لهذا الموقع المهم كونه

---

(١) السيد رجب حراز، المصدر السابق، ص١٤.

(٢) محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي (١٥١٤-١٩١٤م)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨١م، ص١٢١؛ نايف محمد حسن الأحبابي، الموقف العربي والإقليمي من الهيمنة البرتغالية في الخليج العربي (١٥٠٧-١٦٥٠م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٨٨م، ص٢٢؛ خلدون حسن النقيب، المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، (د.ت)، ص٦٤.

(٣) فاروق عثمان أباظة، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر (١٨٣٩-١٩١٨م)، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م، ص٣٦؛ خالد سالم باوزير، ميناء عدن - دراسة تاريخية معاصرة، ط١، دار الثقافة العربية للنشر، الشارقة - الإمارات العربية المتحدة وجامعة عدن - الجمهورية اليمنية، ٢٠٠١م، ص٤٢.

يتحكم في طريق التجارة والملاحة بين البحر الأحمر وسائر مناطق المحيط الهندي الأخرى، وكان يرى أن إحكام السيطرة على مدخل البحر الأحمر، سيمكنه من احتكار التجارة في الهند والمحيط الهندي، ويبعد عنه الخطر العربي، ويحقق له الإشراف على حركة التجارة والملاحة في منطقة البحر الأحمر ثم احتكارها وإقامة نفوذ برتغالي فيها لحماية مصالحها من جهة والحصول على ثروات المنطقة من جهة أخرى(١).

شهدت البحار العربية تواجد آخر للبرتغاليين عام ١٥٠٣م، عندما وصل إلى سقطرى أسطول برتغالي بقيادة (ديوغو فرنانديز بيريرا)، واحتلها وبنى حصنا فيها، وجعل من الجزيرة قاعدة بحرية ونقطة ارتكاز يسافر منها البرتغاليون إلى الهند مباشرة، ثم أنسحب منها(٢).

لقد حرص البرتغاليون على احتلال قواعد مهمة عند مدخلي البحر الأحمر والخليج العربي(٣)، ولتحقيق ذلك أمر ملك البرتغال عمانوئيل الأوّل بإرسال حملة برتغالية يقودها تريستاو داكونها (Triestao da

---

(١) قصي كامل شبيب وإيلاف عاصم مصطفى، الصراع بين المماليك والبرتغاليين في منطقة البحر الأحمر (١٥٠٢-١٥١٧م)، مجلة الأستاذ الفصلية، كلية التربية - ابن رشد، جامعة بغداد، العدد ١٣٠ لسنة ٢٠١٠م، ص٢٧٩.

(٢) حمزة علي لقمان، تاريخ الجزر اليمنية، مطبعة يوسف وفيليب الجميل، بيروت - لبنان، ١٩٧٢م، ص٧٤.

(٣) إسماعيل أحمد ياغي، العالم العربي في التاريخ الحديث، ط١، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٩٩٧م، ص٢٠؛ محمد عبد العال أحمد، البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه، نصوص جديدة، مستخلصة من مشاهدات المؤرخ اليمني (بامخرمة) كما سجلها في مخطوط (قلادة النحر)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨٠م، ص٩٩.

Conha) في السادس من آذار/ مارس عام ١٥٠٦م[١]. وكان الأسطول يتكون من أربع عشرة سفينة ضمت إلى جانب السفن الحربية، أخرى تجارية[٢] وكان الهدف من وراء هذه الحملة هو الوصول إلى سواحل شبه الجزيرة العربية وفرض حصار على البحر الأحمر لوقف الأساطيل التجارية للدول الأخرى القادمة من الهند إلى أوروبا، وقد أصدر ملك البرتغال أوامر لقائد الحملة في حالة تعذر تحقيق الأسطول أهدافه كاملة، فعليه أن يقضي فصل الشتاء في جزيرة سقطرى، لتكون قاعدة للانطلاق للمواقع الأخرى[٣]، ولما لمس ملك البرتغال في أفونسو دلبوكيرك، نجاحه في رحلته السابقة إلى الهند في عام ١٥٠٣م، والخدمات الجليلة التي قدمها للبرتغال وإخلاصه وقيادته الناجحة وتدبره للأمور، فقد أرسله في صحبة تريستاو داكونها ليبقى عند ساحل شبه الجزيرة العربية كرئيس قباطنة لست سفن وأربعمائة رجل، ووعده ملك البرتغال إنه بعد انقضاء ثلاث سنوات سيصبح أفونسو حاكماً للهند ونائباً للملك فيها وأن فرنسسكو دالميدا سيعود إلى البرتغال[٤].

(١) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، المصدر السابق، ج١، ص١٠١.

(٢) محمد حميد السلمان، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج في الفترة ما بين (١٥٠٧-١٥٣٥م)، مركز زايد للتراث والتاريخ، شركة أبو ظبي للطباعة والنشر، ٢٠٠٠م، ص٥٧؛ محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما (٦٢٨-٩٢٣هـ/ ١٢٣١-١٥١٧م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨٠م، ص٤٨٨.

(٣) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، المصدر السابق، ج١، ص١٠٢؛ س. ب. مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ترجمة محمد أمين عبدالله، ط٣، آمون للطباعة، القاهرة، ١٩٨٦م، ص١٥٠.

(٤) محمود محمد الحويري، ساحل شرق إفريقية - منذ فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالي، ط١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦م، ص٩٥؛ السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، المصدر السابق، ج١، ص ص١٠٢-١٠٣.

يعد أفونسو دلبوكيرك المؤسس الحقيقي لمراكز التجارة البرتغالية في الشرق فهو الذي وضع خطة محكمة أثناء إقامته في الهند، من أجل تحقيق سيادة البرتغاليين وذلك باحتلال الموانئ التجارية على طول الطريق البحري بين الهند وطريق رأس الرجاء الصالح وجعل منها مراكز برتغالية منيعة[(١)].

بعد أن تلقى داكونها، الأوامر بالإبحار إلى سقطرى من أجل إنشاء قلعة فيها لحماية المسيحيين في الجزيرة[(٢)]، ولأنها تسيطر غالباً على دخول السفن إلى مضيق باب المندب إلى الجنوب الأقصى من البحر الأحمر والمتاخم للشريط الساحلي اليمني، كما أن اختيار البرتغاليين لإخضاع هذه الجزيرة، لتأمين أساطيلهم عند مهاجمة هرمز في الخليج العربي[(٣)]. والأهم هو استخدامها كقاعدة لتمويل الأسطول المكلف بمواجهة الأسطول المصري ولتمكنهم من فرض حصار كامل على البحر الأحمر وإغلاقه في وجه التجارة الهندية[(٤)] والحصول على مستعمرات جديدة على السواحل العربية[(٥)].

---

(١) محمد نصر الدين محمد إبراهيم عثمان، السياسة العثمانية في جنوب البحر الأحمر وساحل الصومال (١٥٣٨-١٥٧٨م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، ١٩٩٤م، ص١٢٠.

(٢) أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني في القرن السادس عشر، ط١، دبي، ١٩٩١م، ص٨٠؛ عبد العزيز محمد الشناوي، المراحل الأولى للوجود البرتغالي في شرقي الجزيرة العربية، البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، ج٢، الدوحة - قطر، ٢١-٢٨ مارس ١٩٧٦م، ص٦٢٥.

(٣) Stripling, George William Fredrick, the Ottoman Turks and the Arabs (1511-1574), the University of Illinois pres, Urbana, 1942, P.30.

(٤) أحمد محمد عبيد بطي، المصدر السابق، ص٨٠؛ جيان، المصدر السابق، ص٢٤٤؛ محمود الحويري، ساحل شرق إفريقية، ص٩٤.

(٥) قصي كامل شبيب وإيلاف عاصم، المصدر السابق، ص٢٨٠.

لقد استولى داكونها ومعه البوكيرك على جزيرة سقطرى عام ١٥٠٧م، وكان يحكمها الخواجة إبراهيم وكانت تابعة لبلاد (قشم أو كشم أو قشن)، وكان داكونها قد أرسل إنذاراً إلى حاكمها بضرورة تسليم القلعة إلى القائد البرتغالي ولكن الخواجة إبراهيم رفض نزول البرتغاليين إلى الجزيرة أو أن يسلمها فقام القائد البرتغالي بإنزال جنوده إلى البر[١]، حيث قاموا بمهاجمة حصنٍ على الساحل الشمالي للعاصمة حديبو، وكان فيها فريق من قبائل المهري سكان قشن، وقد نجح البرتغاليون في احتلال الحصن بعد أن دافع العرب عنها دفاعاً مستميتاً، حتى قتل كل فرد منهم بمن فيهم الخواجه إبراهيم، بنى بعدها داكونها حصناً (قلعة) في مدينة السوق القديمة[٢] سميت بقلعة توماس، كما أنه بنى كنيسة بدل مسجد البلد أسماها كنيسة (قديسة النصر – أو سيدتنا واهبة النصر – رولا فكتورا) وعين الفونسودي نورنها (Affonse de Noronha) قائداً على الحامية[٣] من أجل إدامة

---

(١) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، المصدر السابق، ج١، ص ص١٨٧-١٨٨؛ جيان، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، نقله إلى العربية ملخصاً يوسف كمال، ط١، القاهرة، ١٩٢٧م، ص٢٥٠؛ س. ب. مايلز، المصدر السابق، ص١٥٠.

(٢) حمزة علي لقمان، معارك حاسمة في تاريخ اليمن، ط١، مركز الدراسات اليمنية، صنعاء، ١٩٧٨م، ص١٤٩؛ أحمد محمد عبيد بطي، المصدر السابق، ص٨١؛ حسن صالح شهاب، فن الملاحة عند العرب، ط١، دار العودة، بيروت، ١٩٨٢م، ص٤٦؛ عبد العزيز محمد الشناوي، المصدر السابق، ص٦٢٥.

(٣) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، المصدر السابق، ج١، ص١٤٤؛ علي خضير عباس المشايخي، السياسة البريطانية في البحر الأحمر (١٧٩٨-١٨٨٢م)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٩٧م، ص١٦؛ صباح محمود محمد، جزر العالم، بيروت، ١٩٩٧م، ص١٨؛ تقرير البعثة =

تحرك الأساطيل في المنطقة لمنع التجار من المرور[١]، إلّا أن عدم توفر المياه الصالحة للشرب وصعوبة الحياة فيها دفع البرتغاليين إلى إخلاء الجزيرة عام ١٥١١م[٢].

وفي العام نفسه، قام البرتغاليون بمهاجمة السفن التجارية الإسلامية في الطريق بين هرمز والهند وقطعوا الطريق التجاري عبر الخليج العربي ونهبوا السفن وأحرقوها وأسروا بعض التجار وعذبوهم ومثلوا بهم أبشع تمثيل[٣].

وتذكر بعض المراجع أن خلافاً كان قد حدث بين داكونها والبوكيرك حول الأفضلية في العمل واتجاه الحملة، إذ كان رأي البوكيرك الاتجاه مباشرة إلى رأس جار دفوي (القرن الإفريقي) الواقع شمال الصومال، ثم احتلال سقطرى، قبل التوجه إلى الهند، بينما كان داكونها يفضل الذهاب مباشرة إلى الهند، لكن الخلاف بين القائدين تمت تسويته بعد احتلالهم الجزيرة، واتفقا بعدها على أن يفترق كل منهما حسب الخطة المرسومة

= العلمية لقسمي الجغرافية والتاريخ والأحياء، جزيرة سقطرى، جامعة عدن، كلية التربية، أورينتال للنشر والطباعة، ١٩٨٦م، ص١١.

(١) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، المصدر السابق، ج١، ص١٧؛ Stripling, Op., Cit., P.31.

(٢) تقرير البعثة العلمية، جزيرة سقطرى، المصدر السابق، ص١١؛ جيان، المصدر السابق، ص٢٥٠؛ علي خضير المشايخي، المصدر السابق، ص١٦؛ عبد العزيز محمد الشناوي، المصدر السابق، ص٦٢٥.

(٣) محمد نصر الدين عثمان، المصدر السابق، ص١٢٢.

أسهبت لنا العديد من المصادر في وصف الأساليب البشعة والتعسفية التي تعامل بها البرتغاليون في احتلالهم للشريط الساحلي في الخليج العربي: ينظر: =

لهما من الملك البرتغالي، فتم توزيع قطع الأسطول عليهما وغادر داكونها بعدها بنصيبه من الأسطول إلى الهند، وبقي البوكيرك متبعاً أساليب القرصنة للاستحواذ على التجارة العربية[١].

قرر البوكيرك في العام ١٥٠٧م، القيام بغزو القسم الشرقي من الجزيرة العربية[٢]، لأنها كانت إحدى الطرق التي كان يستخدمها التجار العرب للوصول إلى الهند[٣]، وكان الاستيلاء على هرمز أول خططه التي حاول تحقيقها من خلال الاستيلاء على المدن العربية التابعة لها وهزيمة العرب من خلال مباغتتهم[٤]، وقد اختار التوجه إلى هرمز لأنه كان يدرك أنه بأسطوله الصغير غير قادر على السيطرة على عدن الحصينة[٥]كما أن سيطرته على هرمز معناه إحكام سيطرته على الخليج العربي برمته[٦].

= lanskeet, Muscat and Oman, London, 1907, P.33; Bathurst, Maritime Trade and Imamate Government. two principals in the history of Oman to 1798, in the Arabian Peniusule, London, 1972, P.96; Miles. S.S.B, Countries and Tribes of the Gulf, London, 1966, P.143.

(١) أحمد محمد عبيد بطي، المصدر السابق، ص ص٨١-٨٢؛ س.ب. مايلز، المصدر السابق، ص١٥٠.

(٢) للاطلاع على تفاصيل حملة البوكيرك على الطرف الجنوبي الشرقي من الخليج العربي واتخاذه هرمز قاعدة للنفوذ البرتغالي في عموم المنطقة يراجع:
Bathurst, The Yarubi Dynasty of Oman, Oxford 1963; Miles, S.S.B., Op., Cit.

(٣) غريغوري بوندار يفسكي، الخليج العربي بين الإمبرياليين والطامعين في الزعامة، دار نشر وكالة نوفوستي، موسكو ١٩٨١م، ص٣٦.

(٤) Stripling, Op., Cit., P.31.

(٥) Danvers, Frederick Charles, the Portuguese in India, Vol.I, London, 1894, P.107.

(٦) ج.ج. لوريمر، دليل الخليج - القسم التاريخي، ج١، قطر، (د.ت)، ص١٢.

اتخذ الأسطول طريقه شمالاً شرقياً ماراً ببلاد فرتك وظفار، آملاً في رؤية جزر كوريا موريا، وقد مر بالقرب منها ولكنه ابتعد بأسطوله عنها بسبب الرياح[١]. ولهذا السبب توجه البوكيرك بعدها لاحتلال موانئ الشريط الساحلي العُماني الواحد تلو الآخر مستخدماً أبشع الأساليب التدميرية حتى وصل إلى جزيرة هرمز[٢].

كان البوكيرك في بادئ الأمر عازماً على تدمير هرمز تدميراً كاملاً، ونقل تجارة الخليج العربي إلى جزيرة سقطرى، إلّا أنه تراجع عن موقفه بعد أن أدرك أن هذه الجزيرة غير مؤهلة للقيام بالدور التجاري المزدهر الذي تقوم به جزيرة هرمز، لذلك قرر احتلالها مهما كلف الأمر[٣]، وعند وصوله إلى هرمز طلب من شيخها الاستسلام وكان حاكم المدينة صبياً صغيراً، لم يتجاوز عمره اثنتي عشر عاماً يدعى سيف الدين، فكان يرأس مجلس بلاده خوجه عطار وهو شيخ محنك[٤]، غير أن أهل الجزيرة وشيخها رفضوا الاستسلام وجرت بين أسطول هرمز الصغير والأسطول البرتغالي معارك قتل فيها الكثير من سكان الجزيرة ودمر وأحرق سفنهم وأغرق الباقي وانتهت المعركة بعقد معاهدة صلح بين الطرفين[٥]، بعد أن

---

(١) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، المصدر السابق، ج٢، ص٤٥٥.

(٢) Danvers, Op., Cit., Vol.I, PP.159-161; غريغوري بونداريفسكي، المصدر السابق، ص٣٦؛ ج.ج. لوريمر، المصدر السابق، ص١٣. للمزيد ينظر: س.ب. مايلز، المصدر السابق، ص ص١٥٢-١٦١.

(٣) حسن الأمين، صراعات في الشرق على الشرق، ط١، لبنان، ٢٠٠١م، ص٦.

(٤) محمد نصر الدين عثمان، المصدر السابق، ص١٢٢.

(٥) مذكرات دوارتي بربروسا، تاريخ البرتغاليين في الخليج العربي، الموسوعة البرتغالية، ترجمة عيسى أمين، من إصدارات مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع، البحرين (د.ت)، ص٦٦؛ أرنولدت ويلسون، تاريخ الخليج، =

ألحقوا بالمدينة الدمار، فأصبحت هرمز بموجب المعاهدة تابعة للتاج البرتغالي، ورفع على قصر حاكمها علماً عليه شارة الصليب[١]، كما أنه اتخذ ميناء هرمز قاعدة رئيسية لنشاطه في الخليج العربي بعد أن وضع حامية قوية فيها[٢]. وقد ذكر وصول البرتغاليين إلى هرمز في مخطوطة روح الروح لعيسى بن لطف الله إذ قال: «**ودخلت سنة ثلاث عشرة وتسعمائة[٣]، وفي هذه السنة غلبت الفرنج على مدينة هرموز وأخذوها**

= ترجمة محمد أمين عبدالله، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان، ١٩٨١م، ص ص٦٩-٧٠.

أما عقد المعاهدة فقد أقر بموجبها ما يلي:

لقد أقر شيخ هرمز بولائه للملك البرتغالي، لكن الأهم من ذلك كله صار على كل السفن التي تبحر في الخليج العربي أن تحصل على إذن خاص، ليس من مملكة هرمز بل من ممثلي البرتغال في هرمز. ينظر: غريغوري بوندار يفسكي، المصدر السابق، ص٣٧.

كما أن سلطنة هرمز كانت تخضع أصلاً لنوع من السيادة الفارسية تمثلت في دفع ضريبة لشاه فارس، لكن البوكيرك أمر بقطع تلك الجزية، فأرسل شاه فارس مبعوثين لمفاوضة البوكيرك حول تقسيم النفوذ في هذه المنطقة، وانتهت هذه المفاوضات عام ١٥٤٥م، بتوقيع معاهدة بين الطرفين سلمت فيها فارس بالسيطرة البرتغالية على هرمز، فيما تعهدت البرتغال بمساعدة فارس في الاستيلاء على البحرين وكذلك تحالفهما ضد الدولة العثمانية. ينظر: محمد أنيس، المصدر السابق، ص١٢٢.

(١) علي غنام، أحداث فاصلة في إحلال النفوذ الأجنبي في الخليج العربي، مجلة الخليج العربي، العدد ٢، مج١٧، السنة الثالثة عشر، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، العراق، ١٩٨٥م، ص١٠.

(٢) ابتسام محمد أحمد صادق الجواهرجي، أهمية جزر البحر الأحمر في الصراع بين القوى الإسلامية والبرتغالية في القرن السادس عشر الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، ١٩٩٨م، ص٦٣.

(٣) ٩١٣هـ-١٥٠٧م.

وأمنوا من فيها من المسلمين والبحار والمسافرين ووصل الخبر بذلك إلى اليمن في أواخر شعبان»[١].

في أوائل ١٥٠٨م، والأسطول البرتغالي ما يزال في هرمز، انفصل عن البوكيرك ثلاثة من الربابنة بسفنهم وقرروا القيام بتمرد والتآمر مع الحاكم المحلي من أجل تحديد سلطة البوكيرك[٢]، فاضطر بسبب هذه الخيانة إلى صرف النظر عن القيام بمزيد من التوسعات مؤقتاً وقرر العودة للهند[٣]، فسافر إلى سقطرى يمضي الشتاء فيها، وقد وجد الحامية هناك على وشك الهلاك، فكان حضوره سبباً في خلاص بقيتها من الموت، ولما انقضى الشتاء، اتجه إلى الهند، ولم يأت احتلالهم لسقطرى بالفائدة المنتظرة لأن الجزيرة كانت قاحلة ورديئة المناخ وليس فيها مرفأ صالح لرسو السفن[٤].

وصل البوكيرك إلى مدينة كنانور الهندية في أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر ١٥٠٨م، حيث مقر نائب الملك البرتغالي فرانسسكو دالميدا، بعد سنتين وثمانية أشهر قضاها في البحر يقاتل العرب والمسلمين[٥]، وهناك التقى بنائب الملك وكان مع الأخير الضباط الذين انشقوا على البوكيرك في هرمز وهربوا إلى الهند، ولكن البوكيرك لم يكترث لوجودهم هناك،

---

(١) عيسى بن لطف الله بن المطهر بن شرف الدين، روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح، مخطوط محفوظ في دار الكتب القومية، القاهرة، تحت رقم ١٢٠ تاريخ، ورقة ٧.

(٢) ج.ج. لوريمر، المصدر السابق، ص١٣.

(٣) جيان، المصدر السابق، ص٢٥٧؛ أرنولدت ويلسون، المصدر السابق، ص٧٢.

(٤) جيان، المصدر السابق، ص٢٥٧.

(٥) Danvers, Op., Cit., Vol.I, P.133.

لأنه كان معتمداً على وعد الملك عمانوئيل الأول له بأنه سيصبح نائباً للملك في الهند بعد ثلاث سنوات من تركه لشبونه، وكان دالميدا قد بعث بمذكرة إلى الملك البرتغالي موقعة من قبله، كان قد قدمها له الضباط المنشقون عن البوكيرك، وذكر فيها أن الأخير خالف الأوامر بتوجهه إلى هرمز بدلاً من بقائه في سقطرى كقاعدة لأسطولهم، وأنه لا مبرر للخسائر التي لحقت بالبرتغاليين نتيجة الحروب التي نتجت عن احتلاله لهرمز[١]، وقد أصدر الملك البرتغالي أمراً بإجراء تحقيق في الأمر[٢].

تمكن البوكيرك من إنقاذ نفسه من هذا الموقف، بسبب الرسائل التي كان يقوم بإرسالها إلى ملك البرتغال يبين له ما حدث معه[٣].

وهذه الرسائل هي:

- رسالة مؤرخة في ٢/ ٢/ ١٥٠٨، بعث بها البوكيرك إلى الملك من هرمز يشتكي فيها من فرار عدد من قباطنة السفن، فيما كان محاصراً هرمز، الشيء الذي حال من دون إتمام التحصينات التي شرع فيها بالجزيرة المذكورة.
- رسالة حررها على ظهر سفينته في ٦/ ٢/ ١٥٠٨، أخبر فيها الملك بظروف احتلال هرمز وقبول حاكمها، الدخول تحت الحماية البرتغالية ودفع ضريبة سنوية.

---

(١) فالح حنظل، العرب والبرتغال في التاريخ، ط١، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة، ١٩٩٧م، ص١٩٢.
(٢) أرنولدت ويلسون، المصدر السابق، ص٧٢.
(٣) فالح حنظل، العرب والبرتغال في التاريخ، ص١٩٤.

- رسالة إلى الملك مؤرخة في ١٥/ ٢/ ١٥٠٨، يطلعه فيها على فرار بعض المسيحيين إلى هرمز وعلى استمرار هذه الأخيرة في دفع الضرائب وعلى ما تعرفه من رواج تجاري(١).

كان فرانسسكو دالميدا نائب الملك في الهند يتهيأ لمواجهة الأسطول المصري في ديو، عندما وصل البوكيرك إلى الهند، ولكنه لم يذهب لمقابلة دالميدا، بل أرسل رسوله إليه ليخبره بوجوده في الهند وأنه يحمل وعداً من الملك البرتغالي عمانوئيل الأول بتسليم السلطة له، وعليه ترك الهند والعودة إلى البرتغال، وقد رفض دالميدا التنازل، مما أدى إلى تأزم الموقف بين الطرفين، ولكن أمراً ملكياً جاء إليه يحمل إعفاءه من منصبه وتعيين أفونسو دلبوكيرك نائباً للملك هناك حسم الموقف(٢).

وفي العام ١٥٠٩م، عندما تسلم أفونسو دلبوكيرك منصب نائب الملك في الهند (Captain General and governor of India)(٣) وقد زاد تركيزه على سواحل الهند والشرق الأقصى والخليج والجنوب العربي، فقام بتعقب السفن التجارية العربية أينما وجدها في المحيط الهندي وبحر العرب وسواحل الخليج العربي وأسرها وإحراقها وإغراقها مع

---

(١) أحمد بو شرب، مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي وما تولد عنه من ردود فعل، مجلة الخليج العربي، مج١٦، العدد١، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، العراق، ١٩٨٤م، ص٤١.

(٢) فالح حنظل، العرب والبرتغال في التاريخ، ص ص١٩٢-١٩٥؛
Danvers, Op., Cit., Vol.I, P.134-135.

(٣) فالح حنظل، العرب والبرتغال في التاريخ، ص١٩٦؛ مصطفى عقيل الخطيب، التنافس الدولي في الخليج العربي (١٦٢٢-١٧٦٣م)، المكتبة العصرية للنشر، بيروت، (د.ت)، ص٢٧.

بحارتها بكل قسوة ونهب بضاعتها وقتل ربابنتها وعمل البوكيرك على أن يؤمن لنفسه وللأسطول البرتغالي قاعدة منيعة على ساحل المليبار في الهند تكون قريبة لمخططاته في الخليج والجنوب العربي والبحر الأحمر، ولما كانت قلعة كوشين بالنسبة له قد أصبحت غير صالحة لمآربه، فقد وجه اهتمامه لاستبدالها بمدينة كاليكوت لبناء قاعدة حربية ضخمة، إلّا أنه فشل في احتلالها، بل وكاد يقتل عندما اقتحمها عنوة، فقرر احتلال مدينة كوا(١)، وقد بعث لملكه برسالة مؤرخة في ١٧/ ١٠/ ١٥١٠، يخبره بعزمه على احتلال جزيرة كوا نظراً لأهميتها بالنسبة للممتلكات البرتغالية في الهند وعلى عزمه على الالتحاق فور ذلك بالبحر الأحمر(٢).

نجح البوكيرك بعد محاولات في احتلالها في سنة ١٥١٠م(٣)،

---

(١) كوا (جوا): ميناء يتبع مملكة بيجاور الإسلامية، ويعد إحدى الموانئ الشهيرة في الهند وتقع على الساحل الغربي للهند (المليبار) والمطل على بحر العرب، وتذكره المصادر العربية باسم كوة - كووة، وتعد أول مستعمرة أوروبية في شبه القارة الهندية وثاني وكالة وحصن برتغالي في عامي (١٥٠٢-١٥٠٣م)، على التوالي، وظلت مستعمرة حتى العام ١٩٦١م، عندما استعيدت عنوة من قبل الهند. ينظر: شوقي علي إبراهيم الآلوسي، الصراع الدولي في المحيط الهندي، رسالة ماجستير غير منشورة، المعهد العالي للدراسات القومية والاشتراكية، الجامعة المستنصرية، ١٩٨١م، ص١١؛ علي غنام، المصدر السابق، ص٩؛ السيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن (١٥٣٨-١٦٣٥م)، ط٢، مطبعة الجبلاوي بالبولاقية، ١٩٧٤م، ص٦٧.

(٢) أحمد بو شرب، المصدر السابق، ص٤١؛ محمد حميد السلمان، الغزو البرتغالي للجنوب العربي، ص ص٥٧-٥٨.

(٣) محمد حميد السلمان، الغزو البرتغالي للجنوب العربي، ص٥٨؛ السيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، ص٦٧.

حيث أصبحت كوا المركز الرئيس للعمليات البرتغالية في الشرق[١]، وعاصمة البرتغاليين الرئيسية ومركزهم التجاري والحربي والسياسي والديني[٢]، وكان ألفونسو دلبوكيرك لا يقل همجية عن القادة البرتغاليين الذين سبقوه، ويكفي أن نعلم أنه عندما تمكن من الاستيلاء على كوا، قام بقتل كل من فيها من العرب، ويملأ بهم المساجد ويضرم فيها النار[٣].

وقد أشار النهروإليّ لحادثتي احتلال هرمز وكوا في كتابه بقوله: «**فكثروا في بحر الهند، وبنو في كُوّه من بلاد (الدكن) قلعة يسمونها كوتا، ثم أخذوا (هرموز) وتقووا هنالك، وصارت الإمداد تترادف عليهم من البرتغال، فصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسراً ونهباً، ويأخذون كل سفينة غصباً إلى أن كثر ضررهم على المسلمين، وعم آذاهم على المسافرين**»[٤]. وفي عام ١٥١١م تم الاستيلاء على ملقا، وبذلك تمكن البرتغاليون من السيطرة على معظم التجارة بين الشرق الأوسط والشرق الأقصى[٥].

---

(١) عبد الوهاب عباس القيسي، المجابهة البرتغالية - العثمانية في المياه العربية، أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية، ج١، آب/ أغسطس ١٩٨٧م، ص١٦٤.

(٢) محمد حميد السلمان، الغزو البرتغالي للجنوب العربي، ص٥٨.

(٣) قدري قلعجي، الخليج العربي، دار الكاتب العربي، ١٩٦٥م، ص٣٦١؛ محمود حسن الصراف، المصدر السابق، ص٣٣.

(٤) قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي، البرق اليماني في الفتح العثماني - تاريخ اليمن في القرن العاشر الهجري مع توسع في أخبار غزوات الجراكسة والعثمانيين لذلك القطر، ط٢، شركة دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ١٩٨٦م، ص١٩.

(٥) عبد الوهاب عباس القيسي، المصدر السابق، ص١٦٤؛ محمود حسن الصراف، المصدر السابق، ص٣٣؛ السيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، ص٦٧.

لقد كانت سياسة البوكيرك متناسقة مع ميول ملك البرتغال لذلك كانت إحدى الأسباب التي دعته إلى إبدال دالميدا به كنائب لملك البرتغال في الهند، فقد كان البوكيرك أكثر طموحاً من دالميدا وله سياسة خاصة فحواها احتلال المراكز التجارية المهمة وإقامة الحصون القوية في جميع جهات المحيط الهندي والبحر الأحمر(١).

أدى سقوط كوا بيد البرتغاليين، إلى التأثير في مواقف الممالك الهندية على الساحل الغربي للهند، إذ تمكنوا من إقامة محطة تجارية وحصناً لهم في ديو وكاليكوت(٢).

تم في عهد البوكيرك السيطرة على أهم المراكز التجارية على ساحل إفريقية الشرقي في العام ١٥٠٩م، كما يلاحظ أن أول اتصال مباشر بين الحبشة والبرتغال كان في عهد البوكيرك، فقد سعى للحصول على حلفاء محليين لتحقيق أغراضه العدوانية على البلاد الإسلامية من خلال إقامة العلاقات مع الحبشة عام ١٥٠٩م(٣). ولذلك لم يتبق لتطبيق سياسة البوكيرك في احتلال المضايق البحرية الرئيسية التي تتصل بتجارة الهند بعد ملقا وكوا سوى التوجه لاحتلال عدن وباب المندب(٤).

---

(١) أحمد محمد بن بريك، المصدر السابق، ص٢٨؛ محمد عبد اللطيف البحراوي، فتح العثمانيين عدن، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، كلية الآداب، ١٩٥٤م، ص٦١.

(٢) السيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأوّل لليمن، ص٦٨.

(٣) السيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأوّل لليمن، ص٦٨؛ بشير حمود كاظم الغزالي، تجارة البحر الأحمر خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، ١٩٨٦م، ص٨٧.

(٤) محمد حميد السلمان، الغزو البرتغالي للجنوب العربي، ص٥٨.

تُعد دولة البرتغال من أوائل الدول الأوروبية التي مخرت سفنها عباب البحر الأحمر والخليج العربي مستهدفة القضاء على توسط المسلمين في نقل التجارة، مدركين أن ذلك لا يتم إلّا بالقضاء على النفوذ الإسلامي في البحار الشرقية بخاصة وأن البحر الأحمر يؤدي إلى الأماكن المقدسة[١]، لذلك صمم البرتغاليون على احتلال مدخلي البحر الأحمر والخليج العربي، وفعلاً استطاع البوكيرك الاستيلاء على جزيرة سقطرى وهرمز، فكان توجهه هذه المرة نحو عدن[٢].

● المحاولات الأولى للاستيلاء على عدن والموانئ اليمنية في البحر الأحمر ●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

■ الحملة البرتغالية الأولى عام ١٥١٣م:

كان البرتغاليون وعلى رأسهم ملك البرتغال شديدي الرغبة في السيطرة على البحر الأحمر، وكان البوكيرك أكثر القادة الساعين لتحقيق هذه الرغبة، فقد حدد أهدافه من خلال تحقيقه لمشروعين أوضحهما للملك البرتغالي في رسالتين بعث بهما إليه، وقد اقترح في أولهما: القيام بعمل ضخم يحمل سمة اقتصادية من خلال السعي لتحويل مياه النيل إلى البحر الأحمر لحرمان مصر من ري أراضيها من أجل ضرب المسلمين في القاهرة، أما مشروعه الثاني: فكان إرسال حملة تحمل طابعاً صليبياً حاداً وهو تدمير الأماكن المقدسة في مكة والمدينة المنورة

(١) محمد عبد الحسين الحلي، عدن والصرعات الدولية في البحر الأحمر (١٧٩٨-١٨٣٩م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الدول العربية، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٨٨م، ص٢٠.

(٢) عبد الوهاب عباس القيسي، المصدر السابق، ص١٦٤.

وتخلي المسلمين عن الأماكن المقدسة في القدس[١]. ولما كان المشروع الأوّل يستلزم إمكانات مادية كبيرة ويستغرق وقتاً طويلاً، لذلك قرر البوكيرك تأجيله والشروع بتنفيذ حلمه الثاني[٢].

كان التوجه هذه المرة نحو عدن، فقد توالت من لشبونه التعليمات من ملك البرتغال إلى ضباط البحرية وعلى رأسهم البوكيرك، بضرورة احتلال عدن والتغلغل في البحر الأحمر[٣]، فقد أدرك البرتغاليون من أن احتلالهم لجزيرة سقطرى لم يقطع الطريق البحري بين الهند والبحر الأحمر، وأنه بالسيطرة عليها يمكن شل حركة تجارة البحر الأحمر[٤]، وقد جاءت التأكيدات على احتلال عدن وضرورة التوجه نحو البحر الأحمر من خلال الرسائل التي بعث بها البوكيرك إلى ملك البرتغال، ففي رسالة بعث بها من كوشين بتاريخ ٢٠/٨/ ١٥١٢، يخبره فيها أنه أرسل ثلاث سفن لتحطيم حصن (سقطرى)، ولتحصيل ضرائب هرمز، وأنها التحقت بعد ذلك بالبحر الأحمر كما كان مقرراً لإيقاف التجارة بزيلع وبربرة، وهناك رسالة أخرى تبين سبب التوجه إلى عدن من خلال رسالة بعث بها البوكيرك إلى ملك البرتغال يطلعه فيها على إخبار عدن وعلى الإشاعات المتعلقة بقرب تحرك أسطول المماليك نحو مدخل البحر الأحمر[٥]، قال

---

(١) غسان علي الرمال، المصدر السابق، ص٩٩؛ غريغوري بونداريفسكي، المصدر السابق، ص٤٤.

(٢) غسان علي الرمال، المصدر السابق، ص٩٩.

(٣) Serjeant, R.B, the Portuguese of the South Arabian Coast, Oxford at the Claren don Press, 1963, P.16;

مذكرات دوارتي بربروسا، المصدر السابق، ص٣٨.

(٤) حسن صالح شهاب، فن الملاحة عند العرب، ص٤٨.

(٥) أحمد بو شرب، المصدر السابق، ص٤١.

فيها: «إن أعظم الشرور كلها بالنسبة إلى كوا هو أن الرومان قادمون.. إن هذا مصدر عظيم للخطر على الهند ويسبب كثيراً من القلق والاضطراب بين المواطنين والمسيحيين على حد سواء، وفيما يتعلق بهذه الملاحظات البحرية، أعرض لجلالتكم بكل احترام أنه لن تكون هناك ثقة أو سلام لرعايا جلالتكم في هذه الأجزاء، إلّا بأن نذهب إلى البحر الأحمر ونؤكد لهؤلاء الناس أن مخلوقات اسمها الرومان ليس لها وجود»[١].

قام البوكيرك بإرسال ابن أخيه جارسيادي نورنها (Jarsia de Noronha) إلى ملك البرتغال برسالة يعده فيها بإتمام الاستيلاء على عدن إلى العام التالي لأن إخضاعها يستلزم احتلال زيلع وبربرة، على ساحل الصومال الشرقي، وجزيرة قمران[٢].

بدأ اهتمام البرتغاليين بعدن قبل وصول حملاتهم العسكرية إليها، فقد وجهوا إليها العيون عندما بعثوا في العام ١٥٠٣م، بالرحالة البرتغالي لودفيكو دي بارثيما جاسوساً لهم إلى عدن بعد أن كان قد تظاهر بالإسلام وتعرف عليها[٣].

قام البوكيرك قبل الهجوم على عدن، بعقد اجتماع مع هيأة القيادة البحرية لمناقشة أمر الهجوم على عدن، وتقرر مهاجمتها بصورة مباغتة من دون عرض الصلح عليها - والذي اقترحه بعض بحارته - وقد أيد البوكيرك

---

(١) مقتبس في: أحمد محمد عبيد بطي، المصدر السابق، ص١١١.

(٢) محمد نصر الدين عثمان، المصدر السابق، ص١٢٥.

(٣) لمياء أحمد عبدالله شافعي، حركات الأسطول البرتغالي حول جزيرة العرب في النصف الأوّل من القرن العاشر الهجري كما رصدها مؤرخان مكيان، ندوة البحر الأحمر عبر عصور التاريخ، عقدها إتحاد المؤرخين العرب في القاهرة، ٢٠٠٣م، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، (د.ت)، ص١٦٤.

هذا الرأي بقوله: «**إن مدينة مهمة كعدن ليس من الملائم مناقشة ما يجب عمله وإنما مهاجمتها على الفور فمعنى الحوار مع أهلها، إتاحة الفرصة لهم للاستعداد للدفاع عنها على نحو أفضل مما هم عليه**»[١]، كما أوضح في رسالة إلى ملك البرتغال بشأن الأوضاع في البحر الأحمر وعدن، بأنه ينبغي الاستيلاء على عدن وإقامة قلعة فيها، فهي ميناء جيد يصلح ملجأ للسفن البرتغالية في الشتاء، كما أنها المفتاح للسيطرة على المضائق الموجودة في المنطقة[٢].

قرر البوكيرك الشروع فعلاً في الاستيلاء على عدن، بعد أن قام بتعيين حاكم ينوب عنه في الهند، فتحرك أسطوله منطلقاً من كوا في العام ١٥١٣م، وكان مكوناً من عشرين سفينة برتغالية وهندية، وتحمل على ظهرها قوة عسكرية بلغ تعدادها ما يقارب ألفين وخمسمائة، منهم ألف وسبعمائة جندي برتغالي والباقي جنود من ماليبار وكوشين والهند[٣]، تحت قيادة البوكيرك[٤].

اعتمد البوكيرك السرية التامة لحركته حتى لا يفقد عنصر المباغتة، كما أنه أصدر أوامره بالتوجه أولاً إلى الرأس الإفريقي في الصومال، وقد

---

(١) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، المصدر السابق، ج٤، ص٤٤٦.

(٢) محمد نصر مهنا، دليل الخليج العربي - دراسة في العلاقات الدولية والإقليمية، مطابع رويال - المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ١٩٩٠م، ص٥٦.

(٣) إن اعتماد البرتغاليين على الجنود الهنود (ملياريين وكوشينيين)، يعود إلى قلة أعدادهم البشرية وكانت السبب أيضاً في نهاية دولتهم.

(٤) أحمد محمد عبيد بطي، المصدر السابق، ص٨٥؛ محمد عبد الحسين الحلي، عدن والمطامع البرتغالية في القرن السادس عشر، أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية، ج٢، مركز الدراسات والوثائق في الديوان الأميري برأس الخيمة، ٢٩-٣١ آب/ أغسطس، ١٩٨٧م، ص٩٧؛ Serjeant, R.B, Op., Cit., P.16.

وصل الأسطول فعلاً إلى هناك، وبعد أن تزود الأسطول بالماء الصالح للشرب والطعام، اتجه نحو جزيرة سقطرى واستقبله سكانها المسيحيون، وقدم لهم الهدايا، ثم أمر وحدة من وحداته أن تدخل المدينة وتهدم بيوت العرب فيها، وقد صادفته رياح شديدة أخرت مركبه بضعة أيام، وأخيراً غادر سقطرى ووصل إلى عدن مساء يوم الرابع والعشرين من آذار/ مارس عام ١٥١٣م، حيث ألقت سفنه مراسيها خارج الميناء(١).

فرض البوكيرك الحصار حول المدينة، وكانت عدن تحت قيادة الأمير مرجان الظافري(٢)، وكان البوكيرك قد طلب من حاكمها تسليم المدينة إليه، وعندما رفض حاكم عدن تسليم المدينة والاستجابة لتهديد البرتغاليين، قام البوكيرك بمهاجمة المدينة بعد أن استولى على بعض السفن الراسية في الميناء وقصف المدينة بنيران المدفعية(٣).

صمم سكان عدن الدفاع عن مدينتهم والتحموا معهم في معركة حامية، اضطرت البوكيرك إلى الانسحاب، وأمر جنوده بالعودة إلى السفن، وعند خروجه حاول الانتقام لخسارته فقام بإحراق أربع سفن عربية راسية في ميناء عدن(٤)، وكان لقلعة صيرة الحصينة الدور الحاسم

---

(١) فالح حنظل، العرب والبرتغال في التاريخ، ص٢١٨.

(٢) مرجان الظافري: كان حاكماً لعدن في أيام السلطان عامر بن عبد الوهاب الظافر، استمر حتى سقوط الدولة الطاهرية عام ١٥١٧م، ويطلق عليه الظافري نسبة إلى لقب السلطان عامر الظافر. ينظر: السيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأوّل لليمن، ص٧١؛ محمد نصر الدين عثمان، المصدر السابق، ص١٢٥.

(٣) ابتسام محمد صادق الجواهرجي، المصدر السابق، ص٨٣.

(٤) محمد عبد الحسين الحلي، عدن والمطامع البرتغالية في القرن السادس عشر، ص٩٧.

في المعركة، بعد التحامهم ومقاومتهم للغزو البرتغالي لعدن ولسواحلها[١].

انسحب البرتغاليون من ميناء عدن واتجهوا إلى باب المندب ومنها إلى البحر الأحمر شمالاً[٢]. وعند وصولهم إلى مدخل البحر الأحمر، أمر البوكيرك برفع الأعلام على السفن وبإطلاق المدافع جميعاً، لأنهم كانوا أول برتغاليين يصلون إلى هذا المدخل منذ اكتشاف الهند، وقد مرّ بجزيرة بريم، الواقعة في مدخل البحر الأحمر، وأرسل بعثة لاستكشافها وعندما وجدها غير ملائمة لإقامة الحصون عليها تركها بعد أن خربها[٣]. وفي باب المندب وصل الأسطول إلى جزيرة صغيرة فيها، وهناك ألقوا القبض على سفينة عربية بها ملّاح عربي وأجبروه تحت التهديد أن يدلهم على الطريق المؤدي إلى ينبع[٤]، وعند جزيرة زقر في وسط المضيق وجد في مينائها أربع سفن حبشية بها بضائع محملة إلى مكة المكرمة وجده وفيها عدد من الركاب الأحباش والعرب، فأمر البوكيرك بعزل العرب عن الأحباش وأمر بقطع أنوف العرب وآذانهم وأنزلهم جرحى إلى البر[٥]. ذلك يعبر عن الحقد الدفين والعنجهية التي كانت من أبرز سمات سلوكهم العدواني ضد العرب المسلمين.

---

(١) فالح حنظل، العرب والبرتغال في التاريخ، ص٢٢٣.

(٢) ابتسام محمد صادق الجواهرجي، المصدر السابق، ص٨٤؛

Serjeant, R.B., Op., Cit., P.48.

(٣) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، المصدر السابق، ج٤، ص٤٧٢، ص ص٥٠٣-٥٠٤؛ غسان علي الرمال، المصدر السابق، ص١٣٨.

(٤) فالح حنظل، الأطماع البرتغالية في المقدسات الإسلامية، أبحاث ندوة رأس الخيمة التاريخية، ج١، آب/ أغسطس ١٩٨٧م، ص١٣٦.

(٥) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، المصدر السابق، ج٤، ص٤٧٣.

مرَّ الأسطول البرتغالي بالموانئ اليمنية المطلة على البحر الأحمر[١]، منها المخا ثم البقعة[٢] والمتينة[٣]، ولم يتمكنوا بالنزول في شيء من هذه الموانئ إذ كان أهلها وقوات السلطان متأهبين للدفاع عن مدنهم، ثم صاروا على مشارف الحديدة ولم يقدموا على دخولها أيضاً فقاموا بقصفها بالقنابل[٤]، وواصلوا إبحارهم حتى وصلوا إلى جزيرة كمران - قمران، الواقعة شمال الحديدة في العام نفسه، وكانت القوة البرتغالية مؤلفة من ستة عشر مركباً وسيطروا عليها، واستقروا فيها أربعة أشهر، عاثوا فيها فساداً ونهباً كما هي عادتهم في إرهاب السكان، وقتلوا حاكمها أيضاً الشريف محمد بن عبد العزيز ابن سفيان ومن كان معه[٥]، وقد حرص البوكيرك أثناء إقامته في جزيرة قمران وتجواله داخل البحر الأحمر أن يجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن البحر ومراكزه

(١) محمد نصر الدين عثمان، المصدر السابق، ص١٢٥.

(٢) البقعة: مدينة ساحلية تقع إلى الشمال من المخا قبالة زبيد من الغرب. ينظر: أبو الضيا عبد الرحمن بن علي الديبع الشيباني الزبيدي، الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار زبيد، دراسة وتحقيق محمد عيسى صالحية، ط١، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، قسم التراث العربي، الكويت ١٩٨٢م، ص٢٦١.

(٣) المتينة: قرية ساحلية تقع عند نهاية وادي زبيد الشرقي. ينظر: المصدر نفسه، ص٢٦١.

(٤) أبو الضيا عبد الرحمن بن علي الديبع الشيباني الزبيدي، قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، ق٢، حققه وعلق عليه محمد بن علي الأكوع الحوالي، مطبعة السعادة، مصر، (د.ت)، ص٢١٧؛ بامخرمة، أبو محمد عبدالله الطيب، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، ج٣، مخطوطة، محفوظة بدار الكتب القومية في القاهرة، تحت رقم ٤٤١٠ تاريخ، ورقة ٩٤.

(٥) ابن الديبع، قرة العيون، ق٢، ص٢١٧؛ حمزة علي لقمان، تاريخ الجزر اليمنية، ص٩؛ محمد نصر الدين عثمان، المصدر السابق، ص١٢٦.

المختلفة[١]، وقد عانى البحارة البرتغاليون الكثير في جزيرة قمران، إذ زادت نسبة الوفيات بينهم بسبب المرض والطقس السيئ ونقص الغذاء، مما جعلهم يغادرونها في تموز/ يوليو ١٥١٣م[٢]، بعد أن دمروا آبارها حتى لا تستطيع أي قوة أخرى الاستفادة منها[٣].

واصل البوكيرك عام ١٥١٣م، تقدمه في البحر الأحمر لكي يحقق هدفه الآخر من الحملة وهو مهاجمة ميناء جدة[٤]، لغرض تدميره والعبث بالمقدسات الإسلامية بعد الاستيلاء على مكة والمدينة[٥].

أحدث خبر وصول الأسطول البرتغالي إلى البحر الأحمر لغزو جدة

(١) عبد الحميد البطريق، من تاريخ اليمن الحديث (١٥١٧-١٨٤٠م)، معهد البحوث والدراسات العربية - قسم البحوث والدراسات التاريخية، مطبعة المعرفة، ١٩٦٩م، ص٢٠؛ قصي كامل شبيب، أهمية مضيق باب المندب في التاريخ الحديث والمعاصر، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة المستنصرية، المعهد العالي للدراسات القومية، ١٩٧٩م، ص٣٥.

(٢) أحمد محمد عبيد بطي، المصدر السابق، ص٨٨.

(٣) محمد نصر الدين عثمان، المصدر السابق، ص١٢٦.

(٤) من الضروري التنويه إلى أن عموم الوثائق البرتغالية لم تكن كلها تفرق تماماً بين جدة ومكة، ومضيق مكة كما كان يطلق عليه، ولا موقعها جغرافياً بشكل صحيح في تلك الحقبة لعدم دقة الخرائط البرتغالية التي وضعت عن البحر الأحمر وشواطئه، حيث نجد أن بعضها حين يتكلم عن مكة فهو يقصد بها جدة، لأن البرتغاليين لم يصلوا إلى مكة ولم يدخلوها قط بوصفهم جنوداً غزاة، أو نزلوا بقربها بسفن حربية لأنها ليست محاذية لساحل البحر، ولذا فجدّه هي المقصودة بذلك التعبير الجغرافي في تلك الحقبة.

ينظر: محمد حميد السلمان، جدّه في زمن البرتغاليين، سلسلة مداولات علمية، جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس تعاون الخليج العربي عبر العصور، جدة - المملكة العربية السعودية، نيسان/ أبريل ٢٠٠٨م، ص ص٢٨٩-٢٩٠.

(٥) محمد نصر الدين عثمان، المصدر السابق، ص١٢٦.

اضطراباً هائلاً وصدىً سيئاً بين سكانها، ورد فعل عنيف، ففي الحجاز خشي الشريف بركات[١] - أمير مكة - من احتمال نجاح الغزاة في الوصول إلى جدة[٢] ولكن الرياح العكسية حالت من دون وصوله إليها[٣]، فقد تعرض أسطولهم إلى عاصفة شديدة فرقت سفنهم وألحقت الدمار بها[٤].

وقد ذكرت هذه الحادثة في الوثائق البرتغالية فقط، فلم يتحدث عنها المؤرخون المسلمون المعاصرون لهذه الحقبة، وقد وصفت هذه الوثائق الصعوبات التي واجهت الأسطول البرتغالي في البحر الأحمر من تمزق لأشرعة السفن وارتطامها بجزيرة قمران، بالإضافة إلى أن بعضها قد غرزت في الرمال ولم تتحرك[٥].

وفي ترجمة للسجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك الوثائقي ذكر **«بأن البوكيرك عندما رسا بأسطوله إزاء ميناء محمي من الرياح الغربية، رأى من فوق أعلى الدقل (أو الصاري) قطاعاً من البحر مصطبغاً بحمرة قانية في اتجاه مدخل المضايق ومن ثم إلى عدن ويمتد إلى مدى الرؤية، وقد أصيب البوكيرك بالرعب لرؤية هذا المنظر»**[٦] **وعندما قرر البوكيرك أن يستريح**

---

(١) الشريف بركات بن محمد (٨٥٨-٩٣١هـ/ ١٤٥٤-١٥٢٥م): هو بركات بن محمد بن الحسن بن عجلان، ولد بمكة وولي إمارتها بعد وفاة أبيه سنة ٩٠٣هـ إلى أن توفي. ينظر: ابن الدبيع، الفضل المزيد، ص١٠٩.

(٢) محمد نصر الدين عثمان، المصدر السابق، ص١٢٦.

(٣) غسان علي الرمال، المصدر السابق، ص١٤١.

(٤) بشير حمود كاظم، تجارة البحر الأحمر، ص٨٩.

(٥) فالح حنظل، الأطماع البرتغالية في المقدسات الإسلامية، ص١٣٧. للمزيد ينظر: المصدر نفسه.

(٦) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، المصدر السابق، ج٤، ص٤٨٠.

بأسطوله أياماً قليلة أخرى وأن يظل راسياً مكانه، وبينما هو في حالة انتظار من أجل الإبحار إلى جده، ظهر في السماء ناحية الحبشة (برست جواو) صليب بشكل واضح جداً، وكان متالقاً ولامعاً، وعندما مرت فوقه سحابة تمزقت السحابة دون أن تمسه (الصليب) ودون أن تحجب وضوحه، ولقد رأى هذا الصليب كل فرد في الأسطول، فلما رأى أفونسو دلبوكيرك هذا الصليب، خلص إلى أن ربهم يوجههم إلى ناحية أرض (برست جواو) - الحبشة - وليس إلى ناحية جدة، ما دام - أي ربهم - قد أظهر علامة صليبه المقدس في هذه الناحية، فقرر البوكيرك ان يتجه إلى البر الإفريقي»[(١)].

كما ذكر «إنه في نفس الليلة التي قرر فيها البوكيرك المغادرة نحو الحبشة وكانت السماء صافية تماماً، هبط من ناحية الحبشة شواظ - شعاع ناري - من نار، كان هذا الشواظ عريضاً جداً وطويلاً جداً، وراح يتسع بينما هو يهبط في اتجاه جده ومكة فسبب رعباً هائلاً بين رجال الأسطول»[(٢)].

وهنا يبرز الدين أو حسب اعتقاد البرتغاليين (التوجيه الإلهي) في تغيير وجهة الحملة البرتغالية نحو هدف آخر.

وبعد فشل البوكيرك في الاستيلاء على جدة عام ١٥١٣م، اضطر إلى العودة مرة أخرى إلى جزيرة قمران لقضاء فصل الشتاء، إذ بقي فيها زهاء الشهرين[(٣)]، كما أنه استولى على جزيرة بريم وأمر بإقامة صليب ضخم ومرتفع فوقها صنعه من خشب أحد الصواري ونقش عليه اسم الجزيرة كما أطلقه عليها وهو (جزيرة الصليب الحقيقي)، ليكون ذكرى تخلد مجيئه إلى

---

(١) المصدر نفسه، ص ص٤٩٢-٤٩٣.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٩٦.

(٣) غسان علي الرمال، المصدر السابق، ص١٤١؛ محمد نصر الدين عثمان، المصدر السابق، ص١٢٧.

مضايق البحر الأحمر[١]، غير أنه لم يبق فيها كثيراً رغم موقعها الإستراتيجي المهم، لعدم توفر الماء فيها، ليحتلها فيما بعد القراصنة الذين يطوفون البحر الأحمر ويهاجمون السفن، ولكنهم غادروها أيضاً بسبب عدم وجود الماء[٢].

في طريق عودة الأسطول البرتغالي من البحر الأحمر، أغار على ميناء زيلع - على ساحل إفريقيا الشرقي - وأطلق نيران مدفعيته على السفن الراسية فيه وأشعل فيها النيران بحجة إمداد الأهالي للأسطول المصري بالمياه أثناء حملتهم الفاشلة على عدن، كما قام بنهب ميناء بربرة وهاجم ميناء سواكن وهاجم جزيرة دهلك - المقابلة لساحل أرتيريا[٣]. وبهذا استطاعوا السيطرة على الساحل الشرقي الإفريقي بأكمله[٤].

وفي طريق العودة توقف البوكيرك وأسطوله عند عدن في محاولة أخرى لاحتلالها، وقد رابط أمامها وأخذ بقصفها لمدة (١٥) خمسة عشر يوماً، فخرب بعض بيوتها وقتل العديد من سكانها ولكنه لم يستطع أن ينال منها[٥]، بسبب استعداد أهلها للمقاومة، كما أن المدينة قد تم تحصينها

---

(١) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، المصدر السابق، ج٤، ص٥٠٤.

(٢) سعد زغلول عبد ربه، البرتغاليون والبحر الأحمر، مجلة الدارة، العدد ٢، السنة السادسة، الرياض، المملكة العربية السعودية، كانون الثاني/ يناير ١٩٨١م، ص١١٤؛ حمزة علي لقمان، معارك حاسمة في تاريخ اليمن، ص١٤٧.

(٣) عيسى بن لطف الله، المصدر السابق، ورقة ٩؛ وليد محمد جرادات، المصدر السابق، ص٩٥؛ أحمد محمد عبيد بطي، المصدر السابق، ص٩٠.

(٤) قصي كامل شبيب وإيلاف عاصم، المصدر السابق، ص٢٨١.

(٥) عيسى بن لطف الله، المصدر السابق، ورقة ٩؛ غسان علي الرمال، المصدر السابق، ص١٤٢.

جيداً[١]. وقد غادرها البوكيرك إلى الهند بعد أن قام بقصف المدينة وأحرق السفن اليمنية الراسية في مينائها[٢].

بينت الرسائل التي بعث بها البوكيرك إلى ملك البرتغال من الهند نشاطاته في البحر الأحمر، ففي رسالة بتاريخ ٢/١٢/١٥١٣، أخبر بواسطتها الملك عن الغنائم التي حصل عليها البرتغاليون بعد إغارتهم على السفن بالبحر الأحمر، ورسالة أخرى إلى الملك في ٤/١٢/١٥١٣، يطلعه فيها على الهجوم على عدن مرتين وعلى دخول الأسطول البرتغالي إلى مضيق باب المندب[٣].

على الرغم من أن البوكيرك لم يستطع أن يحقق نصراً عسكرياً حاسماً في البحر الأحمر إلّا أنه استطاع أن يتوغل لأول مرة في تلك المنطقة مما ساعد على التعرف على طبيعتها ورسم خطط عمل مستقبلية للسيطرة على عدن وغلق مضيق البحر الأحمر[٤]، إذ استطاع أثناء تجواله في البحر الأحمر أن يجمع قدراً غير قليل من المعلومات وأن يلمس عملياً كيفية التعاون مع الحبشة، وعلى مجريات الأمور في المضايق والمراكز المختلفة والحركة التجارية فيها[٥].

عاد الأسطول البرتغالي بقيادة البوكيرك إلى الهند، حيث وصل إلى

---

(١) فالح حنظل، العرب والبرتغال في التاريخ، ص٢٢٧؛

Stripling, Op., Cit., P.34.

(٢) غسان علي الرمال، المصدر السابق، ص١٤٢؛ فالح حنظل، العرب والبرتغال في التاريخ، ص٢٢٨.

(٣) أحمد بو شرب، المصدر السابق، ص٤١.

(٤) بشير حمود كاظم، تجارة البحر الأحمر، ص٨٩.

(٥) السجل الكامل لأعمال أفونسود لبوكيرك، المصدر السابق، ج٤، ص٥٠٣؛ قصي كامل شبيب وإيلاف عاصم، المصدر السابق، ص٢٨٢.

ديو ثم توجه إلى كوا لينظم إقامة القلاع والحصون على ساحل الهند الغربي - المليبار - ويخضع حكامها لسلطة الملك البرتغالي، كما أنه طوال هذه المدة كان يفكر في الرجوع إلى الخليج وإنهاء أمر هرمز خشية سيطرة الفرس عليها مرة أخرى، والاستيلاء على عدن والتوغل في البحر الأحمر، ليحقق ما فشل في تحقيقه في حملته السابقة على المنطقة[١].

تبين الرسائل التي بعثها البوكيرك إلى ملك البرتغال الخطط والمشاريع المستقبلية المزمع القيام بها لإعادة السيطرة على مداخل البحر الأحمر والساحل اليمني والساحل الغربي للبحر الأحمر، ففي رسالة مؤرخة في ٢٠/ ١٠/ ١٥١٤، بعثها إلى الملك تتعلق بمشاريع عسكرية بالبحر الأحمر وتعرض في هذه الرسالة إلى الطريقة التي يمكن بها احتلال عدن، وأوصى بعدم تحصين مدخل البحر الأحمر وأشار إلى مينائي زيلع وبربرة، وأعطى أخباراً عن جزر القمر وفي الأخير أوصى بالاعتماد على ميناء مصوع بالحبشة للتمكن من مراقبة جدة ومكة، وهناك رسالة أخرى مؤرخة في ٢٣/ ١٠/ ١٥١٤ بعث بها إلى الملك يخبره فيها بأنه أمر بصنع سفن تتلاءم وظروف الملاحة بالبحر الأحمر لاستعمالها هناك عند الحاجة، وأيضاً رسالة مؤرخة في ٢٥/ ١٠/ ١٥١٤ يطلع فيها الملك على مشاريع وفعاليات عسكرية بالبحر الأحمر[٢].

شهد العام ١٥١٥، عودة الأسطول البرتغالي بقيادة البوكيرك من

---

(١) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، المصدر السابق، ج٤، ص٥٠٣؛ حسن الأمين، المصدر السابق، ص٦٦؛ محمد نصر الدين عثمان، المصدر السابق، ص١٢٧.

(٢) أحمد بو شرب، المصدر السابق، ص٤١.

الهند إلى هرمز، حيث تمكن من السيطرة عليها، وبذلك أنهى سيطرة أمرائها على المياه بين الهند والبحر الأحمر بعد أن استمرت قرنين ونصف القرن[١]، وقد أوكل البوكيرك - بعد أن ساءت حالته الصحية وأخذت تتدهور في تلك الأثناء - قيادة هرمز لابن أخيه بيرو (Pero)، ليعود أدراجه إلى كوا حيث توفي قبالة مينائها بعد وصوله مباشرة في ١٥/١٢/١٥١٥، بعد محاولة يائسة لاحتلال كاليكوت لاتخاذها قاعدة له[٢].

خلف البوكيرك كنائب للملك البرتغالي في الهند القائد لوبوسواريز دي البرجاريا (Lopo Soures De Albergoria)، وكان شخصية تختلف تماماً عن البوكيرك، كما أنه باشر أعماله الحكومية بتفقد الحاميات وعيّن فيها قادة جدد[٣].

على الرغم من فشل البوكيرك في الاستيلاء على عدن سنة ١٥١٣، إلّا أن فكرة السيطرة عليها ظلت تراود البرتغاليين الذين كانوا يعتبرونها ضرورة ملحة للسيطرة على البحر الأحمر، وقطع أي اتصال بين مصر والهند وتثبيت وجودهم بتوجيه ضربة مباشرة لمصالح مصر الاقتصادية[٤]، ولذلك فقد كان البرتغاليون يراقبون الموقف وتطوره في عدن وما حولها من المناطق اليمنية باهتمام بالغ[٥]، إذ كانت أنباء الصراع الناشب بين الأسطول المملوكي وبني طاهر منذ عام ١٥١٥م، واستيلاء

---

(١) محمد نصر الدين عثمان، المصدر السابق، ص١٢٧.

(٢) السجل الكامل لأعمال أفونسو دلبوكيرك، المصدر السابق، ج٤، ص٦٦٢.

(٣) أرنولدت ويلسون، المصدر السابق، ص٧٨.

(٤) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص ص٥١٨-٥١٩.

(٥) عادل صالح عبدالله اليماني، الصراع السياسي في الدولة الكثيرية (١٣٨٠-١٥٦٩م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة عدن، كلية الآداب، ٢٠٠٦م، ص١٠٨.

القائد المملوكي على بعض الموانئ اليمنية في البحر الأحمر وتوغل قواته لاستكمال السيطرة على البحر[١]، كما أن الأنباء التي وصلتهم عن تجهيز سلطان مصر لأسطول كبير في السويس ليتوجه به إلى الهند لمواجهة البرتغاليين هناك[٢]. ولأجل كل هذه الأسباب جعلت ملك البرتغال يصدر الأوامر للتحضير لحملة تتجه إلى البحر الأحمر لملاقاة هذا الأسطول[٣].

■ الحملة البرتغالية الثانية عام ١٥١٧م:

في عام ١٥١٧، أبحر سواريز من كوا، وكان الأسطول الذي يقوده مكوناً من أكثر من ثلاثين سفينة تقريباً، مختلفة الأحجام والأنواع، وتحمل على متنها ألف ومئتين برتغالي وثمنمائة من مقاتلي مليبار نصفهم من البحارة والنصف الآخر من الجنود[٤]، وكان الهدف من الحملة بالإضافة إلى السيطرة على السواحل اليمنية، القيام بتحطيم الأسطول المملوكي في البحر الأحمر والعمل على تدمير جده وإقامة اتصال مباشر مع الحبشة[٥].

---

(١) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص٥١٩.

(٢) حمزة علي لقمان، معارك حاسمة في تاريخ اليمن، ص١١٨.

(٣) Danvers, Op., Cit., Vol.I, P.334.

(٤) أف. آل. بلايفير، تاريخ العربية السعيدة أو اليمن، ترجمة سعيد عبد الخير النوبان وعلي محمد باحشوان، ط١، دار جامعة عدن للطباعة والنشر، الجمهورية اليمنية، ١٩٩٩م، ص٩٨؛

Danvers, Op., Cit., Vol.I, P.334.

(٥) السيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، ص١٠٢؛ قصي كامل شبيب، المصدر السابق، ص٤٢.

تمكن الأسطول من الوصول إلى جزيرة سقطرى بعد ثلاثة أسابيع ولم يلبث أن أبحر منها إلى عدن فوصلها في الخامس من شهر آذار/ مارس من العام نفسه[١]، فوجد أن تحصيناتها (سور الحصن) قد دمر على يد القائد المملوكي[٢]. وقد بدأ على الفور في مراسلة حاكم عدن مرجان الظافري، موضحاً أن هدفه لا يعدو مجرد تقديم العون له ضد المماليك الذين انتهكوا حرمة بلاده، والعمل على طردهم منها[٣]، مقابل تقديم المؤن اللازمة لحملته، وقد كان موقف حاكمها ضعيفاً لدرجة أنه قدم المعونة اللازمة للحملة البرتغالية بل ذهب أبعد من ذلك بأن عرض عليه تسليم المدينة[٤]، ولكن سواريز فضل أن يؤجل ذلك حتى تتم له السيطرة على ميناء جده واكتفى بطلب المؤونة[٥].

توجه الأسطول البرتغالي من عدن إلى جده[٦]، وكان سواريز قد علم وهو في عدن بأن القائد المملوكي اضطر إلى اللجوء إلى جده لرداءة الطقس، فقرر اللحاق بأسطوله إلى هناك[٧].

---

(١) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص٥١٩؛
Serjeant, R.B., Op., Cit., P.50.

(٢) Danvers, Op., Cit., Vol.I, P.334.

(٣) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص٥١٩؛
Serjeant, R.B, Op., Cit., P.17.

(٤) بامخرمة، قلادة النحر، ج٣، ورقة ٦٢١؛ علي خضير المشايخي، المصدر السابق، ص١٩.

(٥) خالد سالم باوزير، المصدر السابق، ص٥٠.

(٦) حسن صالح شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري، ط٢، دار العودة - بيروت، ١٩٨١م، ص١٩٩.

(٧) Danvers, Op., Cit., Vol.I, P.335.

سار سواريز بأسطوله إلى باب المندب حتى وصل إلى جده والتي لم يصل البرتغاليون إلى سواحلها من قبل[١]، وقد فشلت الحملة البرتغالية أمام جدة بفضل التحصينات التي كان المماليك قد أقاموها هناك لأنهم كانوا قد علموا بمسير البرتغاليين إلى جده، بالإضافة إلى امتلاكهم للأسلحة الكافية والفعالة آنذاك[٢]. ويبدو أن الطبيعة هي الأخرى كانت السبب في فشل حملة سواريز على جده، فقد هبت رياح عاتية قذفت بهم في عرض البحر ونظراً لنفاذ ماء الشرب لديهم فأنهم اضطروا إلى الانسحاب إلى جزيرة قمران، وأقاموا فيها ثلاثة أشهر، إذ عانى فيها البرتغاليون كثيراً من نقص المؤن والمرض فاضطروا إلى مغادرتها بعد أن دمروا تحصيناتها التي أنشأها القائد المملوكي وأحرقوا نخيلها[٣].

توجه الأسطول البرتغالي من قمران إلى جزيرة دهلك ومن هناك اتجه إلى مصوع حيث وقعوا في فخ نصب لهم تعرضوا من جرائه لأضرار جسيمة[٤]، فتوجهت القوة المتبقية إلى زيلع، وكعادتهم عند فشلهم في الحملات فإنهم قاموا بالانتقام والتخريب حيث هاجموا وحرقوا وخربوا ميناء زيلع ليتوجهوا بعدها عائدين مرة أخرى إلى عدن[٥].

---

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي، المصدر السابق، ص٦٣.

(٢) بامخرمة، قلادة النحر، ج٣، ورقة ٦٢١؛ سعد زغلول، المصدر السابق، ص١١٧؛
Danvers, Op., Cit., Vol.I, P.335.

(٣) بامخرمة، قلادة النحر، ج٣، ورقة ٦٢٢؛ محمد عبد اللطيف البحراوي، المصدر السابق، ص٦٣؛
Danvers, Op., Cit., Vol.I, P.335.

(٤) سعد زغلول، المصدر السابق، ص١١٧.

(٥) Danvers, Op., Cit., Vol.I, P.335; Serjeánt, R.B., Op., Cit., P.17;
محمد عبد اللطيف البحراوي، المصدر السابق، ص٦٤.

وصل سواريز بما تبقى من أسطوله المُدَمّر إلى عدن في طريقه إلى المياه الهندية، بعد أن فشلت حملته فشلاً ذريعاً، مما أدى إلى هلاك عدد كبير من أفراد قواته، كما فشلت محاولاته في الاتصال بالحبشة(١).

انتهز حاكم عدن فرصة ذهاب سواريز، فعمل على تقوية تحصينات المدينة وإصلاح المدمر منها(٢)، مستعيناً بالإمدادات التي وصلته من المناطق المجاورة، وعند وصول سواريز إلى عدن، رفض حاكمها مرجان الظافري تسليمها له، مستنداً على القوة التي حشدها لمواجهة البرتغاليين(٣).

وكان أسطول سواريز قد أقام خمسة أيام بمحاذاة عدن متردداً في مهاجمتها بعد أن كان عازماً على أن يفعل بها مافعله بزيلع، لكن الخسائر التي تكبدها وكثرة ما فقده من قواته وتفشي المرض، أجبرته على التخلي عن فكرة الهجوم على عدن، ليعود بعدها ماراً بالساحل الصومالي ثم هرمز ومنها إلى الهند، وقد ندم على ترك عدن عندما عرض عليه حاكمها تسليم المدينة أول وصوله إليها(٤). ولذلك، كان مقدراً لسواريز الإخفاق في كلا هدفيه، القضاء على الأسطول المملوكي واحتلال عدن(٥).

(١) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص٥٢٣.
(٢) أف. آل. بلايفير، المصدر السابق، ص٩٨.
(٣) عادل صالح اليماني، المصدر السابق، ص١٠٩.
(٤) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص٥٢٣؛ سعد زغلول، المصدر السابق، ص١١٨؛
Danvers, Op., Cit., Vol.I, P.335.
(٥) Danvers, Op., Cit., Vol.I, P.334.

يبدو أن عمانوئيل الأول ملك البرتغال قد استبد به الغضب على سواريز وعزا إليه فشل الحملة والخسائر التي منيت بها، فلم يلبث أن عزله وأرسل بدله قائداً أشد منه قوةً هو دييجو لوبيز دي سكويرا (Diogo Lopes de Squeira) عام ١٥١٨م، ونصبه نائباً له في الهند[١].

على الرغم من الفشل الذريع الذي تعرض له البرتغاليون في حملاتهم البحرية في البحر الأحمر، أنهم قرروا المضي في تنفيذ مخططهم ومواصلة إرسال الحملات البحرية للبحر الأحمر، فتحركت حملة كبيرة من كوا في أوائل عام ١٥٢٠م، بقيادة لوبيزدي سكويرا[٢]، مكونة من أربع وعشرين سفينة، تحمل على متنها ألف وثمنمائة برتغالي، والعدد نفسه من سكان المستعمرات البرتغالية في الهند[٣]. وكان هدف هذه الحملة التركيز على مهاجمة جده بصفة خاصة، مع إنزال أول بعثة دبلوماسية برتغالية إلى السواحل الحبشية[٤]، كما كان في نيتهم الوصول إلى عدن[٥].

عندما اقترب الأسطول البرتغالي من ساحل عدن فُقدت سفينة سكويرا ومعها سفينة أخرى بين الصخور بالقرب من جزيرة عبد الكوري - أحد الجزر التابعة لسقطرى - ولكنه نجا مع طاقمه[٦].

(١) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص٥٢٤؛ محمد عبد اللطيف البحراوي، المصدر السابق، ص٦٤؛ محمد حميد السلمان، الغزو البرتغالي للجنوب العربي، ص٢٧٧.

(٢) سعد زغلول، المصدر السابق، ص١١٨؛ علي خضير المشايخي، المصدر السابق، ص١٩؛ محمد حميد السلمان، الغزو البرتغالي للجنوب العربي، ص٢٧٧.

(٣) Danvers, Op., Cit., Vol.I, P.346.

(٤) السيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، ص ص١٠٥-١٠٦.

(٥) حسن صالح شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري، ص٢٠١.

(٦) بامخرمة، قلادة النحر، ج٣، ورقة ٦٣١؛
Danvers, Op., Cit., Vol.I, P.346.

علم حاكم عدن مرجان الظافري بقرب وصول البرتغاليين، فاستعد وهيأ المقاتلين للمواجهة[١]، ونتيجة للصعوبات التي واجهها سكويرا في الطريق، فأنه لم يحاول الرسو بميناء عدن، بل توجه مباشرة إلى ميناء جدة، لكنه لم يستطع الوصول إليها بسبب الرياح المعاكسة، كما وصلت أنباء تشير إلى وجود قوات عسكرية إسلامية بها، فاضطر إلى تغيير وجهته والاتجاه إلى ميناء مصوع، حيث أنزل دي ليما روديكو (Rodego De Lima)، المبعوث البرتغالي لملك الحبشة[٢]، توجه الأسطول البرتغالي بعدها إلى جزيرة دهلك ومكث فيها حتى موسم الرياح[٣]، وخلال مدة إقامتهم بالجزيرة عمل البرتغاليون على بناء قلعة، وتهديد المراكب الداخلة للبحر الأحمر والخارجة منه مما يجعل السفن القادمة من الهند إلى جدة، تغير طريقها وتلجأ إلى عدن لتحتمي بها[٤]، وعندما غادروها إلى عدن قاموا بإحراقها وتدميرها، ولما وصلوا إلى عدن أظهروا الصداقة لأهلها وزودهم حاكمها مرجان الظافري بما يحتاجونه من المؤونة، وافتدى منهم بعض الأسرى، ثم توجهوا إلى جزيرة هرمز[٥].

من المهم أن نلاحظ تغير المواقف في هذه المرحلة سواء من

(١) بامخرمة، قلادة النحر، ج٣، ورقة ٦٣١.

(٢) سعد زغلول، المصدر السابق، ص١١٨؛ محمد عبد اللطيف البحراوي، المصدر السابق، ص٦٤؛

Serjeant, R.B., Op., Cit., P.18.

(٣) بامخرمة، قلادة النحر، ج٣، ورقة ٦٣٣.

(٤) لمياء أحمد شافعي، حركات الأسطول البرتغالي، ص١٧١.

(٥) بامخرمة، قلادة النحر، ج٣، ورقة ٦٣٤؛ حسن صالح شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري، ص٢٠١؛ محمد نصر الدين عثمان، المصدر السابق، ص١٣٠.

الجانب البرتغالي أم من حاكم عدن، فقد اتسم الموقف البرتغالي تجاه عدن خلال هذه الحملة بالضعف وسعيهم لطلب صداقة أهلها، ويعود السبب في ذلك إلى الصعوبات التي واجهتهم وخسارتهم لجزء من سفن الأسطول، لا سيما إذا ما علمنا أن الإبحار في البحر الأحمر محفوفاً بالمخاطر لطبيعته الصعبة، بالإضافة إلى علمهم بوجود الأسطول العثماني في المنطقة، فاكتفى البرتغاليون بتحقيق أحد أهدافهم وهو إيصال المبعوث البرتغالي إلى الحبشة، ليغادروا المنطقة بعد حصولهم على المؤن من حاكم عدن، أما موقف حاكم عدن من البرتغاليين فنجد تقلبه بين المواجهة والمهادنة، نتيجة إدراكه أن الخطر لم يتمثل بالبرتغاليين فقط، بل كان يوازيه الخطر المملوكي الذي بدأ هو الآخر منذ عام ١٥١٥م يبحث عن قاعدة توسعية له في المنطقة، كما أن المواجهة مع المماليك قد أضعفت تحصيناته، وحل محل الخطر المملوكي الخطر العثماني الذي سار على سياسة المماليك نفسها في التوسع في سواحل البحر الأحمر والسواحل اليمنية، مما جعله يظهر التعاون مع البرتغاليين خوفاً من الدخول في مواجهة خاسرة معهم، والدليل على أن ضعف تحصيناته كانت السبب في إظهار تعاونه مع البرتغاليين، إنه حالما تمكن من الحصول على الإمدادات وإجراء التحصينات، أظهر المقاومة لأي حملة برتغالية تحاول إخضاع عدن.

عمل سكويرا على تطوير سياسة البرتغال وتوسيعها في المحيط الهندي، وسمح للسفن البرتغالية التجارية بالمتاجرة مع بلدان شرق إفريقيا والهند، وأمن الحماية لها، مما زاد من عددها هناك بحيث أنها تمادت في أعمالها وتحولت من سفن تجارية إلى سفن قرصنة بحرية تنهب السفن التجارية غير البرتغالية التي تغير عليها وتغير على

الشواطئ. وبلغ بهم الأمر أخيراً أن أصبحت السفن البرتغالية تنهب بعضها البعض[١] لذلك توسعت أعمال القرصنة وشملت جميع الموانئ[٢].

شهد عام ١٥٢٠م، موت ملك البرتغال عمانوئيل الأول وكذلك وفاة حاكم عدن مرجان الظافري[٣] وكان للأول الدور الكبير في تشجيع وإرسال أخطر الحملات البرتغالية إلى بحار الشرق، ولا سيما السواحل العربية في الخليج العربي والبحر الأحمر، أما مرجان الظافري فكان له النصيب الأكبر في صد أقوى الهجمات سواءً البرتغالية أم المملوكية على عدن.

وجه البرتغاليون اهتمامهم بالساحل الشرقي الإفريقي، لا سيما بعد فشلهم في السيطرة على جدة[٤]، ولكنهم عاودوا تركيز اهتمامهم على عدن، فعملوا على إخضاعها لسيطرتهم، وذلك خوفاً من وقوعها في أيدي العثمانيين الذين أصبح لوجودهم في البحر الأحمر وزن كبير بالرغم من أنهم لم يكونوا قد بدؤوا بعد جهودهم البحرية الجدية في هذا البحر[٥].

لم تكن السواحل الحضرمية ذات أهمية بالنسبة للبرتغاليين، ولكن

---

(١) عادل صالح اليماني، المصدر السابق، ص١١٠؛ محمد نصر الدين عثمان، المصدر السابق، ص١٢٩.

(٢) عادل صالح اليماني، المصدر السابق، ص١١٠.

(٣) محمد نصر الدين عثمان، المصدر السابق، ص٢٧.

(٤) قصي كامل شبيب، المصدر السابق، ص٤٣.

(٥) محمد حميد السلمان، الغزو البرتغالي للجنوب العربي، ص٢٧٧؛ عبدالله سعيد الجعيدي، المصدر السابق، ص١٢٣؛ السيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، ص١٠٦.

بدأ الاهتمام والتفكير بها بعد فشلهم في السيطرة على عدن، فقد أدركوا أن صمود عدن لا يكمن فقط في تحصيناتها ودفاعاتها بل، أيضاً إلى المساعدات التي تتلقاها من القرى والموانئ اليمينية القريبة منها ولا سيما ميناء الشحر[١].

بدأت الأعمال البحرية البرتغالية ضد السواحل الحضرمية عام ١٥٢٣م، من أجل عزل عدن عزلاً تاماً عن روافد إمدادها من خلال شن سلسلة من الغارات لتحطيم الإمكانيات المادية والبشرية للمدينة المساندة لها وكانت في مقدمتها الشحر[٢].

● الحملات البرتغالية على ميناء الشحر والموانئ اليمنية الأخرى

■ الحملة البرتغالية الأولى عام ١٥٢٣م:

توجهت حملة برتغالية جديدة من كوا في عام ١٥٢٣م، إلى البحر الأحمر بقيادة لويزدي منزيس (Luis de Menzes) مكونة من أكثر من تسع سفن شراعية وحربية ومراكب، وهذه الحملة كانت تحاول إعادة المبعوث البرتغالي لملك الحبشة من مصوع، ولكنها فشلت في مهمتها[٣]، فاتجهت للهجوم على ميناء الشحر اليمني، وكان وصولهم إلى ميناء

---

(١) عادل صالح اليماني، المصدر السابق، ص١١٠.

(٢) المصدر نفسه، ص١١٠؛ عبدالله سعيد سليمان الجعيدي، السلطنة الكثيرية الأولى في حضرموت (٨١٤-١١٤٣هـ/ ١٤١١-١٧٣٠م)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، كلية التربية - ابن رشد، ٢٠٠٣م، ص١٢٣.

(٣) محمد نصر الدين عثمان، المصدر السابق، ص٦٣؛ صباح مهدي رميض، المصدر السابق، ص٧٢؛

Serjeant, R.B., Op., Cit., P.52.

الشحر في وقت لم يكن حاكمها بدر أبو طويرق[١] موجوداً فيها[٢]، وقد بدأ الهجوم على الميناء في يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر شباط/ فبراير عام ١٥٢٣م، ثم نزل البرتغاليون إلى المدينة فنشب قتال شديد بينهم وبين أهالي المدينة، استمر ثلاثة أيام متتالية، شمل كل أحياء مدينة الشحر، فاستشهد في المعركة عدد كبير من أهل المدينة ونهبت، فغادرها البرتغاليون بعد أربعة أيام من المعركة مضطرين أمام صمود أهل المدينة ليتجهوا إلى دهلك[٣].

ومنذ عام ١٥٢٣م، بدأ القراصنة البرتغاليون يظهرون على شواطئ

---

(١) بدر أبو طويرق، ولد عام ١٤٥٦م وتوفي عام ١٥٦٩م، تولى الحكم في السلطنة الكثيرية عام ١٥٢١م، وكانت السلطنة الكثيرية قد تأسست منذ عام ١٤١٣م، على أثر سيطرة علي بن عمر الكثيري على إقليم ظفار بعد وفاة حاكمه، ثم خلفه ابنه عبدالله الذي استطاع توسيع سيطرة السلطنة بحيث وصلت إلى حضرموت، بعد أن كانوا عمالاً للطاهريين على الشحر وبعد انتهاء سيطرة الطاهريين عليها، تمكن آل كثير من استعادة السيطرة عليها عام ١٤٩٤م، وحافظوا على علاقتهم الطيبة بالطاهريين، وقد تمكنت السلطنة من إدارة حكمها بقوة على يد بدر أبي طويرق السلطان الحادي عشر من آل كثير. ينظر: عبد الحكيم صالح عبدالله العامري، السلطان بدر بن عبدالله بن جعفر الكثيري المكنى (أبو طويرق) (٩٠٢-٩٧٧هـ/ ١٤٩٦-١٥٦٩م)، ط١، تريم للدراسات والنشر، حضرموت - اليمن، ٢٠٠٦م، ص١١٨؛ صباح مهدي رميض، تاريخ جنوب الجزيرة العربية، ط١، دار الفكر للنشر والتوزيع، عُمان - الأردن، ٢٠١٠م، ص٩٦.

(٢) عادل صالح اليماني، المصدر السابق، ص١١١؛

Danvers, Op., Cit., Vol.I, P.52.

(٣) محمد حسن العيدروس، تاريخ العرب الحديث، ص١٢٩؛ حسن صالح شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري، ص٢٠١؛ عادل صالح اليماني، المصدر السابق، ص١١٢.

شبه الجزيرة العربية ويتعاطون القرصنة لحسابهم الخاص، من دون إذن من أحد، وكانت شواطئ ظفار وحضرموت والمناطق القريبة من باب المندب المسرح الأساسي للقرصنة البرتغالية وأكثر ما تعرضت للهجمات كانت الشحر وغيرها من مدن جنوب شبه الجزيرة العربية وكذلك مصوع وزيلع وبربرة على الشاطئ الإفريقي، أما شواطئ شبه الجزيرة العربية على البحر الأحمر وسواكن التي كانت تحت حماية القلاع العثمانية البحرية في جدة وجزيرة قمران فكانت في وضع أفضل بكثير، فلم يكن لصوص البحر المنفردين يستطيعون الوصول إليها[١].

لاحظ البرتغاليون بقلق أن العرب يواصلون نقل كميات كبيرة من التوابل إلى هرمز وجده، حيث تعّرف العرب على السفن الشراعية البرتغالية عن قرب، واكتشفوا نواحي الضعف فيها، فاستعاضوا عن سفن الشحن الكبيرة بقوارب صغيرة وخفيفة تستطيع المرور في المياه القليلة العمق والقريبة من الشواطئ، ولذلك قام الملاح الشهير فاسكودي كاما في عام ١٥٢٤م، والذي عين نائباً لملك البرتغال في الهند، ببناء أسطول كامل من السفن الصغيرة القادرة على مطاردة العرب في المناطق المحاذية للشواطئ[٢].

بعد حملة الشحر، وضمن التوجهات البرتغالية نحو البحر الأحمر، تم في عام ١٥٢٤م، إرسال أسطول برتغالي آخر بقيادة إيتور دي سلفيرا

(١) محمد نصر الدين عثمان، المصدر السابق، ص١٣١. للاطلاع على المزيد من أعمال القرصنة البرتغالية ينظر: حسن صالح شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري، المصدر السابق.

(٢) محمد نصر الدين عثمان، المصدر السابق، ص١٣٢.

(Eitor de Silveira) لبسط نفوذه على عدن[١]، وكان من أهداف الحملة أيضاً الذهاب إلى مصوع من أجل استعادة المبعوث البرتغالي إلى بلاد ملك الحبشة[٢].

عندما وصل القائد البرتغالي إلى عدن، لاحظ ضعفها، فتمكن من إجبار حاكمها الجديد عبد الملك بن محمد بن عبد الملك بن داود الطاهري والذي خلف مرجان الظافري بعد وفاته، على عقد معاهدة غير متكافئة نصت على أن تدفع عدن جزية سنوية، وأن يبقى ميناؤها مفتوحاً أمام السفن البرتغالية، غير أن نائب ملك البرتغال في الهند فاسكودي كاما، رفض إبرام هذه المعاهدة على أساس أنها لا تمثل إلّا جزءاً يسيراً من المطامع البرتغالية في المنطقة، بل عدها مضيعة للجهود البرتغالية الرامية إلى السيطرة على المراكز التجارية المهمة[٣]، وقد أدى ذلك إلى قيام القوات البرتغالية في عام ١٥٢٥م بضرب عدن بالمدافع أثناء توجهها إلى مصوع، وإيقاع خسائر مادية كبيرة فيها[٤].

بالرغم من أن دي سلفيرا لم يحقق شيئاً من النجاح، إلّا أنه تمكن في أوائل عام ١٥٢٦م، من إعادة دي ليما المبعوث البرتغالي من الحبشة، وفي أثناء عودته من مصوع، حاول مهاجمة عدن مرة أخرى

(١) علي خضير المشايخي، المصدر السابق، ص٢٠؛ ابتسام محمد صادق الجواهرجي، المصدر السابق، ص١٢٠.

(٢) سعد زغلول، المصدر السابق، ص١١٨.

(٣) المصدر نفسه، ص١١٨؛ فالح حنظل، العرب والبرتغال في التاريخ، ص٣١٨؛ السيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، ص١١١؛ صباح مهدي رميض، المصدر السابق، ص٧٥.

(٤) محمد عبد الحسين الحلي، عدن والمطامع البرتغالية في القرن السادس عشر، ص٩٩؛ سعد زغلول، المصدر السابق، ص١١٨.

لكن الرياح أبعدت سفنه عنها قبل أن تحقق أهدافها، فتوجه عندئذ إلى هرمز[١].

على الرغم من الفشل المتكرر لاحتلال عدن من قبل البرتغاليين، إلّا أن دي سلفيرا الذي توجه بحملة أخرى من الهند ليصل إلى عدن في عام ١٥٣٠م، تمكن من إجبار حاكمها وكان يومذاك السلطان عامر بن داود الطاهري، على دفع جزية سنوية للبرتغاليين مقابل اعترافهم بحق العدنيين في الملاحة في المحيط الهندي بشرط عدم ذهاب سفنهم إلى جدة، ولضمان التنفيذ، ترك البرتغاليون في ميناء عدن إحدى سفنهم وعلى متنها قوة تعدادها أربعون برتغالياً ليشرفوا على الميناء والعمل فيه[٢]، ولكن لم يكتب لهذه المعاهدة الاستمرار بسبب نقضها من قبل حاكم عدن وسجنه للبرتغاليين الذين تركهم الأسطول في مينائه، ليعلن بعدها دخوله في طاعة العثمانيين حتى يتمكن من مواجهة أي هجوم جديد للبرتغاليين على عدن[٣]. وبذلك فأن حملة ١٥٣٠م على عدن انتهت بالفشل أيضاً.

ظل ميناء عدن محافظاً على استقلاله رغم شدة الحصار الاقتصادي البحري المفروض عليه من قبل البرتغاليين الذين منعوا السفن التجارية من الدخول إليه[٤].

---

(١) محمد حميد السلمان، الغزو البرتغالي للجنوب العربي، ص٢٧٨؛ علي خضير المشايخي، المصدر السابق، ص٢٠.

(٢) سعد زغلول، المصدر السابق، ص١١٩؛ علي خضير المشايخي، المصدر السابق، ص٢١؛ فالح حنظل، الغزو البرتغالي في التاريخ، ص ص٣٣١-٣٣٤.

(٣) قصي كامل شبيب، المصدر السابق، ص٤٣؛ السيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، ص ص١١١-١١٢؛ فاروق عثمان إباظة، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر، ص٤٨.

(٤) خالد سالم باوزير، المصدر السابق، ص٥١.

وعلى العموم فإن آخر محاولة قام بها البرتغاليون لاحتلال عدن كانت في سنة ١٥٤٧م[١]، وذلك عندما تمكن أحد الزعماء العرب المحليين ويدعى علي سليمان الطوبقي، من التغلب على العثمانيين واستنجد بالبرتغاليين لتثبيت موقفه، ولكن تراجع القائد البرتغالي بايودي نورونا، مكن العثمانيين من استعادتها في العام ١٥٤٨م[٢].

ومما يجدر الإشارة إليه أن لوبوفاز دي كامبايو (Lopo Vaz De Kambayo) (١٥٢٥-١٥٢٩م)، خليفة فاسكو دي كاما في منصب نائب الملك البرتغالي في الهند ومكمل سياسته، قد أمر - بالإضافة إلى الحملات المرسلة للسيطرة على الموانئ اليمنية - بإخلاء البحار الجنوبية من السفن التجارية العربية، إذ أرسل عشرات السفن للقرصنة في البحر، وأسطولاً كاملاً من السفن الكبيرة، تجوب البحار من أجل الاستيلاء على كل ما تجده من السفن الإسلامية وحرقها[٣]، إذ قام البرتغاليون بحرق بعض السفن العثمانية التي كانت في قمران، ففي عام ١٥٢٨م، أرسل لوبو فازدي كامبايو إلى البحر الأحمر عشرين سفينة أخرى، وأكثر من ألف رجل لتجوب البحر للغاية نفسها، وقد فشلت في الوصول إلى قمران بسبب الرياح العكسية، مع أنها عادت بغنائم كبيرة من تجوالها في البحر الأحمر[٤].

---

(١) حسن صالح شهاب، فن الملاحة عند العرب، ص٤٨.

(٢) أريك ماكرو، اليمن والغرب (١٥٧١-١٩٦٢م)، نقله إلى العربية حسين بن عبدالله العمري، ط٢، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق - سوريا، ١٩٨٧م، ص٢١؛

Serjeant, R.B., Op., Cit., P.19.

(٣) محمد نصر الدين عثمان، المصدر السابق، ص١٣٣.

(٤) محمد نصر الدين عثمان، المصدر السابق، ص١٣٣؛

Danvers, Op., Cit., Vol.I, P.385.

من المهم أن نوضح إن أغلب الحملات البرتغالية في البحر الأحمر كانت تفشل بسبب الرياح المعاكسة، ومن غير المعقول أن يكون عامل الرياح هو السبب في فشل أغلبها، ويبدو أن البرتغاليين كان يمنعهم عامل الخوف من مواجهة القوة الجديدة التي ظهرت في المنطقة وهي القوة العثمانية والتي لم يكن لهم علم بمدى هذه القوة لمواجهتها، كما أن الخوف من سبر غور المجهول في البحر الأحمر، حتى وإن كانت الطبيعة لها الدور الأكبر في ذلك، فإن تحركاتهم البحرية، لا بد وإن أكسبتهم الخبرة اللازمة لمواجهة الصعوبات في الإبحار، وربما كان الخوف المسبق من قوة العرب التي شكلت لهم عقدة تاريخية منذ فتح الأندلس هي سبب آخر دفعهم إلى انسحاب أغلب هذه الحملات من دون تحقيق نصر حقيقي في المنطقة واعتمادهم لأسلوب القرصنة.

شهدت الموانئ اليمنية منذ عام ١٥٢٨ وحتى عام ١٥٣٨م، تحول أغلب الحملات البرتغالية إلى نماذج عدة من القرصنة البحرية، طالت أغلبها الموانئ القريبة والمساندة لعدن منها المكلا والحامي.

ففي عام ١٥٢٨م، استولى البرتغاليون على مركب تجاري من ساحل الشحر متجه إلى الهند ولم يفرجوا عنه إلّا بعد دفع فدية كبيرة[١]، وفي عام ١٥٣٠م، وصلت سفن القرصنة البرتغالية إلى مدينة المشقاص - الواقعة شرق الشحر - تقوم بالقرصنة ضد مراكب أهالي المشقاص فقام جماعة من سكان حصويل - من القرى المهرية الساحلية - بالمشقاص بالتسلق ليلاً إلى سفينة برتغالية راسية بالقرب من قريتهم واستولوا عليها وقتلوا جميع

(١) عادل صالح اليماني، المصدر السابق، ص١١٤.

من كان فيها من البرتغاليين[١]، وفي هذا العام أيضاً وصلت إلى الشحر سفينة برتغالية عليها عدد من الأسرى المسلمين لمبادلتهم مع من تبقى من زملائهم في عدن بعد اعتراف حاكم المدينة بالسيادة العثمانية ولكنهم فشلوا في ذلك[٢].

وفي عام ١٥٣١م ظهرت سفن للقراصنة البرتغاليين أمام ميناء الشحر، وصادرت بعض مراكب المسلمين في طريقهم لساحل المليبار من أجل الحصول على ما تحمله، وقامت بتحطيم أحد المراكب وقتلت بعض ركابها وأسرت الباقي، وفي العام نفسه وصلت إلى الشحر سبع سفن برتغالية استولت على مركب عثماني وما عليه من حمولة وأطلقت سراح بعض ركابه مقابل فدية، وأيضاً وصلت أربع سفن أخرى إلى ميناء الشحر واستولت على ما في الميناء من مراكب، فكانت المواجهة مع الأسطول العثماني مما أجبر السفن البرتغالية على مغادرة الميناء[٣]، كما مرت السفن البرتغالية بميناء (بير علي) الحضرمي، ثم بروم والمكلا، وتركت المنطقة مقابل أخذها مبلغ من المال من أصحاب المراكب وغادروا الميناء[٤].

توالى وصول السفن البرتغالية إلى الموانئ اليمنية (بروم - قشن - المشقاص - الشحر) في الأعوام (١٥٣٢، ١٥٣٣، ١٥٣٤، ١٥٣٥)، وكانت في كل مرة تقوم أما بحرق المدينة أو أخذ فدية منهم أو

(١) حسن صالح شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري، ص٢٠٤؛
Serjeant, R.B., Op., Cit., P.54.
(٢) حسن صالح شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري، ص٢٠٥.
(٣) Serjeant, R.B., Op., Cit., PP.57-62.
(٤) حسن صالح شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري، ص٢٠٦.

الاستيلاء على المراكب المارة بموانئها(١). وقد شهد عام ١٥٣٤م، وصول أربع سفن برتغالية إلى البحر الأحمر في طريقها إلى جزيرة قمران والتقت بمراكب يمنية أيضاً، فقبضوا على عدد من ركابها ثم توجهوا إلى الزهاوي على ساحل تهامة ونزلوا إلى برّها، ففرَّ الأهالي، وقُبضَ على عدد منهم، وتم إطلاق سراحهم بعد أن دفع سلطان الشحر الفدية عنهم(٢).

■ الحملة البرتغالية الثانية عام ١٥٣٥م:

قرر البرتغاليون عام ١٥٣٥م، القيام بحملة كبرى أخرى انتقاماً لفشلهم في الحملات السابقة، على مدينة الشحر، وكان السلطان أبو طويرق حاكم الشحر، موجوداً هذه المرة، حيث نزلت القوات البرتغالية في ميناء المدينة وأسروا عدداً من النساء والأطفال إلّا أن السلطان أبو طويرق، أعلن الصلح معهم مقابل فدية قدمها لهم وهدية إلى قبطان الأسطول، ويبدو أن قيام أبو طويرق بذلك الصلح، كان يهدف إلى المحافظة على حياة مواطنيه(٣).

إن الأطماع والتجاوزات البرتغالية لم تتوقف، فقد عاودوا الهجوم على الشحر بعد مضي ستة أشهر من السنة ذاتها بقوة قوامها أربعة عشر سفينة مختلفة الأنواع وأكثر من مائة جندي(٤)، ويبدو أن السلطان أبو

(١) Serjeant, R.B., Op., Cit., PP.65-66.

(٢) حسن صالح شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري، ص٢٠٧؛ Serjeant, R.B., Op., Cit., P.69.

(٣) صباح مهدي رميض، المصدر السابق، ص ص٧٥-٧٦؛ محمد حسن العيدروس، تاريخ العرب الحديث، ص١٣٠؛ صلاح البكري، في جنوب الجزيرة العربية، ط١، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٩٤٩م، ص١١٨.

(٤) صباح مهدي رميض، المصدر السابق، ص٧٦.

طويرق كان قد تهيأ هذه المرة، فتمكنت قواته من مواجهتهم، وجرت معركة شاملة في البحر والبر لعدة أيام، حيث تمكن أهالي الشحر من تحقيق النصر على البرتغاليين وقتل عدد كبير منهم وأسر البعض الآخر، واستولوا على سفنهم وأموالهم[١].

شهد عام ١٥٣٦م، قدوم آخر للسفن البرتغالية إلى ميناء الشحر ولكن هذه المرة، من أجل مفاوضة السلطان بدر أبو طويرق حاكم الشحر في أمر الأسرى البرتغاليين، وانتهت المفاوضات بمبادلتهم مقابل مبلغٍ من المال، وعقد معاهدة صلح بين الطرفين[٢].

إن من أهم نتائج المقاومة في الشحر هي امتناع أو إحجام البرتغاليين عن القيام بأية أعمال هجومية داخل المدن والبلدات الساحلية، أما في عرض البحر وقبالة السواحل وأطراف المدن، فقد استمرت أعمال القرصنة البحرية[٣].

ظلت الممارسات البرتغالية للقرصنة مستمرة في البحر الأحمر حتى العقد الثالث من القرن السادس عشر، والذي شهد عجز البرتغاليين في الحفاظ على حصارهم لمدخل البحر الأحمر[٤]، ولكنهم ظلوا هم سادة

---

(١) محمد حسن العيدروس، تاريخ العرب الحديث، ص١٣١؛ حسن صالح شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري، ص ص٢٠٨-٢٠٩؛

Serjeant, R.B., Op., Cit., P.74.

(٢) حسن صالح شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري، ص٢٠٩؛

Serjeant, R.B., Op., Cit., P.76.

(٣) عادل صالح اليماني، المصدر السابق، ص١١٤.

(٤) عبد الأمير محمد أمين، نظرة جديدة للإنجازات السياسية والعسكرية والتجارية البرتغالية في آسيا، أبحاث ندوة رأس الخيمة، ج٢، آب/ أغسطس ١٩٨٧م، ص١٦٦.

السواحل الجنوبية غير منازعين حتى عام ١٥٣٨م، والذي شهد إبحار أول أسطول عثماني في البحر الأحمر بهدف الاستيلاء على اليمن، ومطاردة الأساطيل البرتغالية في المنطقة[١].

• الخاتمة

في ضوء ما تقدم نستطيع أن نخلص إلى أن البرتغال كانت من أوائل الدول الأوروبية التوسعية الطامعة التي وصلت إلى منطقة الشرق في العصر الحديث، حيث عملت على السيطرة على المواقع المهمة في جنوب شرق آسيا والبحر الأحمر والخليج العربي انطلاقاً من أهداف دينية واقتصادية وسياسية ومن هنا بدأ المشروع البرتغالي الكبير في إقامة أول إمبراطورية استعمارية بالمعنى الحديث تشمل بحار الشرق جميعها سواء في المحيط الهندي أم في البحار العربية.

من خلال البحث نجد أن البدايات الأولى للتواجد البرتغالي في منطقة البحر الأحمر والسواحل اليمنية لم يواجه مقاومة حقيقية مؤثرة تناسب خطورة الموقف إلّا في بعض الموانئ والمناطق الساحلية اليمنية الجنوبية ومنها عدن والشحر والتي تضطر في بعض الأحيان إلى المهادنة بعقد الصلح مع البرتغاليين وبعض المناوشات بين الصيادين المحليين وقوارب القرصنة البرتغالية.

إن التغلغل البرتغالي في منطقة البحر الأحمر وهجماتهم المستمرة على السواحل والجزر اليمنية، جعل المنطقة جبهة صراع اشتركت فيها بالإضافة إلى القوى المحلية قوى إقليمية تمثلت بالدولة المملوكية والدولة العثمانية وبالرغم من إخفاق هذه القوى في وضع حد للنفوذ

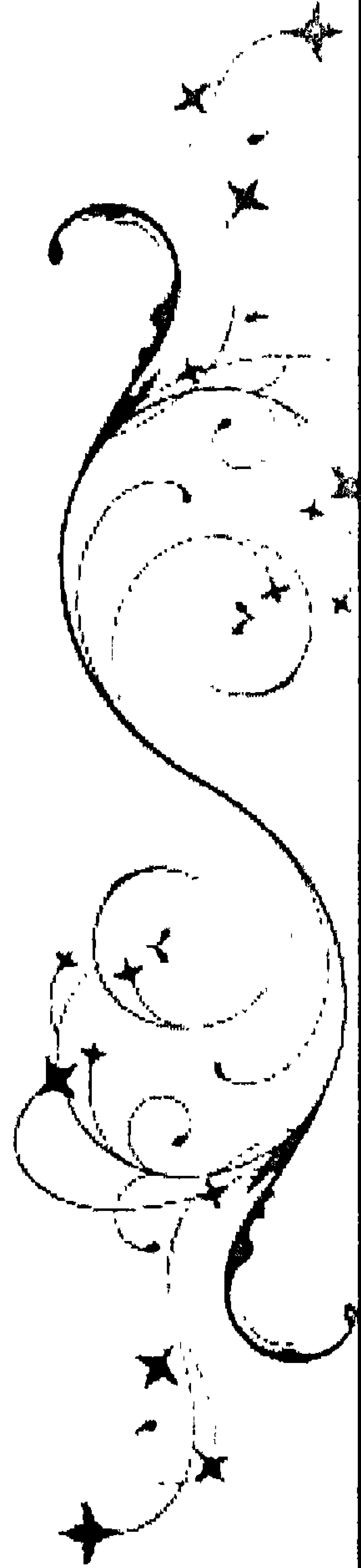
(١) وليد محمد جرادات، المصدر السابق، ص١٠٠.

البرتغالي وسيطرتهم على تجارة الشرق إلّا أنها ساهمت في إضعاف وزعزعة وانهيار النفوذ البرتغالي فيما بعد في عموم المحيط الهندي.

ولهذا يمكننا القول أن منطقة البحر الأحمر والسواحل والجزر اليمنية كانت وما زالت أحد الميادين الرئيسية التي تجتذب إليها الأطماع الأجنبية ويستوجب العمل بشكل جدي لتحصينها لأن حمايتها تمثل حماية لمقدرات جزء مهم من أرض الوطن العربي للوقوف بوجه أي تدخلات أجنبية جديدة في المنطقة.

الفصل الثاني

أثر القوة البحرية العُمانية
في زعزعة الوجود البرتغالي
غرب المحيط الهندي (١٦٥٠-١٧٣٠م)



مقدمة

الفصل الثاني

تأتي أهمية هذا البحث من أنه يسلط الضوء على الدور الذي أدته عُمان - وهي أحد القوى العربية التي نشأت في وقت مبكر من القرن السابع عشر - في مقاومة الغزو الأجنبي (البرتغالي) للمياه العربية في الخليج العربي وغرب المحيط الهندي.

تناول البحث مباحث عدة هي:-

- النهوض السياسي في عُمان في النصف الأول من القرن السابع عشر
- إذ قامت دولة اليعاربة وتمكنت من توحيد البلاد بعد أن كانت تعيش حالة من الفوضى والتمزق القبلي في الحقبة السابقة.

وكذلك تأسيس الأسطول البحري الحديث في عُمان - إذ نجح الأئمة اليعاربة المتعاقبين في بناء أسطول بحري مواز للقوى البحرية الأجنبية في المحيط الهندي، وكانت نواة هذا الأسطول ما غنمه اليعاربة في أثناء معارك التحرير.

أما المبحث الثالث والأخير فقد تطرق إلى:

- تدهور وإنحلال النفوذ البرتغالي غرب المحيط الهندي (١٦٥٠-١٧٣٠م) - إذ خاص اليعاربة في أسطولهم الناشئ حرباً بحرية دامت نحو

ثمانين عاماً انطلقت من السواحل العُمانية لتلاحق الأساطيل البرتغالية في الهند، وسواحل شرق إفريقيا، وأدت الضربات التي وجهها الأسطول العربي للبرتغاليين إلى تدهور نفوذهم وانحلاله في المياه العربية خاصة، والمنطقة الواقعة غرب المحيط الهندي عامة.

اعتمد البحث على عدد من المصادر العربية والأجنبية، وردت في ثنايا البحث منها المصادر المحلية العُمانية، والرسائل الجامعية التي كتبت حول الموضوع، فضلاً عن المصادر الأجنبية التي تميزت بعلميتها ورصانتها، ولاعتمادها بالدرجة الأساس على الوثائق الأجنبية بنحو كبير.

وأخيراً اسأل الله أن يعصمني من الزلل، وأن أكون موفقاً في جهدي والله من وراء القصد.

النهوض السياسي في عُمان
في النصف الأول من القرن السابع عشر

جاءت عملية انتخاب ناصر بن مرشد إماماً لعُمان سنة ١٦٢٤م في وقت كانت فيه البلاد تمر بظروف عصيبة بسبب الحروب الأهلية والتمزق القبلي من جانب، والاحتلال (البرتغالي - الفارسي) للشريط الساحلي من جانب آخر[١]. فكان عليه أن يسلك سياسة جهادية نشطة تقوم أولاً على توحيد البلاد في ظل حكومة مركزية قوية، لذلك كرس السنوات الأولى من حكمة لتحقيق هذا الهدف، واستخدم أساليب متنوعة كان آخرها المجابهة العسكرية للقبائل المناوئة للسلطة المركزية[٢]. فتمكن من إلحاق الهزائم المتتالية بهم في المناطق التي سيطروا عليها وجعلوها مراكز للمعارضة[٣]. واستطاع أن يضع أسساً متينة لدولة قوية، وأن يمد سلطته على أهم المدن والقلاع في عُمان الداخلية والشرقية والظاهرة،

(١) نور الدين عبدالله حميد السالمي، تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان، ج١، القاهرة ١٢٠هـ، ص٢٤٩.

(٢) Bathurst, R.D. Maritime Trade and Imamate Government two principals in the history of Oman to 1798, in the Arabian Peninsula, London 1972, P.95.

(٣) عدنان هرير جودة الزبيدي، عُمان وسياسة نادر شاه التوسعيه، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد ١٩٨٣م، ص٣٤.

والتي ستكون فيما بعد ظهيراً قوياً لحروبه في تحرير الساحل من الهيمنة البرتغالية معتمداً بالدرجة الأولى على جيشه الفتي الذي تشكل من قوات القبائل التي انضوت تحت لوائه[١].

وبعد أن نجح الإمام في تحقيق الهدف الأول وهو دك مراكز المعارضة، وتوحيد الشعب العُماني في ظل السلطة المركزية، سعى إلى الشروع في تحقيق المهمة الكبرى، وهي خوض حرب التحرير وطرد البرتغاليين من الشريط الساحلي العُماني[٢]. لأنه أدرك إن ترصين الإمامة وثباتها لا يمكن تحقيقه من دون تحرير الموانئ إذ إن خضوعها للسيطرة الأجنبية سيؤدي إلى نتائج سياسية واقتصادية وخيمة[٣].

انتهز ناصر بن مرشد فرصة انشغال القائد البرتغالي (روي فرير Ruy Freire) - الذي أكسبته الأعمال والفضائع التي ارتكبها في الخليج العربي شهرة كبيرة وسمعة سيئة[٤] - في مواجهة الهولنديين والإنكليز، فوجه القائد مسعود بن رمضان على رأس جيش كبير في نهاية سنة ١٦٣٢م إلى قاعدة البرتغاليين الرئيسية في مسقط. وعلى مقربة من مطرح التقى الجيشان العُماني والبرتغالي ونشبت معركة عنيفة، منيت بها القوات

(١) غانم محمد رميض العجيلي، قيام وانهيار حكم سلالة اليعاربة في عُمان (١٦٢٤-١٧٤٩م) دراسة في التاريخ السياسي، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات العربية جامعة الدول العربية، بغداد ١٩٨٧م، ص٣٤.

(٢) Bathurst, Op., Cit., P.99.

(٣) Bathurst, R.D. the Yarubi Dynasty of Oman (Ph. D. Thesis, Oxford University) March 1967, PP.108-901.

(٤) س. بوكسر، ملاحظات جديدة عن الصلات بين العُمانيين والبرتغاليين من (١٦١٢-١٦٣٣م)، ندوة الدراسات العُمانية، المجلد السادس، ص٢١٠.

البرتغالية خسائر جسيمة اضطرها إلى التراجع والتحصن في الأسوار[١]، ومن هناك قبلوا الشروط المفروضة عليهم[٢]. ولضعف الاستعدادات التي يتطلبها انتزاع أهم قاعدة للبرتغاليين اضطر القائد العُماني إلى رفع الحصار، ووضع الإمام خطة بعيدة المدى، تستند إلى تجريد البرتغاليين من قواعدهم على الساحل الواحدة تلو الأخرى قبل الهجوم الواسع على مسقط[٣].

وقد أطلق بعض المؤرخين على الفعالية العسكرية التي خاضها الإمام ضد البرتغاليين في العقد الثالث من القرن السابع عشر بـ(حرب الحصون والقلاع)[٤]. ولا سيما إن تلك الحصون تحولت إلى مراكز لجوء مناوئي الإمام[٥]. وتوالت العمليات العسكرية لجيش التحرير العُماني على الحصون البرتغالية والفارسية في جلفار (رأس الخيمة) بقيادة علي بن أحمد سنة ١٦٣٣م، وصحار - المعقل الرئيسي الثاني للبرتغاليين بعد مسقط - في آب/ أغسطس ١٦٣٣م بقيادة حافظ بن سيف محققاً انتصارات باهرة[٦].

(١) عائشة علي السيار، دولة اليعاربة في عُمان وشرق إفريقيا، بيروت ١٩٧٣م، ص٥٤.
(٢) للاطلاع على شروط الإمام يراجع: السالمي، المصدر السابق، ج٢، ص٨.
(٣) نايف محمد حسن الأحبابي، الموقف العربي والإقليمي من الهيمنة البرتغالية في الخليج العربي (١٥٠٧-١٦٥٠م)، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب، جامعة بغداد ١٩٨٨م، ص١٣٠.
(٤) صلاح العقاد، دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي، ندوة الدراسات العُمانية، عُمان ١٩٨٠م، ص٩٣.
(٥) سرحان بن سعيد الأزكوي، تاريخ عُمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، تحقيق عبد المجيد حسيب القيسي، سلطنة عُمان ١٩٨٠م، ص١٠٠.
(٦) الأحبابي، المصدر السابق، ص١٣٣-١٣٤.

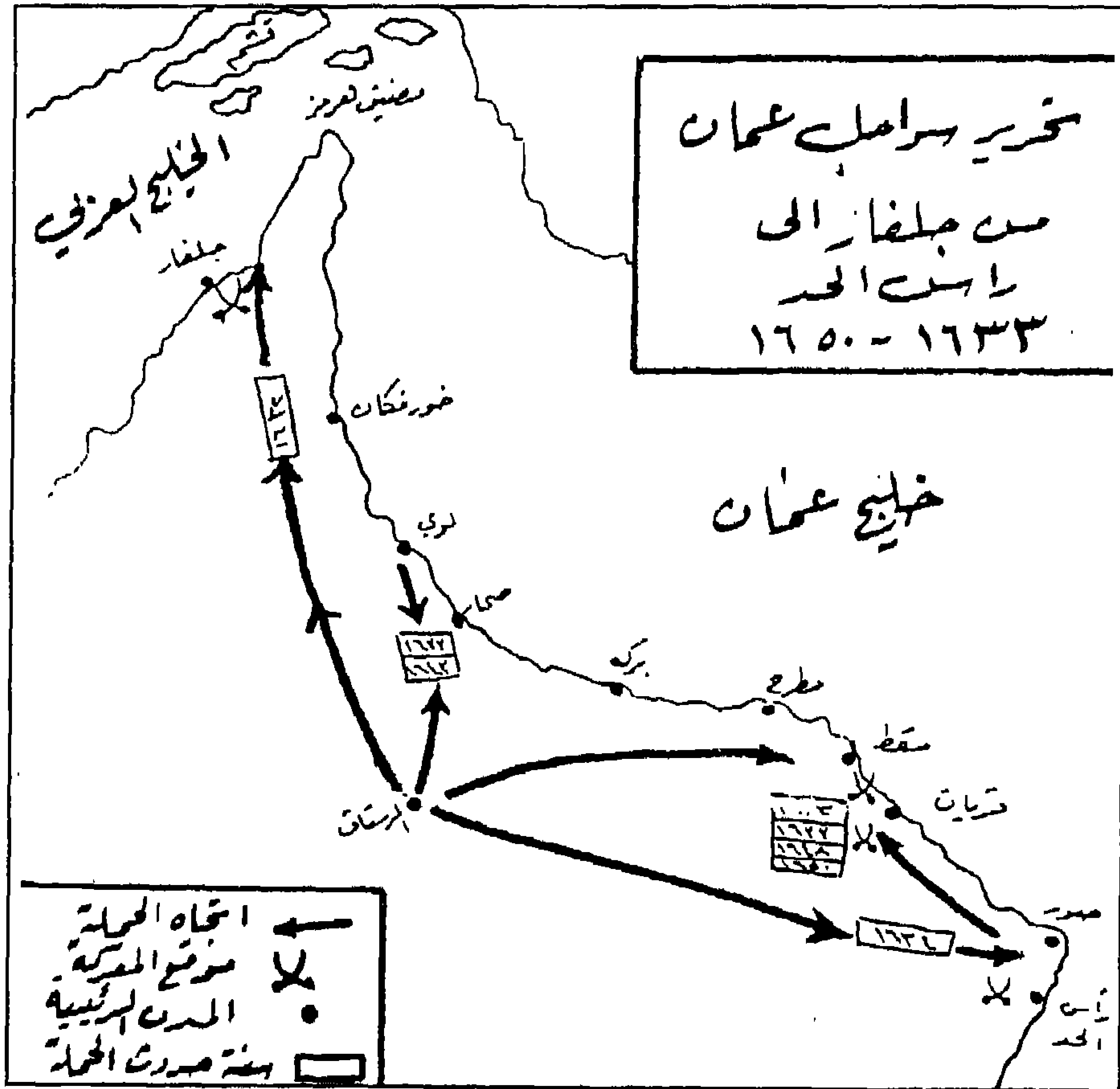
وباشر الإمام في مطلع السنة التالية ١٦٣٤م عملياته لتحرير مينائي صور وقريات، وتمكن من تحريرها من قبضة البرتغاليين[١]. وهكذا خلال عشر سنوات من وصوله إلى الحكم تمكن ناصر بن مرشد من طرد الغزاة من الساحل العُماني كله ما عدا مسقط. وشهدت سنة ١٦٤٨م بداية المرحلة الحاسمة في حرب التحرير. وتتويجاً لخطة الإمام بانتزاع قاعدة الارتكاز البرتغالية في مسقط، تحرك جيش كبير بقيادة مسعود بن رمضان نحو الهدف، وباشر عملية التطويق، وتواصل القتال بين الطرفين، ووجد القائد البرتغالي (دوم جولياو دا نو رنها Dommjuliao da Noronina) نفسه مرغماً على التماس الصلح، وتم توقيع اتفاقية بشروط مهينة للبرتغاليين[٢]. وقد اعتبر بعض المؤرخين إن هذه الاتفاقية قد حددت بداية النهاية للوجود البرتغالي في مسقط ولم يعد الأمر يتطلب إلّا محاولة واحدة، وقوية لتأمين طردهم منها[٣]. توفي الإمام ناصر بن مرشد في ٢٣ نيسان/ أبريل ١٦٤٩م بعد أن حقق المرحلة الأصعب من مراحل المجابهة مع البرتغاليين، وبعد وفاته اجتمع القضاة والشيوخ وأجمعوا على انتخاب ابن عمه، وقائده العسكري سلطان بن سيف إماماً لعُمان، وحصل هذا الانتخاب على التأييد الشعبي من القبائل العُمانية كافة، وقد شهد عهد الإمام الجديد المرحلة الفاصلة في عملية التحرير وطرد الغزاة من البلاد، وما أن أعلنت مبايعته حتى تقدم بنفسه لقيادة

(١) S. B. miles, Countries and Tribes of the Gulf, London 1966, PP.143-150.

(٢) Ibid, P.210.

(٣) صالح محمد العابد، الصراع العُماني - البرتغالي خلال القرن السابع عشر، مجلة الوثيقة العدد الثالث عشر، السنة السابقة، البحرين ١٩٨٨م، ص٣٤-٣٥.

العمليات الحربية، التي تكللت بنهاية مجيدة خلال تسعة أشهر فقط[١]. ففي مطلع عام ١٦٥٠م اندفعت قوات المجاهدين صوب قلاع مسقط لتحدث أرباكاً كبيراً في صفوف البرتغاليين ودارت معارك طاحنة بين الطرفين المتحاربين، أدت إلى تحرير مسقط، وطرد آخر جندي برتغالي منها، وتعد عملية تحرير مسقط نهاية للوجود البرتغالي ليس في عُمان فحسب بل في منطقة الخليج العربي كلها[٢].



(١) Bathurst, Maritime Trade, P.99.

(٢) العابد، المصدر السابق، ص٣٨-٣٩.

• تاسيس الأسطول البحري الحديث في عُمان • • • • • • • • • • • • • • •

أدرك الإمام سلطان بن سيف (١٦٤٩ - ١٦٧٩م) إن معركة تحرير مسقط، لن تكون نهاية الصراع مع البرتغال، ولهذا يعد امتلاك قوة بحرية موازية لقوة العدو، أمراً حاسماً حماية للسواحل من الهجمات البرتغالية، وتأمين تجارة البلاد من القرصنة البرتغالية، لذلك وجه الإمام الجديد اهتمامه إلى القوة البحرية، فالصراع هذه المرة سيكون صراعاً بحرياً بالدرجة الأولى. ولتحقيق نتائج حاسمة كان على العُمانيين تطوير بناء سفنهم، وقد عدت السفن التي أسرها العرب خلال معارك التحرير نواة الأسطول العُماني الحديث(١). كما إن خبرة الإمام سلطان البحرية وشعوره بأنه يحكم بلداً ذو تقاليد بحرية عريقة جعلته يضع الخطط اللازمة لتطوير الأسطول البحري، فإليه يعود الفضل بتحويل الصراع من البر إلى البحر، لذلك يعد واضع أسس القوة البحرية العربية في النصف الثاني من القرن السابع عشر(٢). تمكن العرب خلال مدة وجيزة من التحرر من الأسلوب التقليدي في بناء السفن ذات الهيكل الذي تشد الواحة الحبال وهو الأسلوب القديم لبناء السفن المستخدمة في الخليج العربي، وأخذ ببناء سفن عل الطراز الأوروبي ومن ذوات الأشرعة المربعة المزودة بمدفعية حديثة، وحتى السفن المبنية بالطريقة القديمة أخذت تبني بالألواح المثبتة بالمسامير(٣). وبذلك استطاع العُمانيون أن يجاروا

---

(١) Bathurst, Maritime Trade, P.99.

(٢) رأفت غنيمي، دور عرب عُمان في بناء حضارة شرق أفريقيا، ندوة الدراسات العُمانية المجلد الثالث، عُمان ١٩٨٠م، ص١٥٩.

(٣) روبرت جيران لاندن، عُمان منذ ١٨٥٦م مسيراً ومصيراً، ترجمة أمين محمد عبدالله، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان ١٩٨٤م، ص٥٤.

الأساطيل الحديثة، بشراء السفن من الدول الأوروبية، أو محاولة تقليدها على قدر ما يستطيعون(١).

وتمكن الأئمة اليعاربة المتعاقبون(٢)، حتى الربع الأول من القرن الثامن عشر من جعل عُمان أعظم قوة بحرية غير أوروبية غرب المحيط الهندي وبلغ أسطولهم أوج عظمته في العقدين الأول والثاني من القرن

(١) عُمان وتاريخه البحري، من منشورات وزارة الإعلام والثقافة، سلطنة عُمان ١٩٧٩م، ص٧١.

(٢) بلعرب بن سلطان (١٦٧٩-١٦٩٢م) سيف بن سلطان الأول (١٦٩٢-١٧١١م) سلطان بن سيف الثاني (١٧١١-١٧١٨م).

الثامن عشر[(١)]. وقد أشاع البرتغاليون بأن الإنكليز يمدون عُمان بالمعونة البحرية، وقد دفعهم إلى هذا الاعتقاد التطور السريع للقوة البحرية العُمانية[(٢)]. ومما ينفي هذه الشائعة تلك الروح التي غلبت على مراسلات وكيل شركة الهند الشرقية في بندر عباس، فقد تحدث عن نمو الأسطول العُماني، وكأنه خطر يهدد المصالح البريطانية[(٣)]. فضلاً عن المخاوف التي أبداها المقيم البريطاني في بندر عباس من تنامي القوة العُمانية بقوله: (**أنهم سيثبتون بأنهم (كارثة كبرى) في الهند كالجزائريين في أوروبا)**[(٤)].

● **تدهور النفوذ البرتغالي وانحلاله غرب المحيط الهندي (١٦٥٠-١٧٣٠م)**

ألهب الانتصار العُماني في معركة تحرير مسقط حماسة العُمانيين، فلم يكتف الإمام بالتفكير في رد حملات الغارة البرتغالية المتوقعة على السواحل العُمانية، بل نقل الحرب إلى مواقع الوجود البرتغالي في المحيط الهندي، وبفضل القوة البحرية الناشئة نجح العُمانيون في مد نفوذهم عبر البحار، واستطاعوا أن يحولوا أسطولهم إلى جسر يربط عُمان بسائر مناطق امتدادها في الخليج العربي، وشرق إفريقيا، متعقبين القطعات البحرية البرتغالية ليس في الخليج العربي فقط، بل في غرب المحيط الهندي ولا سيما شرق إفريقيا. فقد كان طرد البرتغاليين من الخليج العربي، تمهيداً لحرب بحرية دامت نحو قرن أو أكثر[(٥)].

---

(١) العابد، المصدر السابق، ص٣٩.

(٢) الأحبابي، المصدر السابق، ص١٥٨.

(٣) صلاح العقاد، المصدر السابق، ص١٠٠.

(٤) مقتبس في: صالح محمد العابد، دور القواسم في الخليج العربي (١٧٤٧-١٨٢٠م)، بغداد ١٩٨٦م، ص٣٨.

(٥) يوسف فاضل حسين، الجذور التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، العرب وإفريقيا، =

جاء رد الفعل البرتغالي على هزيمتهم في مسقط سريعاً، فما أن وصلت أنباء الهزيمة إلى نائب الملك (دوم فيلبي Dom Filippe) حتى أرسل أسطولاً مكوناً من سبع سفن إلى الخليج العربي، وأصدر أوامره إلى قائد الأسطول بمحاولة الحصول على مساعدة الفرس في الهجوم على عُمان[١]. وبعد أن توقف الأسطول في ميناء (كنج) اتجه إلى القطيف، وهناك التقى أسطولاً عُمانياً، ونشبت معركة بحرية، أسفرت عن تراجع البرتغاليين، بعد أن فقدوا سفينة حربية أسرها العرب فضلاً عن ست سفن تجارية برتغالية[٢].

وصاحب تدهور أوضاع البرتغاليين في الخليج العربي، تدهوراً مماثلاً في شرق إفريقيا بسبب الحملات البحرية العُمانية هناك، كما أن الروابط الدينية بين عرب عُمان وشرق إفريقيا، والعلاقات التجارية بينهما، جعلت انتقال المجابهة العُمانية البرتغالية أمراً حتمياً، فقد شنت القبائل الساحلية المجاورة لممباسا سنة ١٦٥١م حرباً ضد البرتغاليين بسبب الظلم الذي تتعرض له من القائد البرتغالي هناك[٣].

فأرسلت البرتغال حملة بحرية بقيادة الكابتن (فرانسيسكودي كابريرا Cabreire) إلى المنطقة لإعادة السيطرة البرتغالية، ومنع التغلغل العُماني المتوقع[٤].

= بحوث ومناقشات الندوة القطرية لمركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٤م، ص٢٧؛ غنيمي، المصدر السابق، ص١٥٨.

(١) Bathurst, the Yarubi, P.112.

(٢) العابد، الصراع العُماني - البرتغالي، ص٤٠.

(٣) Bathurst, the Yarubi, P.119.

(٤) عامر محمد الحجري تاريخ العلاقات العُمانية الإفريقية، البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات شرقي الجزيرة العربية، الدوحة، قطر ١٩٧٦م، ص٧٨٤.

وبسبب الدعم الذي تلقته القبائل من إمام عُمان فشلت مخططات كابريرا بعد الهجوم الذي شنه الأسطول العُماني على الحامية البرتغالية في زنجبار[١].

فأبيد جميع أفراد الحامية وبينهم قائدهم سنة ١٦٥٢م وتم انتزاع فازا وبات من السيطرة البرتغالية[٢].

ومن جانب آخر دفع تحدي العُمانيين للوجود البرتغالي في المياه الساحلية لشرق إفريقيا، حكام الساحل المحليين إلى طلب المساعدة، من الإمام وإلغاء الاتفاقيات المعقودة بينهم وبين البرتغاليين[٣].

أدت الضربات التي تلقتها المواقع البرتغالية في شرق إفريقيا إلى زعزعة وجودهم هناك، وأتاحت الفرصة أمام منافسيهم الأوروبيين لتحقيق المكاسب على حسابهم في الهند وجنوب شرق آسيا، فاحتكر الهولنديين التجارة الصينية، بعد نجاحهم في إجلاء البرتغاليين من كولومبو سنة ١٦٥٦م[٤]، ومن جزيرة سيلان سنة ١٧٥٨م[٥].

شجعت الثورات المحلية التي فجرها سكان الساحل الإفريقي الشرقي الإمام سلطان بن سيف، على مواصلة الهجمات على المواقع

(١) جمال زكريا قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، القاهرة ١٩٧٥م، ص١٦٠.

Danvers, F.C., Portuguese in India being a history of the rise decline of their Empire, London 1894, PP.317-318.

(٢) الحجري، المصدر السابق، ص٧٨٤، غنيمي، المصدر السابق، ص١٦١.

(٣) الزبيدي، المصدر السابق، ص٢٩.

(٤) للتعرف على الشروط التي استسلمت بها كولومبو للهولنديين يراجع:

Danvers, Op., Cit., P.317-318.

(٥) Ibid, P.321.

البرتغالية هناك. فقد وصل أسطول عُماني إلى الساحل سنة ١٦٦٠م وقام بمحاصرة ممباسا(١)، ووجه ضربات متلاحقة للمواقع البرتغالية على امتداد الساحل حتى رأس دلجادو، وبحلول آب/ أغسطس ١٦٦٢م أصبح الأسطول العُماني سيد الموقف، ويمتلك السيطرة على الساحل كله باستثناء ممباسا التي أخضعها للحصار تمهيداً للهجوم عليها. وبعد أن تلقت قوات الإمام الإسناد اللازم من القبائل المحلية شنت هجومها، فاضطر قائد حاميتها (جوزيف بو تلهود اسلفا Joseph Botalho da Silva) إلى طلب النجدة من المركز في (غوا)، إلّا إن الحالة هناك؛ كانت لا تسمح بسبب الحاجة الماسة لها هناك(٢). وفي ظل هذه الظروف أصبح استسلام الحامية البرتغالية أمراً طبيعياً، ففي عام ١٦٦٥م خضعت الحامية لقوات الإمام، وتم تعيين محمد بن مبارك المزروعي والياً عليها من قبل الإمام(٣). إلّا أن البرتغاليين استعادوا سيطرتهم عليها، وأساءوا معاملة سكانها(٤)، وانصب غضبهم بشكل خاص على الأمراء الذين ينتمون إلى أصول عُمانية، إلّا أن تلك المعاملة زادت من تطلع السكان في تلك البقاع آل عُمان، لتخليصهم من السيطرة البرتغالية(٥).

وأكسبت العمليات الحربية في البحر، الأسطول العُماني خبر وقوة، لدرجة أن العمليات الحربية في شرق إفريقيا - في أثناء حصار ممباسا - لم

(١) العقاد، المصدر السابق، ص١٠٢.

(٢) Bathurst, the Yarubi, PP.120-121.

(٣) صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة ١٩٧٤م، ص٤٦؛ الحجري، المصدر السابق، ص٧٨٤.

(٤) أحمد حمود المعمري، عُمان وشرق إفريقيا، ترجم محمد أمين عبدالله، سلطنة عُمان ١٩٧٩م، ص٦٦ غنيمي؛ المصدر السابق، ص١٦١.

(٥) Coupland, East Africa and Its invaders, Oxford 1938, PP.66.

تؤثر في العمليات ضد البرتغاليين في الهند، ويتضح ذلك حين أغار أسطول عُماني على جزيرة بومبي Bombay ودمر حاميتها ولم يتسن للبرتغاليين اتخاذ التدابير اللازمة لحماية موقعهم حتى وصول الحاكم الجديد (جاونونس داكونها Joao Nunes da Cunh) في أيلول/ سبتمبر ١٦٦٦م والذي حاول البحث عن أية وسيلة للانتقام، فجهز أسطولاً مؤلفاً من حوالي (٦٠) قطعة بحرية مختلفة، وأرسله إلى مسقط أواخر ١٦٦٧م، إلّا أن هذه الحملة لم تتمكن حتى الوصول إلى هدفها[١] نتيجة الضعف الذي أصاب النفوذ البرتغالي في تلك البحار. وقد تجلى ذلك الضعف بشكل واضح، بالاتفاقية بين ملك إنكلترا (تشارلس الثاني Charles II) وأميرة البرتغال (كاترينا Caatherlna) في ٢٣ حزيران/ يونيو ١٦٦١م وفي ضوئها تمت الموافقة على جميع الاتفاقيات السابقة بين البرتغال وإنكلترا، وبموجبها تنازلت البرتغال عن قلعة (تانجير Tangier) وميناء بومبي إلى ملك إنكلترا وولي عهده، وحلفائه إلى الأبد[٢].

تواصل النشاط البحري العُماني، فشمل المنطقة الواقعة غرب المحيط الهندي كلها، وألحق المستعمرات البرتغالية أفدح الخسائر. فقد تعرضت (ديو) إلى الهجوم سنة ١٦٦٨م[٣]. وكنج سنة ١٦٧٠م، وباسين سنة ١٦٧٤م[٤]. والتي مكث فيها العرب خمسة أيام دون أن يجرؤ البرتغاليون على مهاجمتهم، ونتج عنه هجرة الكثير من سكان باسين إلى بومبي[٥].

(١) Bathurst, the Yarubi, PP.121-122.

(٢) Danvers, OP., Cit., P.331.

(٣) Miles, OP., Cit., P.212.

(٤) Bathurst, Maritime Trade, P.99.

(٥) Bathurst, the Yarubi, P.123.

توفي الإمام سلطان بن سيف سنة ١٦٧٩م وتولى الإمامة من بعده ابنه بلعرب (١٦٧٩-١٦٩٢م) الذي انتهج السياسة الجهادية التي أتبعها سلفه العظيم مستعيناً بالأسطول البحري الذي ورثه عنه، فهاجم (بات) سنة ١٦٧٩م وأجبر البرتغاليين على التراجع إلى موزنبيق[١]. وأدرك البرتغاليين إن أساليبهم القرصنية في عرض البحر كانت أكثر خوض المعارك على السواحل... فعملوا على مضايقة النشاطات التجارية في الخليج العربي إلى الحد الذي أدى إلى التفاوض بين ممثل الإمام وبين المراقب البرتغالي في (كنج) ممثلاً عن الحاكم البرتغالي. ويبدو أن المفاوضات قد زادت عن عنجهية البرتغاليين وغرورهم مما دفعهم للقيام بهجمات قرصنية على السفن العربية لكن العُمانيين كانوا يردون بهجمات على المواقع البرتغالية في الهند[٢].

شكل مجيء سيف بن سلطان (١٦٩٢-١٧١١م) إلى الإمامة نقطة تحول مهمة في تاريخ القوة البحرية العُمانية فقد بذل جهوداً حثيثة لتطويرها فسرعان ما نزلت إلى البحر سفناً جديدة لم تمتلك عُمان مثيلاً لها في السابق، مبنية على الطراز الأوروبي ومزودة بالمدفعية، وبعد مضي سنوات قليلة استأنف الإمام نشاطه العسكري البحري ضد البرتغاليين وحلفائهم[٣].

وقد سجلت بعض المصادر المحلية العُمانية رسائل تبودلت بين الإمام سيف والقادة البرتغاليين. عبرت عن عنجهية البرتغاليين وتعصبهم

---

(١) الزبيدي، المصدر السابق، ص٤٧.

(٢) العقاد، دور العرب والفرس، ص١٠١، مايلز، الخليج بلدانه وقباذله، ترجمة محمد أمين عبدالله، سلطنة عُمان ١٩٨٠م، ص٢١٠.

(٣) Miles, OP., Cit., P.217.

الديني البالغ، وكشفت تلك الرسائل من جانب آخر عن الروح التحررية للإمام سيف وشعبه واستعدادهم لمواجهة البرتغاليين ويمكن أن نؤكد هذه الحقيقة من مضمون ما ورد في هاتين الرسالتين:

١ - رسالة من البرتغاليين إلى الإمام سيف فيقول القائد البرتغالي:-

«أعلم إننا جنود الله مخلوقين من سخطه، مسلطون على من يحل عليه غضبه، ولا نرق لشاكٍ ولا نرجم عبره باك، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا، فالويل كل الويل لمن لا يمتثل لأمرنا ضربنا البلاد وأهلكنا العباد وأظهرنا على الأرض الفساد، فإن أعجبكم شرطنا كان لكم مالنا وعليكم ما علينا، وإن أنتم أبيتم، وعلى بغيكم تماديتم فالحصون منا لا تمنع والعساكر لدينا لا ترد ولا تدفع لأنكم أكلتم الحرام فابشروا بالذل والجزع.. فإن أعجبكم كلامنا أننا كفره، وقد صار عندنا أنكم فجرة، قلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال كثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وقد ملكنا الأرض شرقاً وغرباً، وأخذنا منها كل سفينة غصباً، وقد أرسلنا لكم هذا الكتاب، فأسرعوا برد الجواب قبل أن ينكشف الغطاء».

٢ - وورد في رد الإمام سيف على هذه الرسالة:-

«قد حصل الوقوف على هذه الكتب الشاهرة لقولكم قد نزع الله الرحمة من قلوبكم فهذا من أقبح عيوبكم وذكرتم أنكم كافرون إلّا لعنة الله على الكافرين، ومن تعلق بالأصول لا يبالي بالفروع، نحن المؤمنون حقاً لا يصدنا عنكم عيب ولا يدخلنا شك؛ ولا ريب، والقران علينا قد نزل، هو رحيم بنا لا يزل، وخيولنا برية وبحرية وهمنا سامية، عليه أن قتلناكم فنعم البضاعة وأن قتلتمونا فبيننا وبين الجنة ساعة... وقولكم

قلوبكم كالجبال وعددكم كالرمال: الجزار لا يبالي لكثرة الغنم الكثيرة»[١].

وفي عهده قام الأسطول العُماني بالفعاليات الآتية: الهجوم على (دامان Damun) و(سالست Salestte) في ١٦٩٤ و١٦٩٩م وألحق بها الخسائر الفادحة. ومستعمرتي باسلور ومانجلور وهما من أفضل المدن الواقعة على الساحل الهندي، وأكثرها رخاء في ١٦٩٥ و١٦٩٦م. وهاجم أسطول عُماني مكون من خمس سفن على متنها (١٥٠٠) بحار ميناء كنج البرتغالي، وألحقوا خسائر كبيرة بعدوهم، وأسروا سفينة محملة بالبضائع الثمينة تعود إلى أحد التجار المتعاونين مع البرتغاليين[٢]. ونجح الإمام سيف في تحرير ممباسا بعد حصار حاميتها بشكل متواصل دام (٣٣) شهراً[٣]. ولقد ثقل الحصار على البرتغاليين بسبب الوباء وقلة الإمدادات[٤]، وشعرت السلطات البرتغالية في (غوا) بالحالة البائسة في ممباسا، وبسبب الحالة المادية المتدهورة، فلم ترسل الإمدادات اللازمة لإنقاذ الموقف في ممباسا، وفي منتصف ١٦٩٨م رفرف العلم العُماني الأحمر فوق حاميتها[٥].

---

(١) السالمي، المصدر السابق؛ ص٤٧.

(٢) لورنس لوكهارت، التهديد العُماني ونتائجه في أواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر، ترجمة علاء الدين أحمد، مجلة الخليج العربي، جامعة البصرة، العدد ١٠، ١٩٧٨م، ص٩١.

Miles, OP., Cit., PP.214-215, Coupland, OP., PP.65-6.

(٣) سعيد بن علي المغيري، جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٧٩م، ص١٠٦، المعمري المصدر السابق، ص٦٢.

(٤) السيار - المصدر السابق، ص١٠٠.

(٥) Bathurst, the Yarubi, P.146.

وكان بإمكان الإمام سيف بن سلطان أن يؤسس دولة عربية عُمانية في شرق إفريقيا على أنقاض الإمبراطورية البرتغالية إلّا إن الأوضاع الداخلية في البلاد حالت دون تحقيق هذا الحلم، وبذلك تأجل تأسيس هذه الدولة إلى إن قام السلطان سعيد بن سلطان (١٨٠٦-١٨٥٦م) بتحقيقها(١).

لقد أوضح حصار ممباسا أن البرتغاليين لا يمتلكون الموارد الكافية، وليس بمقدورهم مواجهة الأسطول العُماني لوحدهم، لذلك وصل المبعوث البرتغالي (دوم غريغوريو بيرايرا Pereira) إلى أصفهان للتحالف مع الفرس(٢)، واستمرت بعد ذلك محاولات تكوين جبهة فارسية - برتغالية، للحد من نشاط الأسطول العربي العُماني، ومهاجمة مسقط(٣).

وبذل البرتغاليون محاولات عديدة في الأعوام ١٦٩٩ و١٧٠٣ و١٧١٠م لاستعادة ممباسا إلّا أن جميع تلك المحاولات باءت بالفشل(٤).

وما أن وصلت أنباء الانتصار في ممباسا إلى الإمام سيف حتى أصدر أوامره بتعيين ناصر عبدالله المزروعي حاكماً لها، وأوعز باستثمار هذا النصر لطرد كافة الحاميات البرتغالية من شرق إفريقيا(٥).

---

(١) رودلف سعيد روت، سلطنة عُمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان (١٧٩١-١٨٥٦م)، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسي، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة ١٩٨٣م، ص٩٠-٩١.

(٢) Bathurst, the Yarubi, P.147.

(٣) أحمد جلال التدمري، الصراع الدولي حول الخليج العربي، قراءة في الوثائق الهولندية المكتشفة حديثاً، مجلة الوثيقة، العدد الثاني عشر، السنة السادسة البحرين ١٩٨٨م، ص٦٠.

(٤) Coupland, OP., Cit., PP.98-9.

(٥) فالح حنظل، المفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة، أبو ظبي، بلا، ج١، ص١٠٦.

فاندفعت القوات العُمانية تدعمها قوات المتطوعين من أبناء الساحل، وأخضعت بمبا (الجزيرة الخضراء) وزنجبار وبات وكلوه[1].

لقد كانت نهاية القرن السابع عشر من أزهى فترات التطور والازدهار للقوة البحرية العُمانية، فقد أصبحت في أوقات كثيرة، من أقوى الأساطيل في المحيط الهندي[2].

وقد وصف الكابتن لوكير Lockyer الذي زار مسقط سنة ١٧٠٥م بقوله «زاد عرب عُمان من بناءهم للسفن، وإن أكثر هذه السفن صنعت في سوارت[3]، وبعضها الآخر صنع في مناطق أخرى على نهر السند، وفي أماكن خالية من أعين الأعداء»[4]. وهذا يدل على براعتهم في التكتم على إمكاناتهم البحرية، ويضيف الكابتن لوكير بأنه: (شاهد أثناء زيارته لميناء مسقط أربعين سفينة حربية راسية في الميناء، وقد علم بأن هذه ليست جميع السفن التي تمتلكها عُمان، وإنما هناك سفن تتجول في عرض البحر، وكان أكبر هذه السفن التي شاهدها تحمل سبعين مدفعاً، ولم يشاهد من بين هذه السفن سفينة واحدة تحمل أقل من عشرين مدفعاً)[5].

واصل سلطان بن سيف الثاني (١٧١١-١٧١٨م) الذي تولى الإمامة بعد وفاة والده، عملية تطوير القوة البحرية، بما يكفل التفوق البحري للبلاد حتى قبل أنه صرف جميع ما ورثه من ثروات ضخمة لهذا

---

(١) العابد، دور القواسم في الخليج العربي، ص٤٢.

(٢) Bathurst, the Yarubi, P.264.

(٣) تعتبر سورات من المناطق المشهورة في صناعة السفن منذ فترة طويلة.

(٤) Miles, OP., Cit., P.224.

(٥) Ibid, P.244.

الغرض، ولم يكتف بذلك وإنما استدان من أموال الأوقاف[١]، فوصلت القوة البحرية في عهده إلى أوجها[٢] فقد بلغت عام ١٧١٥م حسبما ذكره هاملتون: -

«سفينة تحمل ٧٤ مدفعاً، وسفينتين أخرتين تحم أحدهما ٦٠ مدفعاً والأخرى ٥٠ مدفعاً و٨ سفينة تحمل الواحدة منها ما بين ١٢-٣٢ مدفعاً، بالإضافة إلى عدد من الترانكيات[٣] والتي تحمل الواحدة منها ما بين ٤-٨ مدفعاً»[٤].

وبهذه القوة واصل الإمام حروبه البحرية، فتوجهت قطعاته البحري إلى ساحل الهند للانقضاض على المستعمرات البرتغالية هناك، واصطدم بالأسطول البرتغالي بالقرب من سورات في ١٩ شباط/ فبراير ١٧١٤م، إلّا أن الأسطول العُماني تراجع هذه المرة[٥].

ولما وصلت أنباء تراجع الأسطول إلى الإمام سلطان بن سيف الثاني، أصدر تعليماته بالتوجه نجو جزيرة لاراك، وقطع خطوط المواصلات بين الهند والموانئ الفارسية، ونجح الأسطول العربي في الغارة على جزيرتي (قشم) و(لاراك) وضرب حصاراً على هرمز[٦].

---

(١) حميد بن زريق، الفتح المبين في سيرة السادة البو سعيديين، تحقيق عبد المنعم عامر ط١ عُمان ١٩٧٧م، ص٢٩٦.

(٢) الزبيدي، المصدر السابق، ص٣٣.

(٣) الترانكي: نوع السفن شائعة الاستعمال في الخليج العربي يسير بالمجذاف والشراع ويستخدم للحروب والتجارة. انظر: عبد الأمير محمد أمين، القوة البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر، بغداد ١٩٦٦م، ص٣٢.

(٤) Hamilton, Elexander, a new acount of the East Indies London, 1930, P.76.

(٥) Danvers, OP., Cit., PP.380; Miles; OP., Cit., P.239.

(٦) لوكهارت، المصدر السابق، ص٩٤، الزبيدي، المصدر السابق، ص٣٤.

أفسحت الحرب الأهلية في عُمان في أعقاب وفاة الإمام سلطان المجال للبرتغاليين لالتقاط أنفاسهم، فأخذوا يجولون في البحار، ففي شباط/ فبراير ١٧١٩م، استدرج الأسطول البرتغالي أسطولاً (عُمانياً - قاسمياً)[١] إلى معركة خارج (كنج) واستمر القتال من الساعة التاسعة صباحاً حتى السابعة مساء وتواصل في اليوم التالي، وأسفر عن انسحاب الأسطول العربي إلى رأس الخيمة[٢].

بلغ الصراع السري أقصاه في عُمان، فانتهز البرتغاليون ذلك للقيام ببعض الفعاليات الحربية وضرب النفوذ العُماني في شرق إفريقيا. فنجحوا في استعادة السيطرة على بات سنة ١٧٢٧م، واحتلال ممباسا سنة ١٧٢٨م، وبسقوط حامية ممباسا أعلن القائد البرتغالي (لويس دي ميلو) عودة الحكم البرتغالي إلى الساحل[٣].

وفي الثاني من كانون الثاني/ يناير عام ١٧٣٠م أرسل الحاكم البرتغالي أسطولاً مع (١٢١٥) بحاراً لتعزيز الوجود البرتغالي هنالك، وقبل وصوله إلى ممباسا، وصلته أنباء تحرير الأسطول العُماني إياها بقيادة محمد بن سعيد المعموري، الذي في استعادة المدن الساحلية الأخرى[٤].

وحين وصول الأسطول البرتغالي بقياد لويس دي ميلو نفسه إلى المنطقة كان العلم العُماني الأحمر يرفرف فوق حامية ممباسا[٥].

---

(١) حنظل، المصدر السابق، ص١٣١.

(٢) السيار، المصدر السابق، ص٨٠، حنظل، المصدر السابق، ط١، ص١٣١.

(٣) Bathurst, the Yarubi, PP.271-272.

(٤) Coupland, OP., Cit., P.67.

(٥) السيار، المصدر السابق، ص١٠٣.

وفي مارس من العام نفسه تعرض الأسطول البرتغالي في أثناء عودته إلى (غوا) لإعصار مدمر أغرق جميع السفن وفيها سفينة القيادة التي تقل القائد (دي ميلو)[١].

وهكذا انتهى آخر احتلال برتغالي لشرق إفريقيا، وفقدوا فرصتهم الوحيدة في أثناء انشغال العُمانيين في صراعاتهم الداخلية حول منصب الإمامة ولا بد من الإشارة إلى أن نجاح العُمانيين في زعزعة وإقصاء البرتغاليين في غرب المحيط الهندي يرتبط بجملة من العوامل أهمها:- تنامي قوتهم البحرية، واستخدامهم للسفن الأوروبية الحديثة التي وقعت في أيديهم، كما أن المعاملة السيئة التي عامل بها البرتغاليين شعوب مستعمراتهم قد أثارت موجة من السخط والكراهية لهم مما دفع تلك الشعوب إلى طلب النجدة من القوة البحرية الناشئة كما حدث لمستعمرات شرق إفريقيا فضلاً عن أن الأسطول البحري العُماني على الرغم من حداثته كان يسير على نظام عسكري دقيق، لا يقل عما كان متبعاً في الدول الأوروبية البحرية كبريطانيا وهولندا، فكان العُمانيون يراقبون بدقة وحرص شديدين حركة أعدائهم وقوتهم ومن العوامل المهمة التي أسهمت في انهيار نفوذهم في البحار نزاعهم المستمر مع منافسيهم الأوروبيين وحكام الولايات الهندية المختلفة كانت سبباً في نقص مواردهم واعتمدت هجمات الأسطول العُماني على عنصري المفاجأة وسرعة الحركة، ولم يكن الهدف من تلك الهجمات الاستيلاء على المستعمرات، إنما كان هدفاً تدميرياً ولا سيما في سواحل الهند ومن الضروري الإشارة إلى أن معظم المصادر الأوروبية وصفت الحروب البحرية بين العرب والأوروبيين في اتجاهين:-

---

(١) Bathurst, the Yarubi, P.276.

الأول:- وصفت الجهاد العُماني على إنه من أعمال (القرصنة) في حين حرصت كل الحرص على وصف الماسي التي ألحقها البرتغاليون بشعوب مستعمراتهم ومنها منطقة الخليج العربي بأنها إنجازات قومية كبرى(١).

الثاني:- إنها بالغت كثيراً في وصف المعارك البحرية، فصورت أن البرتغاليين انتصروا في معظم المعارك البحرية، وقدرت خسائر العرب تقديراً لا يصدق موازنة بخسائر البرتغاليين والواقع أن حظ البرتغال من ويلات الحروب البحرية في المحيط الهندي والتي دامت أكثر من ثمانين عاماً كان على العكس حظهم من غنائمها، فالأسطول العربي بفعل العوامل المذكورة تمكن من وضع نهاية لوجودهم، وانتزاع مواقعهم الواحد تلو الآخر وأنزل بهم ضربات ماحقة زادت من ضعفهم وانحلالهم.

● الخاتمة ●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

نجح الإمام الأول لدولة اليعاربة (ناصر بن مرشد) (١٦٢٤-١٦٤٩م) في توحيد البلاد، وشهد عهده نهوضاً سياسياً لم تألفه البلاد من قبل، واستطاع أن يحرر الشريط الساحلي للبلاد من الاحتلال البرتغالي، ولم يبق بعد وفاته سوى (مسقط). وأتبع خلفه (سلطان بن سيف) السياسة التحريرية نفسها، في تأسيس النواة الأولى للأسطول العُماني الحديث، وتابع الأئمة المتعاقبين هذه السياسة، ونجحوا في إنشاء قوة بحرية موازية

---

(١) حول القرصنة الأوروبية في الخليج العربي وسواحل شرق إفريقيا ضد القوى البحرية العُمانية يراجع: صادق ياسين الحلو، القرصنة الأوروبية في الخليج العربي وسواحل إفريقيا الشرقية ضد القوى البحرية العربية في القرن الثامن عشر ونهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر، مجلة الوثيقة، العدد الثاني عشر، السنة السادسة، البحرين ١٩٨٨م، ص١٨٨-١٤١.

لقوة عدوهم (البرتغال). وبهذه القوة واصلوا حرب التحرير البحرية، ولم يكتفوا بطرد الغزاة من البلاد، بل لاحقوهم إلى نقاط وجودهم في الهند وشرق إفريقيا، ووجهوا لهم ضربات قوية، أدت إلى تدهور نفوذهم واضمحلاله في كل المنطقة الواقعة غرب المحيط الهندي، وقد كانت تلك الضربات واحدة من الأسباب الرئيسية في انهيار البرتغال بوصفها قوة عظمى آنذاك. إذ شهد النصف الأول من القرن الثامن عشر نهاية الوجود البرتغالي في تلك المياه.

الفصل الثالث

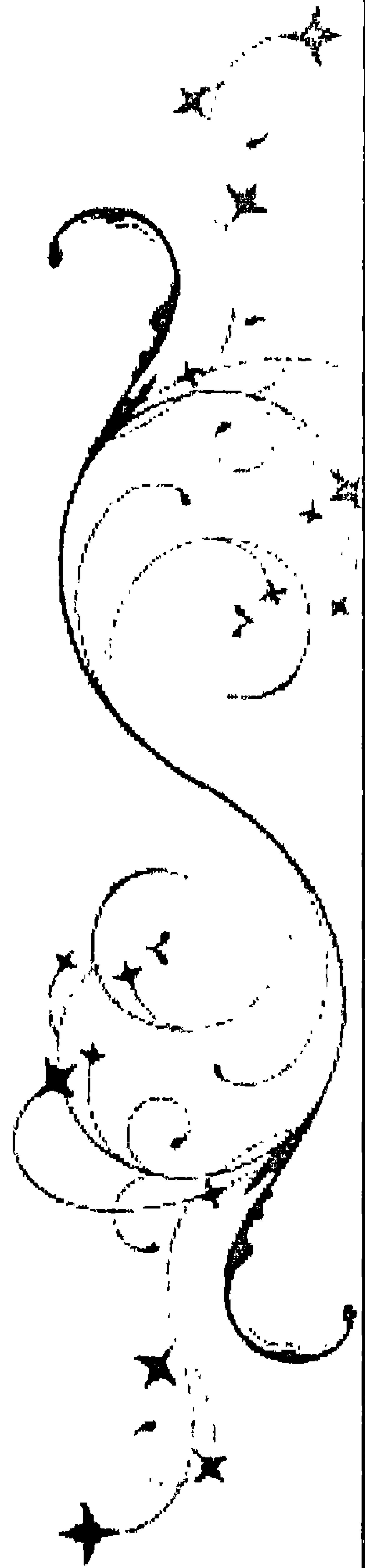
الزعامات القبلية في منطقة الخليج العربي

وعلاقاتها مع قوى المنطقة

- عُمان وفارس -

منذ مطلع القرن السادس عشر

حتى نهاية القرن الثامن عشر



الأوضاع السياسية في الإمارات العربية
منذ مطلع القرن السادس عشر

● أولاً: تمهيد: ●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

أكدت معظم المصادر التاريخية إن للعرب سيادة واضحة في منطقة الخليج العربي منذ وقت مبكر، وتمثلت تلك السيادة في نفوذهم السياسي وتفوقهم التجاري والملاحي، وظل الخليج العربي محتفظاً بسماته ومقوماته العربية طوال العصر الإسلامي، الذي شهد تفوقاً ملاحياً وتجارياً عربياً ليس في منطقة الخليج العربي فحسب، بل في المحيط الهندي[١].

ومنذ العصور الإسلامية أدت مسقط والبصرة والبحرين وغيرها من الموانئ العربية المتناثرة على ضفاف الخليج العربي، مهمتها محطات تجارية ومراكز لتوزيع البضائع، لأنها تتوسط شبكة من الطرق البحرية التي تربط بين الهند وجنوب شرق آسيا والشرق الأقصى، وإفريقيا، وأوروبا، وذلك مكنها من أن تحتل مكانة مرموقة في التجارة الدولية، وفي الفعاليات الملاحية[٢] وقد دونت لنا كتب الجغرافيين العرب كثيراً من

---

(١) للمزيد من التفاصيل يراجع: فضلو حوراني، الملاحة العربية في المحيط الهندي ترجمة يعقوب بكر، القاهرة ١٩٥٨م.

(٢) جون. ب. كيلي، بريطانيا والخليج (١٧٥٩-١٨٧٠م)، ترجمة محمد أمين عبدالله، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان، بلا، ص٧-٨.

الوصف الذي يعكس غنى الحياة، وازدهارها في موانئ الخليج، وقد وصف (لاندن) المدة الواقعة بين سنتي (٧٥٠-١٥٠٧م) بأنها: المدة المجيدة في تاريخ الخليج العربي، وما يطلق عليها بالعصر الذهبي[١]. وعلى الرغم من أن هذا الدور تعرض للاهتزاز، بظهور البرتغاليين في مياه الخليج، منذ مطلع القرن السادس عشر، فإن هذه الموانئ ظلت محتفظة بأهميتها الذاتية، بوصفها مراكز إقليمية لنقل السلع وتوزيعها، مع وجود هذا التحول المفاجئ[٢]. لقيت تلك الموجة الاستعمارية مقاومة شديدة من الإمارات العربية، شرقي الجزيرة العربية، وقد نجح سكانها في إجلاء القوى الأوروبية من المنطقة وكان لقوة القبائل العربية وحيويتها، وتقاليدها البحرية العريقة، وروحها التحررية، أبلغ الأثر في ذلك النجاح[٣].

غير إن ما يؤسف عليه أن الباحث في تاريخ إمارات الخليج العربي - ما عدا بعض الدراسات الجادة[٤] أغلفوا الجهود التي أدتها بعض القوى

(١) روبرت جيران لاندن، عُمان منذ ١٨٥٦م مسيراً ومصيراً، ترجمة محمد أمين عبدالله، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان ١٩٧٣م، ص٢٣.

(٢) المصدر نفسه، ص١٣.

(٣) عبد الأمير محمد أمين، مقاومة إمارات شرق الجزيرة العربية وقبائل الخليج العربي للتغلغل الاستعماري الأوروبي، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، ط٣، بيروت ١٩٨٦م، ص٥٣.

(٤) من أمثلة هذه الدراسات:-

أ - د. صالح محمد العابد، دور القواسم في الخليج العربي، بغداد ١٩٧٦م.

ب - مؤلفات د. جمال زكريا قاسم التي تشكل تاريخاً متكاملاً لمنطقة الخليج العربي منذ التوسع الأوروبي الأول حتى الحرب العالمية الثانية وما بعدها.

ج - مؤلفي الأستاذ فالح حنظل:

- المفصل في تاريخ الإمارات العربية، لجنة التراث والتاريخ، أبو ظبي ١٩٨٠م.

- الشحوح وتاريخ منطقة رؤوس الجبال في الخليج العربي.

والزعامات القبلية في صنع أحداثها، على الرغم من أن بعضها كان حاسماً، وكتبت تلك الزعامات صفحات مجيدة في تاريخ العرب الحديث. إذ صور المؤرخون الأوروبيون تاريخ الخليج العربي والإمارات العربية على أنه: يبدأ منذ قدوم البرتغاليين والقوى الأوروبية الأخرى، ومن ثم انفراد البريطانيين بالنفوذ خلال القرن الثامن عشر، وتجدد المنافسة خلال القرن التاسع عشر، الأمر الذي تمخض عن تعاظم النفوذ البريطاني حتى منتصف هذا القرن[١] فضلاً عن الصور المشوهة التي قصدوها في مؤلفاتهم عن قبائل المنطقة، والفعاليات التي أدتها الإمارات العربية وسكانها ضد الوجود الأجنبي.

والمتتبع لتاريخ منطقة الخليج العربي الحديث يدرك حقيقتين: الأولى: إن هناك دولتين من دول المنطقة، قد جذبتا اهتمام العالم الخارجي، ولا سيما القوى الأوروبية التي تنابت في السيطرة عليها هما عُمان وفارس[٢] والثانية: أن تاريخ الإمارات العربية في الساحل الغربي للخليج العربي يعد تاريخاً واحداً[٣] وقد عرفت الإمارات العربية في الساحل الغربي للخليج، في الوثائق البريطانية باسم (الساحل العُماني) ثم تحول بعد هذا إلى (ساحل الصلح البحري) أو (المشيخات المهادنة)[٤] كما أشارت بعض المصادر إلى أن مفهوم

---

(١) عبد الأمير محمد أمين، المصدر السابق، ص٥٣-٥٤.

(٢) صلاح العقاد، الاستعمار في الخليج (الفارسي!!) مكتبة أنجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٦م، ص٦٧.

(٣) محمود بهجت سنان، تاريخ قطر العام، بغداد، ١٩٦٦م، ص١٩.

(٤) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، بريطانيا وإمارات الساحل العُماني دراسة في العلاقات التعاهدية، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧٨م، ص٥-٦.

عُمان، في تلك الحقبة يشمل دولة الإمارات العربية الحالية، فضلاً عن سلطنة عُمان[١].

يتميز التركيب القبلي في الساحل الجنوبي للخليج، بانقسام السكان في ولائهم إلى عشرات من العشائر الصغيرة، تحت زعامة عشيرة أكبر، فتكون هذه العشيرة الكبيرة هي التي تحكم تلك العشائر، وفي الأغلب تغير العشائر الصغيرة ولاءها إلى عشيرة أخرى، أو أن تستقل كلياً عن القبيلتين الكبيرتين، فالتحالفات القبلية تسير على نحو غير مستقر، وهذا الأمر ينطبق على القبيلتين الرئيسيتين اللتين تزعمتا الساحل الجنوبي للخليج العربي، في المنطقة التي تؤلف حالياً دولة الإمارات العربية المتحدة[٢].

شهد الساحل الغربي للخليج كيانات سياسية عربية متعددة، ففي حين ظهرت دولة اليعاربة في عُمان (١٦٢٤-١٧٤٩م)، ظهرت تجمعات قبلية أخرى في المنطقة أبرزها: (تجمع القواسم)[٣] و(بنو ياس)[٤]، وقد نجحا في تأسيس كيانات سياسية متعددة، كمشيختي (أبو ظبي) و(دبي)

---

(١) عائشة السيار، دولة اليعاربة في عُمان وشرق إفريقيا في الفترة من (١٦٢٤-١٧٤١م)، دار القدس بيروت ١٩٧٥م، ص٩.

(٢) جمال زكريا قاسم، الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول (١٥٠٧-١٨٤٠م)، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٥م، ص٢٤٠.

(٣) يضم تجمع القواسم عشائر: آل علي - المهرة - البو مهير - آل زعاب - الحبوس - الشحوح - آل بو خريبان انظر: جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، ص٢٤١-٢٤٢.

(٤) يضم تجمع بني ياس عشائر: آل بو فلاح واليهم آلت الزعامة - آل بو فلاسة - حكام دبي حالياً - السودان - الهوامل - المحاربة - المزاريع - الرميثات - القبيسات - المرر - آل بو حمير - القمزان - السبايس - الهواجر، انظر: فالح حنظل، المفصل في تاريخ الإمارات، ص٤٥.

عن طريق بني ياس. ومشيخات (رأس الخيمة) و(الشارقة) و(عجمان) و(أم القيوين) و(الفجيرة) التي أسسها القواسم، كما استطاع هؤلاء مد نفوذهم إلى الساحل الشرقي للخليج العربي وبسطوا سيادتهم عل جزيرة (قشم) و(لنجة) الفارسيتين[١].

ويرى بعض الباحثين إن الاكتساح البرتغالي لعُمان والإمارات العربية، كان واحداً من الأسباب المهمة التي أدت إلى قيام دول، وكيانات سياسية جديدة، أخذت على عاتقها مقاومة المحتلين، كما حدث في سقوط دولة بني نبهان في عُمان، وقيام دولة اليعاربة وظهور أحلاف عشائرية، وتجمعات عشائرية، وتجمعات سياسية لها صفة شبه رسمية، كإمارات على خريطة المنطقة، كزعامة آل بو فلاح على تجمع بني ياس في إمارة (الظفرة) التي هي إمارة أبو ظبي حالياً، وظهور الحلف القاسمي في (جلفار) التي هي إمارة رأس الخيمة حالياً. وامتداد حلف القواسم على طول الساحل العربي إلى الشارقة وظهور تجمع (النعيم) في المنطقة، وبروز بقية الزعامات والإمارات الجديدة[٢].

إن انهيار القوة البحرية البرتغالية، وانسحابها من قلاعها وحصونها في الخليج العربي، الذي تحقق بفضل الضربات التي وجهها عرب المنطقة، قد سرع في نمو تلك التجمعات القبلية، كما يرتبط ظهورها بشكل واضح في أعقاب الصراعات الداخلية العنيفة التي شهدتها دولة اليعاربة القوية.

ومن الملاحظ إن تنظيمي (القواسم) و(بني ياس) قد تزامنا في

---

(١) فتحية البراوي ومحمد نصر مهنا، الخليج العربي دراسة في العلاقات الدولية والاقليمية، الإسكندرية، بلا، ص٢١٥.

(٢) فالح حنظل، المصدر السابق، ص٤٥.

نشأتهما، وإذا كان الأول قد تميز بقوته البحرية، تميز التنظيم الثاني بقوته البرية، وتشابه التنظيمان في قدرتهما عل تجميع عدد كبير من القبائل والعشائر، وأصبح القواسم وآل بو فلاح القبيلتين اللتين تزعمتا هذين التنظيمين الكبيرين. ومما تجدر الإشارة إليه أن السلطة التي يمارسها شيوخ القواسم وآل بو فلاح على القبائل المنتمية إليهم، لم تكن سلطة مطلقة استبدادية أو تعسفية، فإلى جانب سلطة الشيخ الأعلى، كان لكل قبلية أو عشيرة شيخها الذي يمارس الحكم وفق أسلوبه القبلي، وكانت غالباً ما تناقش القضايا الكبرى، بانعقاد مجلس كبير يرأسه شيخ التجمع، ويضم الشيوخ التابعين، وكبار رجال القبائل وفيه تقرر الحلول لتلك القضايا. وتحول الأعراف القبلية دون استبداد الشيخ الأعلى، التي كان على الزعماء الكبار مراعاتها، لإبقاء العشائر التابعة لهم على ولائها[(١)].

وعلى الرغم من أن الإتحادين المذكورين قد برزا إلى القوة نحو منتصف القرن الثامن عشر، وتقاسما السلطة فيما بينهما على الساحل الواقع على الخليج العربي الممتد من شبه جزيرة قطر (خور العديد) حتى شبه جزيرة مسندم في نهاية الخليج البالغ طوله نحو ١٤٠كم الذي يضم الإمارات السبعة[(٢)]. فإن هذا لا يعني إلغاء الجهد الذي أدته التجمعات المذكورة في المراحل السابقة، إذ يمكن عدها الحقبة التي تمثل مرحلة النشأة والتكوين لدولة الإمارات العربية فيما بعد. لذا ونحن بصدد تناول العلاقات الإماراتية بعُمان، وبفارس منذ مطلع القرن

---

(١) جمال زكريا قاسم، الأسس التاريخية لوحدة الإمارات ودور الاستعمار في تجزئتها بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، ط٣ بيروت ١٩٨٦م، ص٨٦-٨٧.

(٢) من تاريخ الخليج العربي، سلسلة ثقافة عسكرية، تشرف على إصدارها الكلية العسكرية، بغداد ١٩٧٢م، ص٤٦.

السادس عشر، فإن المنطق يحتم علينا تتبع علاقات تلك التجمعات القبلية بهاتين الدولتين، قبل بروزها على مسرح الأحداث في المنطقة، وتأسيسها الكيانات السياسية في المراحل اللاحقة.

● ثانياً: العلاقات الإماراتية - العُمانية: ●●●●●●●●●●●●●

تعرضت سيطرة البرتغاليين في الخليج العربي إلى مقاومة شديدة من القبائل العربية على امتداد الساحل، فقد حدثت ثورة منظمة عام ١٥٢١م شملت الساحل العربي، وجزيرة البحرين في وقت واحد، ومما يبعث على الارتياح أن يتوصل عرب الخليج في ذلك الوقت المبكر، إلى خطة محكمة لتوقيت الثورة، ومهاجمة الحصون البرتغالية دفعة واحدة، والذي ألحق المزيد من الخسائر المادية والبشرية بالمحتلين، بل كادت هذه الثورة أن تقضي على الوجود البرتغالي في المنطقة برمته، غير أن ذلك لم يتحقق بسبب الخلافات بين مملكة هرمز وبعض القبائل العربية التي غذتها فيما بعد القوات البرتغالية في الخليج[١]. وعلى الرغم من التفوق البرتغالي فإن القبائل العربية لم تذعن للسيطرة الأجنبية، بل قاومتها بكل الوسائل المتاحة، فحدثت ثورات مماثلة في قريات وصحار عام ١٥٢٢م ومسقط وقلهات عام ١٥٢٦م، والبحرين عام ١٥٢٩م[٢].

كان تحرير ساحل عُمان من الهيمنة البرتغالية هدفا مركزيا للإمام ناصر بن مرشد (١٦٢٤-١٦٤٩م) مؤسس دولة اليعاربة في عُمان، الذي أدرك أن ذلك الهدف لا يمكن تحقيقه، من دون تأييد القبائل العربية

---

(١) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، المصدر السابق، ص٣٢-٣٣.

(٢) للتفاصيل يراجع:

Miles, S.S.B, Countries and Tribes of the Gulf, London 1966.

ومؤازرتها[١] وحينما أعلن الإمام ناصر الجهاد الديني لتخليص البلاد من البرتغاليين بعد إنجازه الوحدة الوطنية، وجد تجاوباً كبيراً من القبائل في الإمارات العربية، إذ ساهم القواسم وبنو ياس في حروب التحرير العربية التي خاضها العُمانيون، منذ النصف الأول من القرن السابع عشر ضد الوجود الفارسي البرتغالي في سواحل الخليج العربي، وكتبوا صفحات مجيدة فيها.

ففي عام ١٦٣١م كانت (جلفار) واحدة من الأهداف المهمة لقوات التحرير العُمانية التي حاصرت الحامية الفارسية فيها، والتي تلقت إسناداً نارياً من السفن البرتغالية ثم شنت هجوما ليلياً على برج يتصل بالحامية، وبعد وصول المزيد من الإمدادات لقوات الإمام، أطبق الحصار على الحاميتين الفارسية والبرتغالية التي استسلم رجالها[٢] وقد حررت (جلفار) بمؤامرة وإسناد القواسم وبني ياس، اللذين شاركوا في تلك المعركة[٣] وتذهب بعض المصادر إلى الاعتقاد بأن هذا العام، هو الذي شكل فيه القواسم نواة قوة سياسية صغيرة تناسب حجم الأحداث في المنطقة في ذلك الحين. وإن تحرير جلفار، دفع بشيخ القواسم (كايد بن عدوان) إلى فسح المجال لهجرة أعداد كبيرة من العرب القواسم الموجودين في الساحل الشرقي للخليج العربي، للالتحاق بنواة الإمارة القاسمية، التي بنيت بسواعد أبنائها[٤].

---

(١) غانم محمد رميض العجيلي، قيام حكم سلالة اليعاربة وانهياره في عُمان، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد ١٩٨٧م، ص٣٢.

(٢) جمال زكريا قاسم، الخليج العربي، ص٢٦٧.

(٣) Bathurst, the Yarubi Dynasty in Oman, Oxford, 1967, P.86-7.

(٤) نايف محمد حسن الأحبابي، الموقف العربي والإقليمي من الهيمنة البرتغالية في الخليج العربي (١٥٠٧-١٦٥٠م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد ١٩٨٨م، ص١٣١، فالح حنظل، المفصل في تاريخ الإمارات، ص٧١.

ومن جانب آخر تعرضت العلاقات بين بعض الإمارات العربية، وعُمان - الدولة الفتية - إلى التوتر، فقد شهدت عام ١٦٤٥م خلافاً حاداً بين الإمام ناصر بن مرشد وزعيم بني ياس (صقر بن فلاح) بسبب عصيان والي بلدة (ينقل) ناصر بن قطن الهلالي، إذ هرب من عُمان، واختفى في منطقة الإحساء، وهناك ألف قوة محاربة أخذ يغير بها - بين حين وآخر - على عُمان، مما دفع الإمام ناصر إلى تكليف والي منطقة (توام الجوف) وهي بلدة البريمي الحالية المجاورة لمدينة العين في (أبو ظبي) - لمراقبة تحركات الهلالي، ومحاولة القضاء عليه، وحينما أبلغ الوالي بالأمر، حشد قوة، وقرر التوجه إلى إمارة (الظفرة) لنصب كمين لناصر بن قطن هناك، واختار موضع الكمين في منتصف المسافة بين مدينة (أبو ظبي) الحالية، ومدينة (العين)، غير أن الهلالي نجح في الأفلات من الكمين، ولجأ لدى صديقه (صقر بن فلاح) حاكم إمارة الظفرة، وزعيم بني ياس، الذي قبل لجوءه، وأكرم وفادته، وأسكنه في حصنه في واحة (ليوا) وعين له حرساً خاصاً، تحت إشراف شقيقه الشيخ محمد بن فلاح[(١)] ومن (الظفرة) وتحت حماية بني ياس حشد جيشاً كبيراً من بعض القبائل بني ياس، وغيرهم من قبائل البدو والحضر والهجوم عل البريمي - إذ توجد القوات العُمانية - ومحاصرتها. غير أن العُمانيين تمكنوا من فك الحصار، مما دفع الهلالي إلى ترك البريمي، والتوجه نحو جلفار، ولاحقته قوات الإمام، وألحقت به هزيمة كبيرة[(٢)].

---

(١) نور الدين بن حميد السالمي، تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان القاهرة ١٣٥٠هـ، ص١٣-١٤؛ حميد بن محمد رزيق، الشعاع الشائع باللمعان في ذكر أئمة عُمان، تحقيق عبد المجيد حسيب القيسي، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان، ص٢٢١.

(٢) سرحان بن سعيد الأزكوي، تاريخ عُمان المقتبس من كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، تحقيق عبد المجيد حسيب القيسي، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان ١٩٨٠م، ص١٠٤.

لكن الهلالي واصل عصيانه على الإمام، وقرر هذه المرة أن يهجم على عُمان عن طريق الساحل الممتد من (أبو ظبي) فالإمارات الباقية، وتشير بعض المصادر إلى أنه طلب مساعدة البرتغاليين[١] واستطاع في بداية الأمر تحقيق بعض الانتصارات، على قوات القبائل الموالية للإمام[٢] غير أن القوات العُمانية نجحت أخيراً بتوجيه الضربة القاضية لقوات الهلالي، فوقع أسيراً بيد الجيش العُماني، وبعد ذلك أصدر الإمام أوامره بالبحث عن إبل ناصر بن قطن، التي كانت بحوزة بني ياس في إمارة الظفرة، فلما وصلت أنباء تحركات الجيش العُماني، اتخذ زعيم بني ياس (صقر بن فلاح) الإجراءات اللازمة لصد الهجوم المحتمل على إمارته وقاد بنفسه القوة المدافعة، والتقى الجيشان في منطقة تدعى (الشعيب) فقتل صقر وشقيقه محمد، وعلى أثر ذلك آلت زعامة بني ياس إلى الشيخ زايد بن محمد بن فلاح[٣] ولا بد من الإشارة إلى أن البرتغاليين، قد راقبوا هذه الحركات وغيرها ضد إمام عُمان بارتياح بالغ، وبذلوا ما بوسعهم لتغذيتها وتشجيعاً[٤].

وعلى الرغم من اندماج القواسم وبني ياس في الوحدة العُمانية، التي تكونت في عهد الإمام ناصر بن مرشد، فإنهم ظلوا متمتعين

---

(١) عبد اللطيف ناصر الحميدان، نفوذ الجبور في شرق الجزيرة العربية بعد زوال سلطتهم السياسية (١٢٧٧-١٨٧٥م)، مجلة كلية الآداب، جامعة البصرة، العدد ١٧، ١٩٨١م، ص٢١٩.

(٢) Bathurst, Op., Cit., P.98.

(٣) سرحان بن سعيد الأزكوي، المصدر السابق، ص١٠٨، فالح حنظل المصدر السابق، ص٧٩.

(٤) عبد اللطيف ناصر الحميدان، المصدر السابق، ص٢١٩.

باستقلالهم، غير أن ذلك لا ينفي من أنهم يؤلفون ركناً مهماً من أركان الوحدة العُمانية، حتى السنوات الأخيرة من حكم اليعاربة[١].

ومما يعزز هذا الرأي:

١ - مشاركة بني ياس في حركة الجهاد، التي قادها الإمام سيف بن سلطان (١٦٩٢-١٧١١م)، وتعقب البرتغاليين إلى معاقلهم في الهند، وسواحل شرق إفريقيا، ومما يؤكد ذلك أن أسرة المزروعي[٢] - وهي أحد فروع قبيلة بني ياس - قد كونت لها نفوذاً هناك، حتى النصف الأول من القرن التاسع عشر[٣].

٢ - إسهام القواسم في السيطرة على جزر البحرين، وقشم، ولارك عام ١٧١٦م، في عهد الإمام سلطان بن سيف الثاني (١٧١١-١٧١٩م)[٤].

كان القواسم في ميناء (لنجة) الفارسي على علم بتحركات الإمام العُماني سلطان بن سيف الثاني وكان حاكم لنجة الفارسي قد أعد العدة لقطع الطريق تجاه القوات العُمانية والقاسمية في الخليج العربي، ولم يكن بمقدور القواسم مواجهة القوة الفارسية لوحدهم، فكتب زعيم القواسم

---

(١) جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، ص٢٦٧.

(٢) للاطلاع على النفوذ المزروعي في شرق إفريقيا يراجع:

Coupland, East Africa and its invaders from the Earliest time to the death of Seyyid Said in 1856, Oxford, 1938.

إيمان شاكر عبدالله الهنداوي، النفوذ المزروعي في شرق إفريقيا (١٦٩٨-١٨٣٧م)، رسالة دبلوم غير منشورة، معهد القائد المؤسس، الجامعة المستنصرية، ٢٠٠١م.

(٣) جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، ص٢٥٩-٢٦٠.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٦٧.

في لنجة (قضيب من كايد) إلى إمام عُمان، يطلب منه النجدة، وقبل أن تصل أنباء تحرك الأسطول العُماني، أصبحت السفن العُمانية على مقربة من المدينة، ودمرت الحصون الفارسية فيها، فضلاً عن الدعم القاسمي من داخل المدينة، مما أدى إلى اندحار الفرس، وهروب حاكم المدينة (شجاع الدين العجمي) إلى مقاطعة شيراز[١] غير أن مهمة الوحدات العُمانية لم تكتف بتدمير المدينة، بل أدت واجبات عسكرية أخرى على الشاطئ الفارسي، وقد عزز تلك القطعات البحرية، قوات قاسمية إضافية من رأس الخيمة، أرسلها الشيخ رحمة بن مطر (١٧٢٢-١٧٦٠م)، فتوجهت القوات العربية المشتركة إلى جزيرة (قشم)[٢]، وتمكنت القوات العُمانية - القاسمية من الإنزال فيها وإخضاعها، وأسس القواسم محطة تجارية لهم هناك. ثم تقدمت القوات العربية نحو هرمز، كما فرضت حصاراً على مدخل الخليج ومراقبته[٣].

ونفذ القواسم ترتيبات خطة عسكرية، صممها الإمام سلطان بن سيف الثاني لمباغتة القوات الفارسية في البحرين، وتحرير هذا الأرض العربية من الاحتلال الفارسي، وجرت معارك عنيفة بين القوات العربية المشتركة والمحتلين الفرس، وانتهت بهروب القائد الفارسي إلى إيران، وتحرير البحرين، وترك العرب لهم حامية فيها. وقد أثرت تلك الفعاليات العربية المشتركة تأثيراً كبيراً في ميزان القوى في الخليج العربي، بعد أن أوشكت إيران على التسليم بالأمر الواقع، والاعتراف بالتفوق العربي

(١) فالح حنظل، المصدر السابق، ص١٢٥.

(٢) وهي جزيرة كبيرة تقع في فم الخليج العربي، بين جزيرة لارك وجزيرة هنجام، يقع فيها ميناء باسيدو الكبير، وتعد هذه الجزيرة واحدة من القواعد العسكرية الفارسية المهمة آنذاك.

(٣) فالح حنظل، المصدر السابق، ص١٢٥-١٢٦.

فيه[١]. وعند نشوب الصرعات الداخلية، وانقسام العُمانيين إلى فئتين متصارعتين هما: الغافرية والهناوية[٢] في أواخر دولة اليعاربة وقفت القبائل القاطنة في منطقة الشمال (القواسم) إلى جانب التجمع الغافري، وأصبحت من أهم القوى التي ألفت هذا التجمع[٣] وقد برزت تلك الحقيقة، بعد لجوء محمد بن ناصر الغافري إلى الشيخ رحمه بن مطر شيخ رأس الخيمة، وطلبه العون العسكري ضد الفئة الهناوية، وقد وضع الشيخ القاسمي قواته وسفنه إلى جانب الزعيم الغافري، الأمر الذي لم يؤد إلى رجحان كفة الغافريين فحسب، بل وصول محمد بن ناصر الغافري إلى الإمامة (١٧٤٢-١٧٢٨م)، كما شاركت قبائل بني ياس في حسم الموقف لصالح الحزب الغافري، واجتاحت مع بقية القبائل مدينة (صحار)[٤] غير أن الأوضاع لم تلبث أن تطورت في عُمان، حينما تمكنت الفئة الهناوية من السيطرة على الموقف، وكان ذلك سبباً في استنجاد سيف بن سلطان الثاني (١٧٣٨-١٧٤٢م) بالفرس[٥]. وكان القواسم بقيادة رحمه بن مطر، في طليعة القوى العربية التي تصدت للغزو الفارسي من قاعدتهم رأس الخيمة[٦].

---

(١) المصدر نفسه، ص١٢٧.

(٢) للاطلاع على تفاصيل تلك الصراعات يراجع: عائشة السيار، المصدر السابق، غانم محمد رميض العجيلي، المصدر السابق.

(٣) جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، ص٢٦٧.

(٤) فاضل محمد عبد الحسين، عُمان في عهد أحمد بن سعيد (١٧٤٩-١٧٨٣م) دراسة التاريخ السياسي الحديث، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة بغداد، ١٩٨٨م، ص١٢٤.

(٥) غانم محمد رميض العجيلي، المصدر السابق، ص١١٧.

(٦) جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، ص٢٦٧.

أدت هذه الأوضاع الشاذة في عُمان إلى إعلان القواسم انفصالهم عن دولة اليعاربة، وقد تعزز هذا الموقف أثر سقوطها، وقيام دولة البو سعيد[١] ومما لا شك فيه انهيار القوة البحرية الفارسية في الخليج العربي في أعقاب اغتيال نادر شاه عام ١٧٤٧م[٢]، عزز من التفوق البحري للقواسم على سواحل الخليج العربي[٣] ويرجع تاريخ انفصال رأس الخيمة عن عُمان، وظهورها كعاصمة مستقلة لجميع مقاطعات الساحل العُماني إلى منتصف القرن الثامن عشر، وذلك حينما أعلن الشيخ رحمة بن مطر تكوين الإتحاد القاسمي الذي ضم القبائل التي نطلق عليها بتجمع القواسم[٤].

وقد عد الإمام أحمد بن سعيد (١٧٤٩-١٧٨٣م) مؤسس دولة البو سعيد هذا الانفصال، من أهم المشكلات التي واجهته، في مطلع حياته السياسية، ففي حين أيدت القبائل الهناوية الإمام الجديد، حاولت القبائل الغافرية، وفي مقدمتها القواسم إبقاء الإمامة في أسرة اليعاربة، لذلك شارك القواسم، في المعارك العنيفة، التي دارت بين الإمام الجديد، والجناح الغافري بقيادة بلعرب بن حمير (منتصف ١٧٤٤ - منتصف ١٧٤٩م)[٥]

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٦٩-٢٧٠.

(٢) لمعرفة تفاصيل الحملات الفارسية على عُمان في عهد نادر شاه يراجع: عدنان هرير جودة الزبيدي، عُمان وسياسة نادر شاه التوسعية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد ١٩٨٣م، وكذلك:

L. Lockhhart, Nadirshah, a critical study based mainly upon contemporary sources, London, 1938.

(٣) صالح محمد العابد، المصدر السابق، ص٨٧.

(٤) جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، ص٢٦٨.

(٥) فاضل محمد عبد الحسين، المصدر السابق، ص١٢٤.

وكان التحدي القاسمي أول تحد واجهه الإمام أحمد عند تسلمه الحكم، مما أضعف من سمعته في المنطقة[١].

وبعد نجاح أحمد بن سعيد في السيطرة الكاملة على الموقف، قرر إخضاع القواسم لسلطته، وحشد قوة برية وبحرية كبيرة في خلال المدة الواقعة بين عامي (١٧٥٨-١٧٥٩م)، وفرض حصاراً شديداً على معقلهم (رأس الخيمة) وجزيرة الحمرا وفاشت والشارقة، وهي موانئ القواسم الرئيسة، وقد دفع الوضع الصعب الذي مر به لأهل هذه الموانئ إلى اعترافهم بسلطة الإمام الجديد ما عدا - رأس الخيمة[٢].

أرسل الشيخ راشد بن مطر (١٧٦٠-١٧٧٧م) - وهو الشخصية الثانية البارزة في تاريخ القواسم - حملة انتقامية عام ١٧٦٣م إلى الرستاق عاصمة الإمام ومحاصرتها وقد أدت تلك الحملة إلى قيام الصلح بين القواسم والإمام أحمد، الذي وافق على استقلال القواسم في مقاطعتهم، وانسحاب القوات البحرية العُمانية منها، مع اعتراف القواسم بصداقة الدولة العُمانية[٣] ويمكن أن يعد عام ١٧٦٥م العام الذي حصل فيه القواسم على استقلالهم الكامل، وأصبحت رأس الخيمة مركزاً مستقلاً لهم بشكل رسمي[٤] غير أن هذا الصلح لم يستمر طويلاً، فبعد سنوات عشر تجددت الحرب بينهما، ثم توقفت أثر استقالة زعيم القواسم بسبب تقدمه في السن، فعقد ابنه صقر بن راشد (١٧٧٧-

(١) صالح محمد العابد، المصدر السابق، ص٩١، جون كيلي، المصدر السابق، ج١، ص٣٧.

(٢) صادق حسن عبد واني، الدول العُمانية نشأتها وازدهارها، ندوة الدراسات العُمانية، مج٢، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان ١٩٨٠م، ص٦٤-٦٥.

(٣) فاضل حنظل، المصدر السابق، ص٢١١-٢١٢.

(٤) جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، ص٢٦٩-٢٧٠.

١٨٠٣م) الذي يعد مخطط النهضة القاسمية الحديثة - والإمام أحمد هدنه[١]، لكن الحرب بينهما تجددت عام ١٧٧٨م، عندما أسر الشيخ صقر القاسمي بعض السفن العُمانية[٢].

أعد الإمام أحمد - بإزاء التهديد القاسمي - حملة بحرية كبيرة، وحرك أسطولاً عُمانياً مؤلفاً من اثنتي عشرة سفينة كبيرة، ومائة سفينة صغيرة، إلى رأس الخيمة، إلّا أن ضحالة المياه قرب السواحل، حال دون نجاحها[٣] ورد الشيخ صقر القاسمي على تلك الحملة، فشن هجوماً على الباطنة، وحاصر الرستاق، غير أنه لم يحقق أي نجاح يذكر، فعاد إلى رأس الخيمة[٤].

حاول القواسم في السنوات الأخرى من حكم أحمد بن سعيد، استغلال الصراع الأسري بين الإمام وولديه (سيف وسلطان)، فقاد صقر القاسمي حملة ثانية إلى الرستاق، إلّا أن الإمام وولديه، توحدوا لمواجهة الخطر القاسمي، فاضطرت القوات القاسمية إلى الانسحاب، واستمرت بعد ذلك المناوشات بين الجانبين العُماني والقاسمي حتى نهاية عهد الإمام أحمد بن سعيد[٥].

وعلى الرغم من الصراع العنيف بين القواسم وعُمان في عهد الإمام أحمد بن سعيد، فإن الأحوال السياسية والإقليمية المضطربة، أدت إلى التحالف بينهما في كثير من الأحيان، ويبدو أن الإمام أحمد ولا سيما من

(١) صالح محمد العابد، المصدر السابق، ص٩٥.
(٢) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، المصدر السابق، ص١١٥.
(٣) صالح محمد العابد، المصدر السابق، ص٩٥.
(٤) فاضل محمد عبد الحسين، المصدر السابق، ص١٢٧.
(٥) صالح محمد العابد، المصدر السابق، ص٩٦.

خلال صراعه مع الفرس، في عهد كريم خان الزندي (١٧٥٦-١٧٧٩م)، حاول استغلال التفوق البحري للقواسم، في كسر شوكة فارس، ففي عام ١٧٧٢م تحالف الإمام وشيخ القواسم لمواجهة الخطر الفارسي، الذي كان يتهدد الساحل الغربي للخليج العربي، وقد نجح القواسم، بفصل هذا التحالف في مهاجمة (بندر عباس) عام ١٧٧٣م، وتحطيم عدة سفن فارسية، ومستودع عسكري في ميناء لنجة[١] وهذا يفسر لنا الموقف القومي المسؤول الذي ينسى فيه الأشقاء خلافاتهم الجانبية - مهما بلغت من قوة - عندما يهدد الأجنبي بلادهم.

ومع أن التحالف المذكور آنفاً، يهدف إلى تحقيق مصالح قومية مشتركة، لكلا الطرفين المتحالفين، فإنه لم يلبث أن انفصمت عراه عام ١٧٧٥م، حين تجدد الصراع على أثر محاولة الشيخ القاسمي السيطرة على الشريط الساحلي، بقوته البحرية المتنامية، وظهر الصراع على أشده في عهد السيد سلطان بن أحمد (١٧٩٢-١٨٠٤م)، الذي زج نفسه في صراع خطير مع القواسم، إذ شهدت المدة من (١٧٩٨-١٨٠٤م) اضطرابات عنيفة في الخليج العربي، بسبب هذا الصراع، مما جعل الملاحة فيه شبه متوقفة، وزادت حوادث البحر، سواء تلك الحوادث كانت موجهة ضد فارس أم عُمان أم ضد الأساطيل الأجنبية، واستمر هذا الوضع حتى عام ١٨٠٩م، إذ التقت آراء كل من بريطانيا وسلطان عُمان، للعمل على سحق النشاط البحري للقواسم، ونفذت من أجل ذلك حملات بريطانية عديدة، اشتركت فيها مسقط بنصيب وافر، وانتهت تلك الحملات إلى

(١) جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، ص٢٧٠، فالح حنظل، المصدر السابق، ص٢٧٢.

نجاح بريطانيا القضاء على التفوق البحري القاسمي، وإحكام السيطرة بصورة كاملة على الخليج العربي[١].

● **ثالثاً: العلاقات الإمارتية - الفارسية:** ●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

ترتبط العلاقات الإماراتية - الفارسية بعملية الصراع المستمرة التي خاضها عرب الخليج مع فارس، ومشاركة الإمارات العربية وقبائلها في صد الغزو الفارسي المتكرر لأراضيهم منذ القرن السادس عشر، وتميزت بالمد والجزر تبعاً لما تمليه مصلحة الإمارات العربية، فحينما تناولت العلاقات الإماراتية - العُمانية، فأننا تناولنا ضمناً العلاقات بين تلك الإمارات مع فارس، لأن العلاقات مع عُمان ترتبت في جوانب كثيرة منها على أساس التحالف مع الإمارات العربية، في التصدي للمحاولات العديدة للسيطرة على سواحل الخليج العربي، والتي تبلورت بشكل واضح في الغزوات المتتابعة التي شنها الفرس على عُمان، على أثر الصراعات الداخلية التي دبت في جسم دولة اليعاربة. وكان موقف سكان الإمارات العربية وقبائلها من الغزو الفارسي واضحاً وصريحاً.

ما أن تلقى الفرس دعوة الإمام (سيف بن سلطان) إمام عُمان، حتى أتموا استعداداتهم لغزو عُمان، فأبحر الأسطول الفارسي من بندر عباس في الأول من نيسان/ أبريل عام ١٧٣٧م متوجهاً إلى خورفكان[٢]، ليتخذ منها خطاً دفاعياً أول، والانطلاق منها إلى رأس الخيمة لقصر المسافة بينها وبين بندر عباس، واتخذها قاعدة حصينة للدفاع والهجوم. وما أن نزلت القوات الفارسية في المكان المذكور، تصدت لها القبائل العربية وجلهم

(١) جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، ص٢٧٢.

(٢) خورفكان: أحد الموانئ العُمانية المهمة التي تطل على خليج عُمان قرب مدخل الخليج العربي، يبعد حوالي (٧٤) ميل جنوب رأس مسندم على خليج عُمان.

من القواسم، بقيادة الشيخ رحمة بن مطر القاسمي، وبعد سلسلة من المعارك الطاحنة التي تكبد فيها الفرس الكثير من الخسائر، تمكن الفرس من السيطرة على رأس الخيمة، وقد أدى نزول القوات الفارسية في الأراضي العربية إلى نقمة سكان الإمارات العربية وقبائلها ضد سيف، وقد عبروا عن موقفهم هذا برسائل الاحتجاج التي رفعوها إليه، وحذروه فيها من مغبة التعاون مع الفرس[١]. وقد ولدت المجازر التي أرتكبها الفرس، استياءاً عاماً من أنصار سيف وخصومه على حد سوا، إلّا أنهم استفادوا من فشلهم هذا في مشاريعهم المقبلة[٢].

ومن الملاحظ أن الحملات الفرنسية على عُمان تأتي متزامنة مع ما يجري من خلافات على الإمامة، كما أنه من المؤسف حقاً أن الإمام سيف يعاود سيرته مع الفرس، بتناقضاتها كافة، وكأنه لم يتعظ بما قام به الفرس في بلاده في المرة الأولى من دمار وتخريب. وبعد أن تم تنسيق الخطط بين قوات سيف والفرس، تحركت من قاعدتها في رأس الخيمة براً وبحراً للقضاء على معاقل المقاومة الرئيسية وقد ارتكبت القوات الغازية مجازر مروعة، إذ قدرت بعض المصادر عدد القتلى حوالي (١٠,٠٠٠) شخص[٣].

إن التطورات المفاجئة التي طرأت على الساحة العُمانية، وما رافقها من تصاعد هجمات القبائل العربية في عُمان وبقية الإمارات العربية

(١) عدنان هرير جودة الزبيدي، المصدر السابق، ص٩٧.

(٢) المصدر نفسه، ص١٠٠.

(٣) أبو سليمان محمد بن عامر المعولي، قصص وأخبار جرت في عُمان، تحقيق عبد المنعم عامر، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان ١٩٨٣م، ص١٣٧،

Bathurst, Op., Cit, P.90-280.

المستاءة من الاحتلال الفارسي، فضلاً عن الانتكاسات التي منيت القيادة الفارسية، أدت إلى إثارة الأحقاد والخلافات بين قادي الحملة (تقي خان) و(لطيف خان)، وقد وضعت هذه الظروف (تقي خان) في موقف حرج ومتبك، وبعد أن أدرك إن أموره أخذت تسير من سيئ إلى أسوأ أنسحب بقواته إلى رأس الخيمة وثبت فيها حامية فارسية، وأنسحب إلى بندر عباس التي وصلها في أواخر تموز/ يوليو ١٧٣٨م، وفشلت الحملة الفارسية الثانية[١].

حاول نادر قلي خان (١٧٢٦-١٧٤٧م)[٢] لأول مر في تاريخ فارس الحديث تأسيس قوة بحرية فارسية قوية في بحر قزوين، ومياه الخليج العربي، واستعان بخبرة الملاحين وبناة السفن العرب، إذ نقل الآلاف منهم للإسراع في أنجاز الأسطول، ويبدو واضحاً أنه كان يهدف إلى بسط نفوذه على سواحل فارس الشمالية والجنوبية، وإخضاع القبائل العربية في كلا الساحلين الشرقي والغربي، وتشجيع التجارة البحرية، وتحقيق أطماعه التوسيعية في الخليج العربي، التي راودته طيلة حياته لاحتلال عُمان وبقية الإمارات العربية[٣].

ومن المعروف إن القبائل العربية القاطنة على جانبي الخليج، تمتلك خبرات ملاحية واسعة، يفتقر الفرس إلى مثلها، فكان من الطبيعي أن يلجأ نادر شاه إلى هذه القبائل، لاستثمار خبراتها في أسطوله، مستخدماً شتى

(١) المعولي، المصدر السابق، ص١٣٨.

(٢) وهو تاريخ التحاقه بطهماسب بن شاه حسين، أما تتويجه فكان عام ١٧٣٦م، وعرف فيما بعد باسم نادر شاه.

(٣) كاظم باقر علي، البحرية الفارسية في الخليج العربي، دراسة لواقعها البحري (١٧٤٨ - ١٩٠٧م)، منشورات مركز دراسات الخليج العربي جامعة البصرة ١٩٨٤م، ص٣٤.

سبل الإكراه والإغراء لاستدراج هذه القبائل للعمل في بحريته، وبالفعل نجحت خطته بضم قسم منهم إليه، وفي أثناء الغزو الفارسي لعُمان ونتيجة المجازر التي ارتكبها الفرس في عُمان ضد أبناء عمومتهم في عُمان فقد أدت إلى إثارة الحمية العربية في نفوس هؤلاء البحارة العرب، مما دفعهم إلى التمرد والاستيلاء على ما في حوزتهم من سفن، والتوجه بها إلى عرض البحر، وقطع خطوط الإمداد عن تقي خان وقواته في عُمان، وكان هذا واحداً من الأسباب الرئيسية، التي أدت إلى فشل الحملة الفارسية، ولم يعد بوسع الفرس إيصال الإمدادات إلى حامياتهم في رأس الخيمة والبحرين، ولم يكتف البحارة العرب بذلك، بل قاموا بشن هجمات انتقامية على الفرس في جزيرتي قشم وباسيدو غير إن المتمردين الذين أصبحت لهم سيطرة شبه كاملة على الخليج العربي، وقعت بينهم بعض الخلافات في أواخر عام ١٧٣٧م أدت إلى أضعاف سيطرتهم، وتمكن الفرس من استعادة معظم سفن الأسطول الفارسي من قبضتهم(١).

إن انسحاب الحملة الفارسية الثانية من عُمان أثارت مشاعر السخط في نادر شاه ضد تقي خان، فوجه إليه رسالة توبيخ شديدة اللهجة، حمله فيها مسؤولية فشلها، وطلب منها استئناف عملياته الحربية على عُمان والإمارات العربية دون تأخير، غير أن تطورات الأحداث في فارس في الفترة (١٧٣٩-١٧٤٢م)، أخرت المخطط التوسعي لنادر شاه في عُمان لمدة ثلاث سنوات(٢).

(١) عدنان هرير جودة الزبيدي، المصدر السابق، ص١٠٧-١٠٨،

Bathurst, Op., Cit., P.280-298.

(٢) عدنان هرير جودة الزبيدي، المصدر السابق، ص١١٠،

Bathurst, Op., Cit., P.280-298.

• تمرد البحارة العرب في الأسطول الفارسي: • • • • • • • • •

في آب/ أغسطس عام ١٧٤٠م قام البحارة العرب العاملين في الأسطول الفارسي بحركة تمرد ثانية، فقتلوا قائد البحرية (مير علي خان) وعدداً من ضباطه، وأقلعوا بسفنهم إلى خور فكان وجزيرة قيس، تحت قيادة زعيمي التمرد شيخ القواسم رحمة بن مطر حاكم رأس الخيمة، وعبد الشيخ أحد الشيوخ العرب في جزير قشم، وحينما أدرك الفرس عجزهم عن مطاردة البحارة العرب لاستعادة سفنهم، طلبوا المساعدة من الهولنديين من بندر عباس، كما تباحث قائد البحرية الفارسية الجديد (محمد تقي خان) مع الوكيل البريطاني في بندر عباس، في سبيل الحصول على مساعدات بريطانية لمطاردة البحارة العرب. وقد تمخض عن تلك الاتصالات والمحاولات، قيام الوكيل البريطاني بإرسال رسائل إلى المتمردين يدعوهم فيها إلى التسليم إلى شركة الهند الشرقية البريطانية، والحصول على مساعدات بريطانية وهولندية.

أبحر (محمد تقي خان) من بندر عباس صباح يوم ٢٦ أيلول/ سبتمبر ١٧٤٠م على رأس الأسطول مؤلف من قطع بحرية (هولندية - بريطانية - فارسية) مشتركة، لمهاجمة الشيخ رحمة بن مطر وبحارته في جزيرة قيس، غير أن القوة القاسمية كانت تترصد بدقة تحركات الأسطول المشترك، وعند اقترابه من الجزيرة، فوجئ بنيران المدفعية القاسمية، وتنم تطويق القوة المهاجمة، وتمكنت مجموعة فدائية عربية من التسلق إلى ظهر أحد السفن، ودارت معركة بالسلاح الأبيض مع طاقمها، وألحقوا بهم خسائر كبيرة، وبعد يوم واحد من القتال انتاب الفرس الذعر والارتباك، فعادوا أدراجهم فاشلين في ١٢ تشرين الأول/

أكتوبر ١٧٤٠م، وقد حذر العرب الهولنديين من مغبة استمرارهم في تقديم المساعدات للفرس[(١)].

وفي الوقت الذي برهنت فيه المحاولات الفارسية، إخفاقها التام بالحصول على مساعدات هولندية وبريطانية، كان العرب يزدادون نشاطاً وقوة بلغت أوجها في نهاية عام ١٧٤٠ وبداية ١٧٤١م، فرضوا خلالها سيطرة شبه مطلقة على الخليج العربي، وفي تلك الأثناء قامت قبائل الهولة العربية في الضفة الشرقية من الخليج، بثورة عارمة على طول المنطقة من بوشهر إلى بندر عباس، ومما زاد من شدة خطورتها هو قيام الثائرين بالتنسيق مع أبناء عمومتهم البحارة العرب بشأن القيام بعمليات عسكرية مشتركة ضد الفرس.

أصدر نادر شاه أوامر فورية إلى حاكم إقليم فارس، بحشد قوة عسكرية قوامها (٦,٠٠٠) رجل، وجمع مبلغا قدره (١٥,٠٠٠) تومان لتغطية نفقات الحملة التي سيقوم بها لإخماد تلك الثورة، واسترجاع السفن من أيدي البحارة العرب، وطلب مجدداً مساعدة الهولنديين والبريطانيين، وبعد أن رفض الهولنديين تقديم المساعدة المطلوبة، استولى على اثنين من سفنهم بالقوة. وأبحرت القوة الفارسية بقيادة قائد القوة البحرية الجديد (إمام وردي خان)، لمهاجمة البحارة العرب في جزيرة قيس، وما أن بدأت القوة بالإنزال في الجزيرة، داهتمها سفن البحارة العرب، وتبادل الجانبان إطلاق النار، فأصيب قائد البحرية الفارسية بجروح أدت إلى مصرعه، مع عدد من قوته. مما جعل أفراد

(١) عدنان هرير جودة الزبيدي، المصدر السابق، ص١١٠،

Bathurst, Op., Cit., PP.280-304 - 5.

القوة المتبقية في موقف حرج فانسحبوا بسرعة تاركين القوة التي نزلت في الجزيرة تلاقي مصيرها المحتوم[(١)].

يتبين من خلال هذا التعرض للفعاليات التي خاضها العرب، وعلى رأسهم القواسم، أن الفرس فشلوا من جميع محاولاتهم لاستعادة قطع أسطولهم، وأن مصرع قائد بحريتهم، جعلهم يغضون النظر - على مضض - من القيام بأية محاولة أخرى.

● الإمارت العربية وتجدد الأطماع الفارسية في عُمان: ●●●●●

كانت نتيجة السلوك المتقلب الذي سلكه سيف بن سلطان، وتماديه في هذا السلوك، ثورة العُمانيين مجدداً عليه، فعقد رجال الدين ورؤساء القبائل إجتماعاً في مدينة (نخل) في ٢٧ شباط/ فبراير ١٧٤٢م قرروا فيه خلع سيف وتعيين (سلطان بن مرشد) إماماً بدلاً عنه[(٢)]. ويذكر جون كيلي، بأن سيفاً حينما عزل عن الإمامة، فر إلى بلاد فارس، واستنجد بالشاه مرة ثانية، وتعهد له بالتنازل عن صحار مقابل تقديم المساعدة العسكرية له[(٣)]. ما أن تلقى الفرس هذه الدعوة للإمام المخلوع سيف بن سلطان، حتى أوعزوا إلى حاميتهم في رأس الخيمة، بمهاجمة القواسم (حلفاء إمام عُمان)، وبناء على هذه الأوامر شنت القوات الفارسية في نيسان/ أبريل عام ١٧٤٢م هجوماً على هذه القبائل، وتمكنت القوة المهاجمة من السيطرة على منطقة (الخصب)، وقد زعم

---

(١) عدنان هرير جودة الزبيدي، المصدر السابق، ص١١٠،

Bathurst, Op., Cit., P.199-280.

(٢) فالح حنظل، المصدر السابق، ص١٧٤-١٧٥.

(٣) جون كيلي، المصدر السابق، ص٢٠، فيما ذكر (مايلز) أن سيف بعث رسولاً إلى (نادر شاه) يرجوه فيها التدخل لصالحه، انظر: Miles, Op., Cit., P.255.

الفرس كذباً إنهم قتلوا شيخ القواسم (رحمة بن مطر القاسمي)[١]. كما نجحت القوات الفارسية في احتلال قلعتي (الجلالي والميراني) في مسقط عن طريق الخديعة[٢]- التي غالباً ما كانت العنصر الأساسي الذي عول عليه الفرس في حروبهم - إلّا أن عرب عُمان وقبائل الإمارات العربية المتحالفة معهم، لم يذعنوا للمحتلين، بل قاوموهم ببسالة نادرة، وأوقعوا فيهم المزيد من الخسائر ونتيجة للأوضاع السيئة والخسائر الفادحة التي تكبدتها القوات الفارسية في عُمان، أصدر نادر شاه أوامره بالانسحاب ومغادرة الأراضي العربية في عُمان[٣].

وعلى أثر الغزو الفارسي لعُمان، مات قادة الصراع الداخلي في عُمان، فبقي حاكم صحار أحمد بن سعيد وحده في الميدان يحمل شرف طرد الفرس من بلاده، إذ نشط ليدافع عنها ببسالة، ويعيد لها الوحدة والاستقلال حتى استطاع أن يخطو خطوات ثابتة في هذا المجال، وأن ينتخب إماماً على عُمان بصورة رسمية، في العاشر من حزيران/ يونيو عام ١٧٤٩م[٤].

لم يكن أحمد بن سعيد راضياً بأن تغادر القوة الفارسية مسقط وعُمان، دون أن يثار للشهداء الذين سقطوا من المدن العُمانية لها أثناء الاجتياح الفارسي، فقام بإبادة الحامية الفارسية، وأحرق السفن الفارسية وهي في طريقها إلى بندر عباس فخلك من فيها حرقاً أو غرقاً في البحر،

---

(١) عدنان هرير جودة الزبيدي، المصدر السابق، ص١٢٤.

(٢) Jhon Perry, Karim Khan Zand, a history of Iran, 1747-1779 Chicago, 1979, P.179.

(٣) غانم محمد رميض العجيلي، المصدر السابق، ص١٢٦.

(٤) فاضل محمد عبد الحسين جابر، المصدر السابق، ص٦١.

وكان ذلك آخر ذيول الحماقة التي ارتكبها سيف بن سلطان الثاني، والمغامرة العسكرية التي قام بها شاه فارس (نادر شاه)[١].

• النشاط القاسمي في الساحل الشرقي للخليج العربي: ••••

في أعقاب سقوط الدولة الصفوية، استغل القواسم الفوضى والاضطرابات التي شهدتها فارس، فقاموا بالاستيلاء على (باسيدو) في جزيرة قشم، وقد أثر ذلك تأثيراً كبيراً في الكمارك المستحصلة في بندر عباس، التي كان يتقاسمها الفرس والبريطانيين وقد دفع هذا الأمر المستر درابر WÁ H Draper إلى القيام بحملة بحرية في نيسان/ أبريل ١٧٢٧م ضد القواسم، كان نتيجتها إجبار القواسم على دفع التعويض على الخسائر المالية التي سببتها للشركة.

دفع موت نادر شاه، وتدهور القوة البحرية الفارسية، القواسم إلى مسرح الأحداث بشكل بارز، إذ وجهوا طاقتهم منذ ظهورهم الأول خارج موطنهم، لاستغلال الأجزاء القريبة من الساحل الشرقي، وعلى أثر اغتيال نادر شاه، عمد ملا علي شاه[٢]، الذي استحوذ على قطع الأسطول الفارسي الذي تحت إمرته نتيجة التهديد الواقع عليه من حاكم منطقة لار (ناصر خان)، إلى تأمين حصوله على مساعدة القواسم[٣] فالتقى بالشيخ راشد بن مطر، وعقدوا اتفاقية صداقة وتعاون، تقرر فيها أن يقوما بالهيمنة على مداخل الخليج، والقيام بإحكام السيطرة عليه،

---

(١) فالح حنظل، المصدر السابق، ص١٨٤-١٨٥.

(٢) ملا علي شاه: ضابط عربي كان حاكماً لبندر عباس وتوابعها، سبق لنادر شاه أن عينه قائداً من الأسطول الفارسي في بندر عباس، انظر، صالح محمد العابد المصدر السابق، ص١٠٥.

(٣) المصدر نفسه، ص١٠٥.

وتسهيل عمليات نزوح القواسم وغيرهم من القبائل العربية، وقد توطدت العلاقة الحميمة بينهما عندما تزوج الشيخ راشد من ابنة الملا علي شاه عام ١٧٥١م[١] وقد مهد هذا التحالف السبيل للقواسم لتحقيق طموحاتهم في التوسع في أجزاء مهمة من الساحل الشرقي، كالاستيلاء على قشم ولافت ولنجة[٢]. وأصبح القواسم بفضل هذا التحالف قادرين أيضاً في الاستفادة من الأسطول الفارسي بل واستخدمه ضد منافسيهم[٣]، فاشتركوا مع حليفهم ملا علي شاه في عام ١٧٥٥م في الهجوم على شيخ بني معين[٤] ومحاصرته في ميناء لافت. وأصبح القواسم يسيطرون على جزر وموانئ هامة، تضم بندر عباس وهرمز وقشم. وفي عام ١٧٥٩م اشترك القواسم في الحروب كان يخوضها (مير مهنا) شيخ بندر ريق ضد الهولنديين، كما وقف القواسم إلى جانب حليفهم ملا علي شاه ضد التمرد الذي أدى إلى نفيه إلى جزيرة هرمز عام ١٧٦٠م[٥] وعندما حاول بني معين انتهاز هذه الفرصة لاسترداد جزيرة قشم، إلّا أن موقف القواسم كان حاسماً، إذ وصلت الإمدادات إليهم من رأس الخيمة، فحالت دون اقتراب

---

(١) فالح حنظل، المصدر السابق، ص١٠٦. صالح محمد العابد، المصدر السابق، ص١٠٥.

(٢) صالح محمد العابد، المصدر السابق، ص١٠٥.

(٣) عبد الأمير محمد أمين، القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثمن عشر، بغداد ١٩٦٦م، ص٢٣.

(٤) قبيلة عربية كانت نشطة جداً في هذه الفترة قاعدتها الرئيسية في جزيرة قشم، كانت في هذا الوقت تحت زعامة شيخها المسن النشط (عبد الشيخ) الذي يشار إليه في السجلات البريطانية بلقب حاكم قشم. انظر: صالح محمد العابد، المصدر السابق، ص١٠٧.

(٥) جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، ص٢٧٤.

الأسطول المهاجم منهم، بل تمكنوا من رده ومطاردته حتى هرمز. مما دفع بشيخ بني معين بطلب مساعدة إمام عُمان، فتوجه إلى مسقط لتحقيق هذا الهدف، وفي خلال غيابه، حصل تطور جديد في الموقف. ففي ٢٤ حزيران/ يونيو ١٧٦٠م، قام الزعيم القاسمي الشيخ راشد بن مطر بصحبة ملا علي شاه - الذي نجح في إفرار من هرمز - بالإنزال على مقربة من بندر عباس واقتحامها والاستيلاء عليها. لكنهم انسحبوا إلى جزيرة قشم على أثر مقاومة جنود جعفر خان شقيق ناصر خان(١).

استمر الصراع بين ناصر خان وحلفائه بني معين من جهة، وبين القواسم وحليفهم ملا علي شاه من جهة أخرى تمكن القواسم من خلالها إيقاع هزائم عسكرية عديدة بقوات ناصر خان في عامي ١٧٦١ و١٧٦٢م وفي عام ١٧٦٣م تم التوصل إلى اتفاق بين القواسم وحليفهم من جهة وبين بني معين من جهة أخرى ولكن لم يمض وقت طويل على هذا الاتفاق حتى تجددت الصراعات بين القواسم وبين بني معين(٢) لا سيما بعد أن أصدر الشاه كريم خان الزندي (١٧٥٧-١٧٧٩م) أمراً بتثبيت سلطة الشيخ عبدالله المعيني على جزيرة قشم(٣)، وبندر عباس وهرمز، وظلت تلك المناطق تحت سيطرتهم حتى وفاة شيخهم عبدالله إذ بدأ القواسم من استعادتها الواحدة تلو الأخرى(٤). واستمرت الحرب سجالاً بينهم وبين قبيلة بني معين من أجل السيطرة على قشم حتى سنة ١٧٧٧م، العام الذي توصل فيه الطرفان إلى إزالة الخلافات بينهما وذلك

(١) صالح محمد العابد، المصدر السابق، ص١٠٩-١١٠.
(٢) جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، ص٢٧٥.
(٣) فالح حنظل، المصدر السابق، ص٢١٣.
(٤) جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، ص٢٧٥.

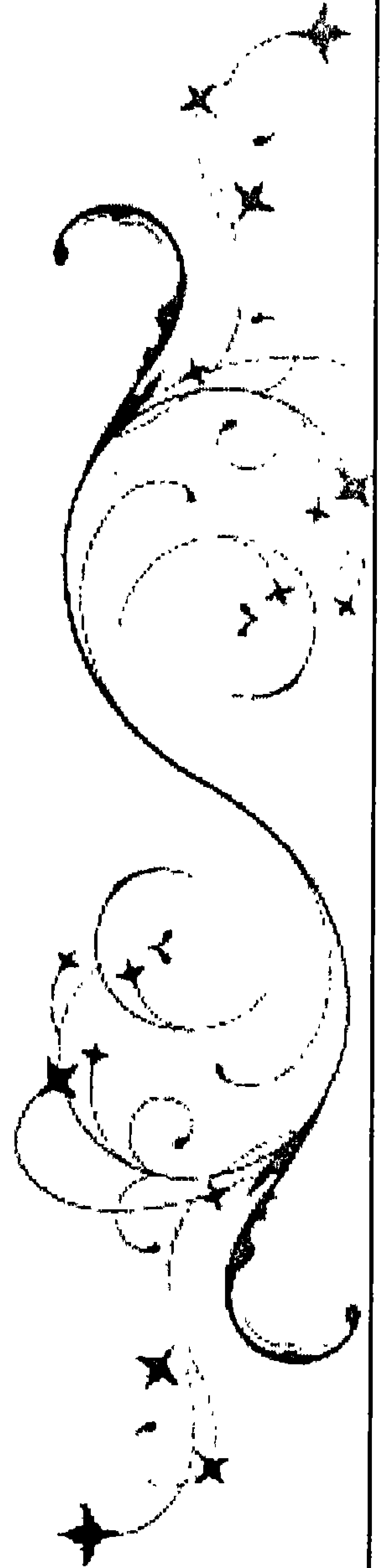
عن طريق الصاهرة. إذ تزوج شيخ القوام الجديد صقر بن راشد (١٧٧٧-١٨٠٣م) من إحدى بنات الشيخ عبدالله المعيني.

وحينما أوشك القرن الثامن عشر على الانتهاء، كان القواسم قد ثبتوا أنفسهم بقوة في جزيرة قشم وميناء لنجة، وبتحكمهم بمدنهم المحصنة في الساحل الغربي، أصبحوا يتحكمون بكلا طرفي المضيق الضيق في مدخل الخليج العربي[(١)].

(١) صالح محمد العابد، المصدر السابق، ص١١٢-١١٣.

الفصل الرابع

السياسة العُمانية تجاه البحرين
في النصف الأول من القرن التاسع عشر



الصراع العُماني - الفارسي
للسيطرة على البحرين حتى عام ١٨٠٠م

تعرضت البحرين إلى عدة غزوات فارسية في عهد الأسرتين الصفوية والأفشارية، ولم تكن تلك الغزوات ناجمة عن إيمان الحكام الفرس بتبعية البحرين إلى فارس، بل كانت تحركها الأطماع الاقتصادية بالدرجة الأولى، وكذلك الخلافات المذهبية وخصوصاً مع شيوخ الأحساء من بني جبر، أو بني خالد، الذين كانوا يخضعون البحرين لسيطرتهم(١).

في أعقاب انهيار النفوذ البرتغالي في البحرين، تمكن الشاه عباس الكبير من السيطرة على البحرين سنة ١٦٠٢م، عندما بعث بقوة بحرية بقيادة (قولي خان)، وبذلك أصبحت البحرين منذ مطلع القرن السابع عشر تحت الحكم الفارسي. ومن الطبيعي أن ينظر السكان العرب في البحرين بعدم الرضى للحكم الفارسي، مما جعلهم يتطلعون إلى حكم عربي يسود في عهده الأمن والاستقرار ويحقق العدالة(٢). وكانت دولة

---

(١) جمال زكريا قاسم، الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول (١٥٠٧-١٨٤٠م)، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٤١٣.

(٢) علي عبد الرحمن أبا حسين، تاريخ البحرين من خلال المخطوطات والوثائق، بحوث الحلقة الرابعة لمركز دراسات الخليج العربي والجزيرة العربية، أبو ظبي ١٩٧٩م، ص٣٤٦-٣٤٧.

اليعاربة في عُمان (١٦٢٤-١٧٤٩م) قد شهدت منذ النصف الثاني من القرن السابع عشر، نهوضاً سياسياً، تمثل في نجاحهم الساحق في صراعهم مع الفرس والبرتغاليين على حد سواء، حتى أصبحت هذه الدولة أكبر قوة في الجزيرة العربية وفي البحار الشرقية عموماً[١].

ففي سنة ١٧١٥م كان لدى العُمانيين على حد قول هاملتون: - سفينة ذات (٧٤) مدفعاً، واثنتان ذواتا (٦٠) مدفعاً، وواحدة ذات (٥٠)، وثمانية عشر تحمل كل واحدة منها (١٢-٣٢) مدفعاً ومجموعة من السفن الصغيرة التي تحمل كل منها ما لا يقل عن أربعة مدافع[٢]. وعلى النقيض من ذلك، فأن الإنكليز - على سبيل المثال - وهم القوة العظمى - لم تكن لديهم سفينة ملكية في المياه الهندية بل كانت هناك أربعة سفن تعود إلى بومباي، تقوم بحراسة السفن الأكثر أهمية على امتداد الساحل، وأن السفن التي تقوم برحلة عبر المحيطات من الهند إلى أوروبا، كانت تبحر بشكل جماعي، لتأمين الحماية المتبادلة. أما الأسطول البرتغالي، فلم يكن بوسعه القيام بأية مواجهة، وأن الهجمات العُمانية على الساحل الفارسي، باتت تشكل خطراً جاداً يهدد التجارة الفارسية[٣].

وبهذه القوة والنفوذ أصبح الأئمة الإباضيون في عُمان، هم القوة العربية الوحيدة المؤهلة لطرد الفرس من البحرين.

---

(١) جمال زكريا قاسم، دولة بو سعيد في عُمان وشرق إفريقيا، (١٧١٤-١٨١٦م)، القاهرة ١٩٧٤م، ص٣٧.

(٢) Hamilton, Elexender, a new account of the East India, Vol.I, London 1930, P.51.

(٣) Bathurst, the Yarubi Dynasty in Oman, Oxford 1976, P.208.

انتهز إمام عُمان سيف بن سلطان (١٦٩٣ -١٧١١م) الاضطرابات التي شهدتها فارس، فقام بحملة كبيرة على البحرين سنة ١٧٠٠م أدت إلى إضعاف الوجود الفارسي فيها ودفع سكانها على الهرب إلى القطيف والسواحل الشرقية للخليج العربي، وحاولت فارس من جهتها تعزيز نفوذها على البحرين ثانية، إلّا أنها كانت أضعف من أن تجاري قوة عُمان البحرية، التي أصبحت أقوى قوة بحرية غير أوروبية في الخليج العربي، مما دفع الفرس بالاستعانة بالشركات الأوروبية، كشركة الهند الشرقية البريطانية، إذ أرسل الشاه حسين (١٦٩٤ -١٧٢٢م) سنة ١٧٠٧م بعثة إلى بومباي، وأخرى إلى باتافيا للاستنجاد بهولندا، إلّا أن هذه الشركات كانت في ذلك الوقت تسعى إلى الربح المادي، ولم تكن قادرة على الدخول في مغامرات عسكرية، قد تزيد خسائرها، لذلك فشلت هاتان المحاولتان[1].

حاول الشاه إرسال بعثة ثالثة إلى البلاط الفرنسي عام ١٧٠٨م في عهد الملك لويس الرابع عشر، وعقدت تلك البعثة معاهدة صداقة مع فرنسا، وجاء في بعض نصوص المعاهدة بأن تقوم فرنسا، بتقديم

---

(١) أحمد محمود صبحي، البحرين ودعوى إيران، الإسكندرية ١٩٦٢م، ص٦٩-٧٠.

يذكر لوكهارت أن محاولة الاتصال بهولندا جرت عام ١٧١٦م عندما وصل مبعوث هندي من باتافيا وهو كيتلار Ketelar إلى فارس منذ بداية تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٧١٦م لغرض مساعدتهم بقوة بحرية، وحتى عند مغادرته ولحين وصوله نحو حمبرون في ١٩ كانون الثاني/ يناير، أدى الرفض الهولندي إلى قيام الفرس بمحاصرة الوكالة الهولندية، وقطع الإمدادات عنها، وبعد يومين أدى الموت المفاجئ للمبعوث الهولندي إلى رفع الحصار. انظر: - Lockhart, Laurence, the fall of the Safaw Dynasty and Afgan occupation to Persia, Cambridge 1938, PP.401-402.

المساعدات اللازمة، والعون البحري الفرنسي الممكن للاحتلال مسقط، إلّا أن فرنسا ترددت في تنفيذ تلك المعاهدة، مما دفع فارس إلى تكليف سفيرها في باريس لعقد معاهدة جديدة، تعطي لفرنسا امتيازات تجارية أفضل مما قررتها المعاهدة السابقة. وقد نصت المعاهدة الجديدة بصريح العبارة على أن تساعد فرنسا، في تخليص البحرين من السيطرة العُمانية، على أن تشترك فرنسا مع فارس في اقتسام موارد اللؤلؤ في البحرين، غير أن هذه المعاهدة لن توضع موضع التنفيذ أيضاً[١].

وفي سنة ١٧١٧م فرض الإمام سلطان بن سيف الثاني (١٧١١ - ١٧١٩م) سيطرته على جزر قشم ولاراك، فضلاً عن محاولته السيطرة على هرمز التي كادت تسقط بأيديهم في العام ذاته[٢]. وفيما يخص البحرين، وضع الإمام سلطان الخطط اللازمة لتعزيز سيطرته عليها وفي بداية موسم الغوص[٣]، أصدر أوامره بالتوجه للبحرين، وكانت القوة الإيرانية على استعداد لصد الهجوم العُماني، وجرت معارك عنيفة بين الطرفين، أدت إلى هرب القائد الفارسي من البحرين إلى إيران ودخل الإمام سلطان المدينة بمعاونة من رحمه بن مطر شيخ القواسم، وقام ببناء قلعة (عراد) الشهيرة وترك حامية عُمانية هناك وعاد إلى بلاده[٤].

---

(١) جمال زكريا قاسم، الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية، ص٤١٥.

(٢) Bathurst, Op., Cit., P.209.

(٣) وهو موسم يقع في أشهر الصيف الحارة حيث يغادر معظم سكان الجزيرة، ويتوجهون في رحلة تمتد شهوراً عدة إلى عرض البحر للغوص والبحث عن اللؤلؤ. انظر:-
فالح حنظل، المفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة، ج١، لجنة التراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة، أبو ظبي ١٩٨٠، ص١٢٧.

(٤) المصدر نفسه، ص١٢٧.

وبسبب فشل المحاولات الفارسية المتتالية للتحالف مع كل من بريطانيا وهولندا وفرنسا، توجهوا هذه المرة إلى البرتغال، التي لديها الرغبة أكثر من الجميع في تحطيم القوة العُمانية الناشئة[١]، بسبب الدور الذي أداه الأئمة اليعاربة المتعاقبون[٢]، في انهيار النفوذ البرتغالي في الخليج، بعد طردهم من قاعدتهم الرئيسية في معركة تحرير مسقط الشهيرة سنة ١٦٥٠م، وملاحقتهم للفلول البرتغالية المتواجدة غرب المحيط الهندي[٣]، وجرت بالفعل اتصالات فارسية مع البرتغاليين، واتخذت جملة من التدابير الأولية البرتغالية لتدمير القوة العُمانية، إلّا أنها فشلت أيضاً[٤].

ولما عجزت فارس من الحصول على أي دعم عسكري دولي ضد عُمان، فإنها اضطرت للدخول في مفاوضات مباشرة مع إمام عُمان، ولما كان العُمانيون يواجهون عداء من عرب الهولة في البحرين، فقد وافق إمام عُمان سلطان بن سيف بالتفاوض مع فارس بخصوص البحرين، نتج عنها موافقة سلطان بالانسحاب من البحرين مقابل قيام فار بدفع مبلغ قدره ثمانية آلاف تومان فارسي، وقد تحقق الانسحاب بالفعل سنة

---

(١) Danvers F.C., the Portuguse in India being a history of the rise and decline of their Empire, London 1894, Vol.11, P.382.

(٢) ناصر بن مرشد (١٦٢٤-١٦٤٩م) سلطان بن سيف (١٦٤٩-١٦٧٩م) بلعرب بن سلطان (١٦٧٩-١٦٩٢م) سيف بن سلطان (١٦٩٢-١٧١١م).

(٣) للاطلاع على تفاصيل الدور الذي أداه العُمانيون في إقصاء البرتغاليين من الشريط الساحلي العُماني، والضربات المتلاحقة للمواقع البرتغالية غرب المحيط الهندي في القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر يراجع:
Bathurst, Martime Trade and Imamate Government - two principles in the history of Oman to 1798, in the Arabian Peninsula, London 1972.

(٤) Bathurst, the Yarubi Dynasty in Oman, P.210.

١٧١٨م[١]. إلّا أن الترتيب الجديد لم يؤد إلى استقرار الأوضاع في البحرين، إذ ترتب على السيطرة الفارسية إثارة التعصب المذهبي بين المسلمين، وأحال البحرين إلى فوضى عارمة، ومما تجدر الإشارة إليه هو أن السيطرة الفارسية على البحرين لم تكن مباشرة، فكانت القبائل العربية هي التي تمارس الحكم الفعلي فيها، وكثيراً ما كانت تلك القبائل تقوم بالثورة على التبعية الفارسية، كالمحاولات الناجحة التي قام بها عرب الهولة للتخلص من السيادة الفارسية[٢]. كما أن السيطرة الفارسية على البحرين تعرضت إلى الاهتزاز بسبب بحارة الأسطول الفارسي الذين كانوا موالين للشيوخ المستقلين، ولم يكونوا خاضعين تماماً للحكومة المركزية في أصفهان[٣].

شهدت عُمان في العقدين الثالث والرابع من القرن الثامن عشر، واحدة من أسوء الأزمات في تاريخها الحديث، نتيجة الانقسام في الرأي، بعد وفاة الإمام سلطان بن سيف الثاني آخر الأئمة اليعاربة الأقوياء، فكانت بداية لحرب أهلية طاحنة أدت إلى تدخل نادر شاه سنة ١٧٣٧م في هذا الشأن الداخلي بعد القرار الخطير الذي اتخذه أحد طرفي الصراع سيف بن سلطان في مدة إمامته الخامسة (١٧٣٨-١٧٤٢) بطلب النجدة من نادر شاه الذي وجدها بدوره فرصة ثمينة لاحتلال عُمان نفسها، وليصبح المتحكم الوحيد في خليج عُمان والخليج العربي برمته[٤].

---

(١) جمال زكريا قاسم، الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية، ص٤١٥، أحمد محمود صبحي، المصدر السابق، ص٧١.

(٢) جمال زكريا قاسم، الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية، ص٤١٦.

(٣) أحمد محمود صبحي، المصدر السابق، ص٧٤.

(٤) غانم محمد رميض العجيلي، قيام حكم سلالة اليعاربة وانهياره في عُمان (١٦٢٤-١٧٤٩م) دراسة في التاريخ السياسي، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد ١٩٨٧م، ص١١٦.

فانطلقت الحملات الفارسية المتعاقبة إلى عُمان لتحقيق أهدافها التوسعية[١]. إلّا أن المقاومة الباسلة التي أبدها الحاكم أحمد بن سعيد البوسعيدي في الدفاع عن مدينته صحار، وتطورات الأوضاع الداخلية في فاري في حربها مع الدولة العثمانية صرفت اهتمامات نادر شاه عن مشروع الاستيلاء على عُمان، وهكذا تحول أحمد بن سعيد إلى رمز للمقاومة الوطنية بوجه الاحتلال الفارسي[٢]. وعقدت الإمامة الشرعية له بصفة رسمية عام ١٧٤٩م، لتكون هذه السنة نهاية لحكم سلالة اليعاربة وبداية لحكم سلالة جديدة في عُمان هي أسرة البو سعيد، والتي سيكون لعُمان في عهدها أثر إقليمي دولي أكبر مما كان عليه في زمن الأسرة السابقة.

ويمكننا القول إن القرن الثامن عشر شهد صراعاً جديداً بين عُمان وفارس للسيطرة على البحرين، وكانت الكلفة تميل فيها بشكل واضح لصالح عُمان، ليس في البحرين فحسب، بل في منطقة الخليج العربي عموماً.

---

(١) للاطلاع على تفاصيل الحملات التي نفذها نادر شاه على عُمان منذ سنة ١٧٣٧م، يراجع:-

Lockhart, Laurance, Nadir Shah, a critical study based mainly upon contemporary sources, London 1938.

(٢) غانم محمد رميض العجيلي، المصدر السابق، ص١٢٥.

المحاولات العُمانية لإخضاع البحرين
في النصف الأول من القرن التاسع عشر

واصلت السلالة الجديدة في عُمان تطلعاتها للتوسع في منطقة الخليج العربي، لا سيما في البحرين، وقد قام الحكم الجديد بإعادة ترتيب سياسته في المنطقة من جديد، وقد فرضت هذا الترتيب حدوث تطورات إقليمية ودولية فضلاً عن التطلعات الفردية لهذا الحكم أو ذاك.

فالأوضاع في منطقة الخليج العربي شهدت في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر تطورات جديدة منها: - التوسع السعودي نحو مناطق الخليج العربي، ومحاولة توحيد جميع أقاليم شبه الجزيرة العربية، في ظل الدولة السعودية الأولى، إذ قامت بالسيطرة على واحة البريمي، وهذا بالطبع يشكل خطراً على عُمان.

ومن ناحية أخرى فإن المدة نفسها شهدت صراعاً حاداً بين القواسم وسلطان عُمان، وازدادت حدة الخطر من وجهة النظر العُمانية عندما تحالف القواسم مع السعوديين وصار السيد سعيد في وضع لا يحسد عليه، فبينما كانت القوات السعودية تهاجمه من البر، كان القواسم يشددون الخناق عليه من البحر. كما أن الخلافات بين السعوديين وآل

خليفة قد تمت تسويتها. ومن الطبيعي أن تخلق تلك التطورات حالة عدم ارتياح من جانب السلاطين العُمانيين[١].

أما التطورات الدولية، فإن العداء التقليدي الذي كان قائماً بين بريطانيا وفرنسا، قد اشتد بعد احتلال نابليون لمصر سنة ١٧٩٨م، الذي يمثل تهديداً للوجود البريطاني في الهند من وجهة النظر البريطانية والفرنسية[٢]. على حد سواء وكانت بريطانيا على يقين تام بأنه في حالة قيام علاقات بين فرنسا ومسقط، فإن ذلك سيؤدي حتماً، إلى غلق البحر الأحمر والخليج العربي، بوجه السفن البريطانية، وهما المنفذان الرئيسيان المؤديان إلى مستعمراتها في الهند لذلك فإنها زادت من اهتمامها بمنطقة الخليج العربي قبل أن يقع في يدي الفرنسين وتصاعدت نشاطاتها السياسية فيه، وأخذت تنظر إليه على أنه الخط الأول للدفاع عن الهند[٣].

أدرك الماركيز ريتشارد كولي ولزلي Rochard Colley Wellesley[٤]

---

(١) تمام همام تمام، خلفية البحرين التاريخية قبل وجود محمد علي في الخليج العربي، مجلة الوثيقة، العدد التاسع، ١٩٨٦م، ص١٩-٢٠.

(٢) لقد كان نابليون بونابرت يرى أن: (تحطيم بريطانيا كلياً يوجب الإمساك بمصر... التي سنكون من خلالها على تماس مع الهند) انظر:-

- Quoted in: Coupland. B. East Africa and its invaders from the Earliest time to the death of Seyyid Said in 1856, London 1938, P.88.

(٣) عبد الحميد كاظم حمادي الشطري، البحرين دراسة سياسية (١٨٢٠-١٨٨٠م)، رسالة ماجستير غير منشورة، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة ١٩٩٠م، ص٣٥-٣٦.

(٤) تعد حقبة الماركيز ريتشارد ولزلي (١٧٩٧-١٨٠٥م) نقطة التحول في ترسيخ وتوسيع السلطان البريطاني في شبه القارة الهندية حتى أطلق عليه اصطلاح (مهندس الإمبراطورية في الهند) وقد ركز جهده على تصفية بؤر النشاط الفرنسي في الهند والمياه العربية، وهو شقيق بطل المعركة واترلو الشهيرة اللورد ولنكتن الذي تراس =

أهمية تأمين النفوذ البريطاني في مسقط «مفتاح الخليج العربي» فأمرا مرزا مهدي علي خان المقيم المعين في بو شهر، بالتفاوض لإبرام اتفاقية مع سلطان بن أحمد (١٧٩٢-١٨٠٤م) ولم يجد المبعوث البريطاني صعوبة تذكر في تنفيذ ما كلف به، إذ أن إمام عُمان كان يحاول استغلال تلك التطورات لتحقيق أهدافه لاحتلال البحرين، وتم التوقيع على المعاهدة في ١٢ تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٧٩٨م بين شركة الهند الشرقية وعُمان[١].

دفعت هذه التطورات الإقليمية والدولية بالإمام سلطان بن أحمد إلى عقد تحالفات تخدم التطلعات العُمانية لاحتلال البحرين، فعلى الصعيد الإقليمي، حاول الإمام طلب المساعدة من الدولة العثمانية وإيران. أما الصعيد الدولي فإنه استغل الاتفاقية مع بريطانيا، للحصول على موقف مساند منها، بتزويده بالمعدات والأسلحة والمعونة اللازمة لاحتلال البحرين، فضلاً عن منعها من بيع الأسلحة والسفن إلى العتوب، ولا سيما إن المنازعات الداخلية بين أقطار الخليج العربي، لا تؤثر في السياسة البريطانية ولم يكن يهمها آنذاك سوى الحفاظ على تجارتها في المنطقة، وتأمين طرق مواصلاتها المؤدية إلى الهند. لذلك أكدت حكومة الهند إلى إمام عُمان بأنها لا تنوي تقديم المساعدات إلى آل خليفة، ولم تسمح لهم بشراء السفن

= الوزارة البريطانية بين (١٨٢٨-١٨٣٠م). للمزيد من التفاصيل يراجع:

P. Spear, The Oxford history of modern India 1740-1947, Delha 1974, PP.106-113.

(١) للتعرف على نص المعاهدة يراجع:-

Atichison, collection of treaties, Engagments and sands relating to India and, Niebouring Countries, Vol.XII, PP.207-8, G.C. Hurewits, Diplomacy in the Near and Middle East a documentary record 1535-1956, Vol.I, Oxford 1987, PP.64-5.

الحربية من الهند، كما عبرت له عن تمنياتها له بالانتصار على عتوب البحرين[١]. وبذلك فإن سلطان بن أحمد هيأ الأجواء الدولية لضم البحرين إلى ممتلكاته.

كانت أولى المحاولات هي قيام الأسطول العُماني بالتعرض إلى ثلاث سفن تجارية بحرينية وهي في طريق عودتها من الهند سنة ١٧٩٩م، واستغل سلطان بن أحمد النزاع الداخلي الذي حث في البحرين، فهاجمها في السنة نفسها، وحصل على اعتراف من شيوخها بالسيادة العُمانية عليها. وكان إمام عُمان قد أرسل إلى حكمة الهند يبلغها بأنه رفض عرضاً فرنسياً لمساعدته في حربه مع عتوب البحرين، وأكد الإمام إلى الصداقة المتينة بين مسقط وبومباي، وكان رد حكومة الهند إيجابياً، إذ أكدت أنها لم تقدم أية تسهيلات لعتوب البحرين، سواء أكان بطريقة مباشرة أم غير مباشرة، وتمنت للإمام سلطان تحقيق النصر على عتوب البحرين[٢].

وفي السنة التالية نفذ هجوماً على جزيرة البحرين واحتلها وعين حاكماً عليها[٣]. إلّا أن الحكم العُماني لم يستمر طويلاً فسرعان ما قامت ثورة في البحرين بدعم سعودي سنة ١٨٠١م، ونجح الهجوم في بداية الأمر، إلّا أن تدخل السعوديين هذه المرة أيضاً أدى إلى إحباطه[٤].

---

(١) عبد الحميد كاظم حمادي الشطري، المصدر السابق، ص٣٦.

(٢) سمير محمد علي أبو ياسين، العلاقات العُمانية البريطانية (١٧٩٨ - ١٨٥٦م)، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، ص١٣٧-١٣٨.

(٣) Selections from the records of Bomdy Government, No. XXIV, Bomby 1856, PP. 366-67. وسأرمز لهذا المصدر لاحقاً بـ: S. R.B.G.

(٤) أحمد محمود صبحي، المصدر السابق، ص١٣٨.

وتكم العتوب من إعادة السيطرة على الموقف، وإنهاء أي وجود عُماني في البحرين كما تؤكد ذلك المصادر البريطانية[١].

أدى التصعيد العُماني المستمر للسيطرة على البحرين إلى دخول الأسطول العُماني إليها دون قتال سنة ١٨٠٢م، واضطر حاكمها الشيخ سلمان إلى الرضوخ للشروط العُمانية وهي: -

١ - أن يتخلى الشيخ سلمان عن حكم البحرين تماماً.

٢ - أن يعطي أخاه الشيخ محمد رهينة عند حاكم مسقط كوسيلة لضمان عدم قيام الشيخ سلمان بأي تحرك مضاد للوجود العُماني.

٣ - أن يحافظ الشيخ سلمان على أملاكه وأمواله كما هي[٢].

إلّا إن هذا الوضع لم يدم طويلاً، بسبب تعسف الحكام العُمانيين مع السكان، مما خلق ردود فعل لدى آل خليفة، فتدخل إمام عُمان مرة ثانية، وألغى الشروط السابقة، وفرض شروط جديدة أكثر إجحافاً من سابقتها[٣].

عين إمام عُمان ابنه سالماً والياً على البحرين، وكان هذا حدثاً صغيراً غير قادر على إدارة شؤون الجزيرة على وفق مشيئته، وبقى آل خليفة بقيادة شيخهم سلمان بن أحمد يتحينون الفرصة المناسبة لاستعادة سيطرتهم، فقاموا سنة ١٨٠٨م بثورة ضد سالم الذي كان مستقراً في أحد القلاع ومعه حامية صغيرة من الجنود، فوافق على التسليم على أن يغادر بسلام، وقد وقعت هذه الثورة بدعم سعودي بعد وفاة الرهينة البحرينية

---

(١) S.R.B.G., No.XXI, P.367.

(٢) أحمد محمود صبحي، المصدر السابق، ص٨٢.

(٣) عبد الحميد كاظم حمادي الشطري، المصدر السابق، ص٣٩.

في مسقط، إذ أمدهم السعوديين بجيش كبير بقيادة إبراهيم بن عفيصان، مما مكنهم في إقصاء العُمانيين من الجزيرة[١].

لم يهنأ آل خليفة بالتخلص من السيطرة المسقطية، فقد فوجئوا بتمسك السعوديين بجزيرتهم، وإعلان إبراهيم بن عصيفان والياً سعودياً على البحرين، وتمت لهم السيطرة المطلقة باستثناء بعض المناطق الداخلية، التي بقيت إدارتها لـ آل خليفة[٢]. ويبدو من سير الأحداث أن آل خليفة لم يدركوا بصورة جيدة الأطماع السعودية في البحرين، وإنهم كانوا غير صائبين في تقديراتهم عندما توجهوا بطلب العون من السعوديين ضد سلطان عُمان سعيد بن سلطان (١٨٠٦ - ١٨٥٦م).

دفعت تلك الظروف الشائكة التي مرت بها البحرين آل خليفة إلى الاجتماع، وقرروا إرسال الشيخ عبد الرحمن بن راشد إلى خصمهم سلطان عُمان للاستنجاد به لطرد السعوديين واستجاب السلطان لطلب المبعوث، وجرت الاستعدادات المطلوبة للهجوم، وتجمعت القوات المهاجمة المؤلفة من الأسطول العُماني وآل خليفة، وبعض القبائل المتحالفة معها، وتم طرد السعوديين سنة ١٨١١م[٣].

وفي أعقاب الانسحاب السعودي مرت البحرين بفترة من الهدوء النسبي، استمرت خمس سنوات (١٨١١ - ١٨١٦م)، إلّا أن المؤامرات كانت تحاك في الخفاء ضد البحرين من هذا الطرف أو ذاك، وكان أشدها

(١) أحمد محمود صبحي، المصدر السابق، ص٨٢، عبد الحميد كاظم حمادي الشطري، المصدر السابق، ص٣٩.

(٢) S.R.B.G., No.XXI, P.368.

(٣) عبد الحميد كاظم حمادي الشطري، المصدر السابق، ص٤١.

خطراً تلك التي كان يخطط لها سلطان عُمان، فقد كان يعد العدة للاتصال بالأطراف المحلية والإقليمية والأجنبية للسيطرة على البحرين، لا سيما بعد رفض آل خليفة بدفع الجزية له سنة ١٨١٥م[١]. فقد اتصل سعيد بن سلطان برحمة بن جابر[٢] الخصم العنيد للعتوب، الذي كان يحرص سلطان عُمان بين فترة وأخرى لاحتلال البحرين، وغالباً ما كان يعرض خدماته لهذا الغرض[٣].

ومن الغريب أن يقوم سلطان عُمان سنة ١٨١٦م بالاتصال بالسلطات الفارسية، ويقدم عرضاً بأن يدفع مبلغاً قدره عشرة آلاف تومان سنوياً، لقاء مساعدتهم له باحتلال البحرين، إلّا أن الأوضاع الداخلية في فارس، لم تسمح لها بتقديم المساعدة، فضلاً عن أن التطلعات العُمانية في البحرين تتعارض كلياً مع نوايا فارس في المنطقة[٤].

---

(١) عبد الحميد كاظم حمادي الشطري، المصدر السابق، ص٤٢.

(٢) الشيخ رحمة بن جابر العتبي، رئيس فرع الجلاهمة من قبيلة العتبة وحاكم منطقة خور حسان في قطر، وصفته المصادر البريطانية بقرصان الخليج، ووصفته أخرى بأسد الخليج، كان محارباً من الطراز الأول، انشق عن عشيرته، فأسس له ملكاً صغيراً في قطر، ثم قاتل أولاد عمه (آل خليفة) وبقي على عداء دائم مع حكام البحرين، وقد شهد عام ١٨٢٦م مصرعه على أثر إحدى الهجمات التي قام بها ضد البحرين. انظر:-

فالح حنظل، المفصل في تاريخ الإمارات العربية المتحدة، ج٢، لجنة التراث والتاريخ، دولة الإمارات العربية، أبو ظبي ١٩٨٣م، ص٤٥٥-٤٥٦.

(٣) جمال زكريا قاسم، دولة بو سعيد، ص١٧٦، عبد الحميد كاظم حمادي الشطري، المصدر السابق، ص٤٢.

(٤) جمال زكريا قاسم، دولة بو سعيد، ص١٧٥.

Faroughy tae Bahrain Island 1750-1951, a contribution to the study of power politics in the Arab Gulf, Newyork 1951, P.78.

أما بريطانيا فكانت سياستها حين ذاك تتلخص بالاستئثار بالمنطقة وحدها دون القوى الدولية والإقليمية الأخرى، والحيلولة دون ظهور قوة محلية كبيرة يمكن أن تفرض هيمنتها على الآخرين، لذلك عملت على بسط هيمنتها على شيوخ الخليج، مستخدمة في ذلك أسلوب المعاهدات[١]. ومعتمدة على قوتها البحرية والعسكرية الضاربة[٢]. لذلك لأنها في هذا الوقت وقفت ضد أي محاولة للاستيلاء على البحرين من قوى المنطقة أياً كانت[٣].

لم يجد السلطان سعيد بن سلطان سبيلاً للاستيلاء على البحرين، سوى الاعتماد على قوته الذاتية، وبالفعل قام السلطان بنفسه بقيادة الحملة على الجزيرة، ونزلت قواته في جزيرة (سترة)، إلّا أن هذه الحملة انتهت إلى فشل ذريع[٤]، بسبب الحصار الذي فرضه آل خليفة، وتكبدت القوات المهاجمة خسائر فادحة من القتلى بينهم الشقيق الأصغر للسلطان واحد أقاربه[٥]. وكان الفضل في انتصار آل خليفة يعود بالدرجة الأولى إلى الشيخ عبدالله بن أحمد، الذي أبلى بلاءاً حسناً في قيادة

---

(١) جمال زكريا قاسم، دولة بو سعيد، ص١٦٣.

(٢) George. N. Curzon, Persian an the Persian, Vol.11, 1966, P.458.

(٣) للتعرف على المحاولات البريطانية في تعزيز وجودها في البحرين في النصف الأول من القرن التاسع عشر يراجع: راشد توفيق أبو زيد ووداد خليفة النأبودة، تاريخ الخليج العربي منذ العصور الإسلامية حتى أواخر القرن التاسع عشر، مطبعة دبي ١٩٩٨م، ص٢٧٧ - ٢٩٢.

(٤) محمد الرميحي، قضايا التغيير السياسي والاجتماعي في البحرين (١٩٢٠ - ١٩٧٠م)، منشورات مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع، الكويت ١٩٧٦م، ص ١٩.

(٥) S.R.B.G., No.XXIV, P.371.

المقاومة البحرينية، فأصبح منذ ذلك الحين يشارك أخاه الشيخ سلمان بإدارة الحكم[١].

إن فشل السلطان بن سعيد في حملته على البحرين، كانت واحدة من الأسباب التي دفعتها للاتجاه إلى بريطانيا، فقد أرسل حاكم بومباي رسالة للسلطان سعيد، حملها إليه الكابتن تايلور (CAPT. TYLOR) يناشده فيها التعاون مع حكومة الهند ضد القواسم، وقد وجد المبعوث لدى اجتماعه بالسلطان سعيد في أواخر ١٨١٨م أنه على استعداد تام للتعاون مع القوات البريطانية، وتعهد بتقديم ما بإمكانه في هذا الموضوع[٢]. فكان انضمامه للحملة البريطانية على القواسم، محاولة جديدة لتحقيق أطماعه في البحرين، إلّا أن الحكومة البريطانية ظلت متمسكة بموقفها بعدم السماح لأية قوة عربية أو إقليمية للسيطرة على البحرين وأية منطقة في الخليج، لأن ذلك يعد خطراً على المصالح البريطانية في المنطقة[٣].

وعلى الرغم من الموقف البريطاني الحاسم في منطقة الخليج العربي، فقد استمر السيد سعيد في محاولاته للسيطرة على البحرين. ففي تشرين الثاني/ نوفمبر سنة ١٨٢٨م قام بهجوم على الجزيرة[٤] بعد

---

(١) عبد الحميد كاظم الشطري، المصدر السابق، ص٤٤، صادق عبد حسن واني، الدولة العُمانية نشأتها وازدهارها، ندوة الدراسات العُمانية، مج٢، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان ١٩٨٠م، ص٩٩.

(٢) صالح محمد العابد، دور القواسم في الخليج العربي (١٧٤٧-١٨٢٠م)، مطبعة العاني، بغداد ١٩٧٦م، ص٢٩٩.

(٣) جمال زكريا قاسم، دولة بو سعيد، ص١٧٧، عبد الحميد كاظم حمادي الشطري، المصدر السابق، ص٧٧.

(٤) رودلف سعيد روث، السيد سعيد بن سلطان (١٧٩١-١٨٥٦م) سيرته دوره في تاريخ عُمان أو زنجبار، الدار العربية للموسوعات، ط٢، بيروت ١٩٨٨، ص٨٧-٨٨.

أن جرت اتصالات سرية بين الشيخ طحنون بن شخبوط حاكم أبو ظبي والسلطان سعيد، بشأن التعاون العسكري المشترك لشن هجوم على البحرين وضمها لعُمان، وعلى الرغم من سرية تلك الاتصالات، إلّا أن الشائعات سرعان ما ظهرت في الأوساط الخليجية عن احتمال نشوب الحرب، ولكي يخفف السلطان سعيد من حدة الموقف المتوتر، أرسل بعض الهدايا إلى الشيخ عبدلله أمير البحرين، لكن الأخير أخذ بالاستعداد للحرب الدفاعية المقبلة، وكتب للمقيم السياسي الجديد في بو شهر ديفيد ويسلون DAVOD WILLSON يخبره بتطورات الأوضاع، وكان السيد سعيد قد أكمل تحشيد قواته، وتوجه إلى أبو ظبي أولاً، إذ التقت هناك مع الشيخ طحنون وقوات بني ياس، وفي تشرين الثاني/ نوفمبر، وصلت القوات المشتركة إلى المياه البحرينية، وباشرت بقصف مدينة (المحرق) وهاجمت مدينة (سترة)، وتمكن مقاتلوا بني ياس من النزول في منطقة اسمها (رأس الحفير) على الساحل الشرقي للمدينة. ونزل القسم الأكبر من القوات المهاجمة من الجيش العُماني، لكن الأمور لم تسر كما أراد السلطان سعيد، ذلك أن حاكم البحرين الشيخ عبدالله بن أحمد استطاع أن يستدرج قوة أبو ظبي بكاملها، وبعض القوات العُمانية، فباغتها بهجوم شديد، فقتل قائد الحملة حمد بن سلطان أخا سلطان عُمان، وخمسة من كبار القادة، فدبت الفوضى وانسحبت القوات المشتركة بشكل غير منظم فسقط منهم خمسمائة قتيل، وتمكنت المدفعية البحرينية من إغراق سفينتين عُمانيتين، وقرر السلطان بعد ذلك فرض حصار بحري على الجزيرة، إلّا أن ظهور وباء الكوليرا أدى إلى انسحاب القوات المشتركة[1].

---

(١) جون. ب. كيلي، بريطانيا والخليج (١٧٩٥-١٨٥٦م)، ترجمة محمد أمين عبدالله، ج١، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان، بلا، ص٣٧٠-٣٧١، فالح حنظل، المصدر السابق، ج٢، ص٤٥٩-٤٦٠.

شجع هذا الانتصار الشيخ عبدالله بن أحمد على ملاحقة الأسطول العُماني، ونقل الحرب إلى المياه المسقطية، وفي الوقت نفسه كان السيد سعيد يعد العدة لحملة أخرى على البحرين وعندما وصلت الأنباء إلى حكومة الهند، أصدرت أوامرها إلى ويلسون المقيم السياسي في بو شهر بالتدخل لإنهاء النزاع بالطرق السليمة، خشية تطوره وامتداده إلى الإمارات المجاورة(١). وبعد فشل تلك المحاولات قامت وساطة أخرى قام بها شيخ بو شهر، انتهت بتوقيع اتفاق بين الطرفين في سنة ١٨٢٩م وبعد ذلك أصبحت علاقة البحرين بعُمان علاقة ودية، كما أن انصراف السيد سعيد إلى تنمية ممتلكاته في شرق إفريقيا، ومواجهة الحركات الانفصالية(٢) أضعفت طموحاته في منطقة الخليج العربي(٣). وتعد هذه الحملة آخر تهديد عُماني مباشر تتعرض له البحرين، ومن جانبه وإن اعترف سعيد بن سلطان باستقلال البحرين، لكنه يخطط في الخفاء، ويؤلب الأعداء ضد آل خليفة(٤). فلم يلبث في عام ١٨٣٩م أن لمحت إمامه بادرة جديدة، عندما قام القائد المصري خورشيد باشا بالسيطرة على الإحساء والقطيف، ومحاولته السيطرة على البحرين، إذ بعثت هذه المحاولة أماله في البحرين، بالتعاون مع الحليف الجديد، وجرت بالفعل

(١) عبد الحميد كاظم حمادي الشطري، المصدر السابق، ص٧٨-٧٩.

(٢) للاطلاع على المحاولات الانفصالية والتهديدات البريطانية للممتلكات العُمانية في شرق إفريقيا يراجع:-

- غانم محمد رميض العجيلي، أثر السياسة البريطانية في الدور العربي في شرق إفريقيا (١٨٠٦-١٨٦٢م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد الدراسات القومية والاشتراكية، الجامعة المستنصرية ١٩٩٢م، ص٥٢-٩٢.

(٣) محمد الرميحي، المصدر السابق، ص١٩.

(٤) عباس حسين مجيسر، المصدر السابق، ص٢٦.

اتصالات بين السلطان سعيد وخورشيد باشا لترتيب الأوضاع حول البحرين[١]، ويشير لوريمر إلى أن تلك الاتصالات كانت تفزع الشيخ عبدالله بن أحمد، إذ رافقتها شائعات عن احتمال قيام اتفاق بين وكيل محمد علي في الجزيرة العربية وسلطان عُمان، لكي يقوم الأخير بالاستيلاء على البحرين، وحكمها نيابة عن محمد علي[٢]. إلّا أن تلك الاتصالات لم تثمر بشيء من الناحية العلمية، إذ تخلى سعيد عن مشروعه هذا، بعد أن أدرك أن اتصاله بمحمد علي باشا يتعارض بصورة صريحة، وصداقته مع بريطانيا[٣]، ولم يكن السيد سعيد بالطبع مستعداً للتفريط بعلاقته مع بريطانيا، في سبيل صداقته لمحمد علي.

وعند قيام السلطات البريطانية في لندن بالاتصال بالسيد سعيد للتعاون معها في قمع تجارة الرقيق سنة ١٨٤٢م، انتهز السلطان هذه المناسبة، فأرسل إلى وزارة الخارجية البريطانية، طالباً منها تعويضه عن الخسارة التي يتعرض لها من جراء ذلك، وإعطائه جزر البحرين كتعويض مناسب، إلّا أن طلبه رفض من حكومة الهند، لأن ذلك سيؤدي إلى تهديد أمن وسلامة الملاحة في الخليج العربي من وجهة النظر البريطانية[٤].

وعند قيام الحرب الأهلية في البحرين سنة ١٨٤٣م، وتأزم الموقف بعد إقصاء الشيخ عبدالله بن أحمد عن الحكم، اتصل الشيخ عيسى بن طريف زعيم آل بني علي بثويني في مسقط، لحثه على الاستفادة من هذا

---

(١) جمال زكريا قاسم، دولة بو سعيد، ص١٧٨.

(٢) ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج١، مطبعة جديدة.معدلة ومنقحة أعدها قسم الترجمة بمكتب صاحب السمو أمير دولة قطر، ص١٢٩٥.

(٣) جمال زكريا قاسم، دولة بو سعيد، ص١٧٨.

(٤) سمير محمد علي أبو ياسين، المصدر السابق، ص١٤٤.

الوضع، وتطوع أن يساعده في هجومه على البحرين[١]. فرفع ثويني الأمر إلى حكومة الهند لأخذ رأيها في الموضوع، لكن حكومة الهند لم توافق على تلك الحملة خوفاً من تعقيد الموقف في المنطقة، واحتمالات تدخل السعوديين والفرس، وأبلغته بأنها ستقف على الحياد التام، وبذلك أهمل المشروع[٢].

أن عُمان نفسها مرت بأزمات داخلية حادة، وصراعات حول الزعامة فضلاً عن الصراعات الإقليمية من جانب السعوديين والفرس بوجه خاص، فضلاً عن ذلك نجاح شيوخ آل خليفة في تفادي الأخطار العُمانية المتواصلة. ولا يمكن إطلاقاً إغفال الدور البريطاني في تحديد طموحات الأئمة والسلاطين العُمانيين المتعاقبين في التوسع على حساب البحرين أو غيرها من إمارات الخليج العربي.

● الخاتمة ••••••••••••••••••••••••••••••

تعرضت البحرين إلى محاولات عديدة للسيطرة عليها من القوى الإقليمية في المنطقة، وكانت عُمان واحدة من أكثر دول المنطقة التي تطلعت للسيطرة على البحرين لاعتبارات معروفة.

شهدت فترة دولة اليعاربة في عُمان (١٦٢٤-١٧٤٩م) حملات بحرية متكررة على البحرين، وتزايد اهتمام العُمانيين في البحرين في زمن دولة البو سعيد منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر حتى أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر، لكن تلك الحملات والاهتمامات العُمانية لم تحقق أهدافها. ذلك أن شيوخ آل خليفة قاموا تلك المحاولات،

(١) لوريمر، المصدر السابق، ج١، ص٥١٧.

(٢) سمير محمد علي أبو ياسين، المصدر السابق، ص١٤٤-١٤٥.

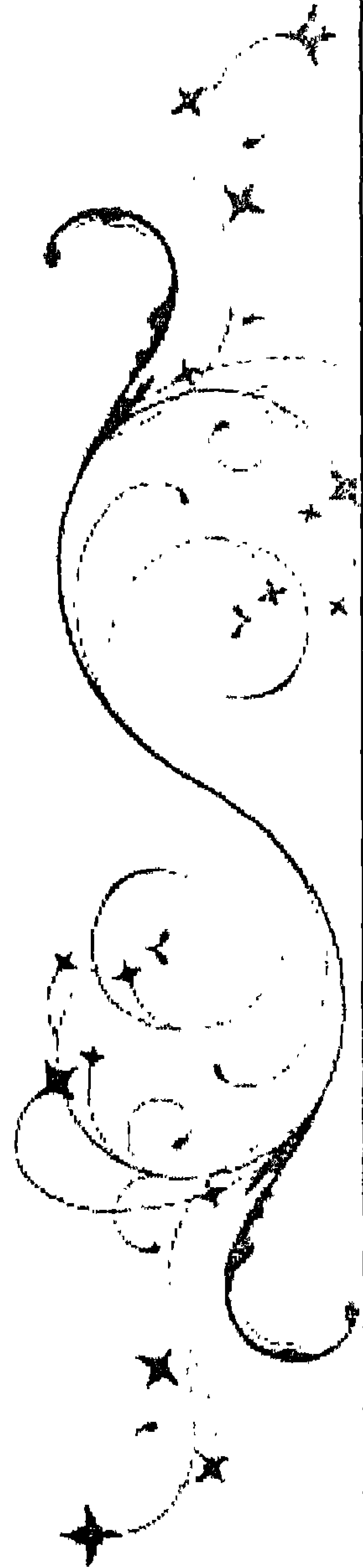
ونجحوا في كثير من الأحيان في تفادي الخطر العُماني الذي يهدد بلادهم بين حين وآخر. كما أن تشابك الأحداث في المنطقة، وانتقال الولايات من هذا الطرف أو ذاك إلى هذه الجهة أو تلك. وأطماع القوى الإقليمية الأخرى كفارس والدولة العثمانية في البحرين حالت دون نجاح عُمان في ضم البحرين وأكن الدور الأكبر في فشل التطلعات العُمانية في البحرين هو الأسلوب الذي تعاملت به بريطانيا مع أحداث المنطقة الذي كان أبرز ملامحه عدم سماح بريطانيا لزية قوة إقليمية في المنطقة بأن تتوسع وتنمو، لأن مثل هذا الأمر يهدد المصالح البريطانية في المنطقة لذلك ليس من الغريب أن نلاحظ أنها تنفرد بالسيطرة على المنطقة سيطرة مطلقة من خلال كبح جماح أية تطلعات إقليمية، وأتباعها سياسة عقد الاتفاقيات مع شيوخ وأمراء وحكام المنطقة، تحد تحركاتهم على نحو يخدم المصالح البريطانية في منطقة الخليج العربي.

الفصل الخامس

حكم سلالة آل ثاني في قطر

(١٨٦٨ - ١٩١٣م)

عهد الشيخ محمد بن ثاني وولده الشيخ قاسم



مقدمة
الفصل الخامس

يعني هذا البحث بدراسة الأوضاع والتطورات السياسية التي شهدتها إمارة قطر والدور الذي أدته أسرة آل ثاني في نشأتها، والتحديات الكبيرة التي واجهتها منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والتنافس الأجنبي الذي شهدته البلاد متمثلاً بالدولة العثمانية من جهة وبريطانيا من جهة أخرى، فضلاً عن الصراعات المحلية المتمثلة بالصراع البحريني - القطري الذي تتوج باستقلال قطر.

يعود اختيار عام ١٨٦٨م بداية لهذا البحث إلى أنه يعد الانطلاقة الحقيقية لنشأة إمارة قطر وعلامة فارقة في تاريخها الحديث بعد توقيعها الاتفاقية مع الحكومة البريطانية، حيث تم التعامل مع حكامها من أسرة آل ثاني كأمراء لإمارة مستقلة، وهو بمثابة الإعلان الرسمي للاستقلال. وتوقف البحث عند عام ١٩١٣م، وذلك لدخول قطر تحت الحماية البريطانية.

تألف البحث من مباحث عدة هي:

- الأوضاع السياسية في شبه جزيرة قطر حتى عام ١٨٦٨م وتتبعنا فيه التطورات السياسية في قطر في حقبة السيطرة البحرينية على قطر

حيث كان آل خليفة حكام البحرين يديرون شؤون البحرين من معقلهم في الزبارة المدينة القطرية التي تقع قبالة الساحل البحريني، وانتقال آل خليفة من الجزيرة العربية إليها ومساهمة القبائل القطرية مع آل خليفة في معارك فتح البحرين عام ١٧٨٣م.

- وفي المبحث الثاني تطرق البحث إلى الصراع الدامي بين شيوخ البحرين من جهة وبين القبائل القطرية من جهة أخرى حيث تعرضت المدن الساحلية القطرية إلى التدمير غير مرة من حكام البحرين وحلفائهم وكثيراً ما كانت القبائل القطرية تدخل في النزاعات الأسرية في البيت الخليفي فتميل إلى هذا الطرف دون ذاك على وفق ما يحقق لها قدراً من المكاسب.

- واهتم البحث بدراسة الموقف الذي وقفه الشيخ محمد بن ثاني بتحشيد القبائل القطرية لتحقيق الاستقلال عن شيوخ آل خليفة والمكانة التي حظي بها من القبائل القطرية وقبولها لأن يكون زعيماً ومنقذاً لها في معاركها مع أعدائها، وتحقيق الاستقلال عام ١٨٦٨م.

- كما تناول البحث عهد الشيخ قاسم بن محمد بن ثاني الذي اضطلع بالدور الأكبر قبل توليه المشيخة عام ١٨٧٦م وكان في عهد والده الشيخ محمد يخوض المعارك ويتخذ المواقف التي تمليها عليه مصالح البلاد، خصوصاً وأنه كان يدير الأمور بسبب أن والده كان طاعناً في السن. كما واجه الشيخ قاسم أحداثاً جساماً وتحديات كبيرة، حيث تزامن حكمه مع حقبة التدخل العثماني المباشر في شؤون المنطقة ووصول طلائع الحملة العثمانية للإحساء إلى قطر. إضافة إلى تعاظم النفوذ البريطاني في منطقة الخليج العربي واحتدام التنافس بين بريطانيا والدولة العثمانية لتكريس نفوذها في المنطقة

وكان من الطبيعي أن تكون قطر نظراً لأهميتها الإستراتيجية ميداناً لهذا التنافس، وكثيراً ما كانت كل من هاتين القوتين تثير المشاكل وتفتعل الذرائع للتدخل المباشر في شؤون البلاد، وحاول الشيخ قاسم بإمكاناته المتواضعة ترصين وحدة البلاد واستقلالها، ومنع التدخلات العثمانية البريطانية في الشؤون الداخلية، إلّا أنه يجد نفسه مضطراً لأن يميل إلى هذا الطرف دون ذاك واتسمت سياسته بالتردد بعض الأوقات، وأخيراً دخلت قطر في فلك السياسة البريطانية وأصبحت تحت حماية الحكومة البريطانية بعد الاتفاقية البريطانية العثمانية لعام ١٩١٣م، ونهاية الوجود العثماني في قطر.

أتمنى أن يكون هذا البحث مساهمة إيجابية للكشف عن الدور الذي أدته الأسر والسلالات العربية في تشكيل الكيانات السياسية، وهو ما قامت به سلالة آل ثاني في قطر. والله من وراء القصد.

الأوضاع الداخلية في شبه جزيرة قطر
حتى عام ١٨٦٨م

● صراع القبائل القطرية مع شيوخ البحرين: ●●●●●●●●●

يرتبط تاريخ نشأة إمارة قطر، ارتباطاً وثيقاً بتاريخ آل خليفة، حكام البحرين الذين بدأوا حكمهم في الزبارة في شبه جزيرة قطر[١] قبل أن يؤسسوا إمارتهم في البحرين. إلّا أن ذلك لا يعني أن القبائل القطرية كانت تابعة لهم بشكل مطلق، ولم تكن تمارس نوعاً من الحكم الخاص بها في شبه جزيرة قطر[٢].

تختلف البحرين عن قطر، بتعدد العناصر البشرية الوافدة إليها في

---

(١) بعد وصول آل خليفة إلى شبه جزيرة قطر، لم يتمكنوا من الاستيلاء سوى على ميناء الزبارة، بسبب وجود مجموعات قبلية متعددة فيها، لذلك حرصوا على تحصين الميناء، لحماية أنفسهم من خطر القبائل القطرية. انظر: راشد توفيق أبو زيد ووداد خليفة النأبودة، تاريخ الخليج العربي منذ العصور الإسلامية حتى أواخر القرن التاسع عشر، مطبعة دبي، دبي ١٩٩٨م، ص٢٧٧.

(٢) جمال زكريا قاسم، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، إمارات الخليج العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول (١٥٠٧-١٨٤٠م)، مج١، دار الفكر العربي، القاهرة ٢٠٠١م، ص٣٦٠ - ٣٦١.

الحقب التاريخية المختلفة، بسبب الظروف الاقتصادية والسياسية، وموقعها الجغرافي الجاذب، ولا سيما العناصر التي ترجع إلى أصول فارسية. إلّا أن سكان البحرين الأصليين - الذين يشكلون الأغلبية العظمى ينتمون إلى قبائل شبه الجزيرة العربية مثل: العتوب والدواسر وآل النعيم وغيرهم، ومن تجمع العتوب برزت سلالة آل خليفة[١] لتصل إلى رأس السلطة في البحرين في النصف الثاني من القرن الثامن عشر[٢].

وابتداءاً من عام ١٧٨٣م وهو تاريخ حكم سلالة آل خليفة في البحرين حتى عام ١٨٢٦م أصبحت بعض القبائل القطرية قوة يعتد بها في شبه جزيرة قطر، وعدت أن ما حصلت عليه من آل خليفة، لا ينسجم والتضحيات الكبيرة التي قدمتها لهم في السيطرة على مقاليد السلطة في معارك فتح البحرين عام ١٧٨٣م[٣]، مما خلق نوعاً من التنافر بينها وبين شيخ البحرين وذلك ينطبق على الجلاهمة الذين تعرضوا إلى الضغوط البحرينية التي أجبرتهم على مغادرة الزبارة بسبب الخلاف الذي نشأ بينهم وبين آل خليفة، فحشد آل خليفة كل الموارد واستعانوا بالمرتزقة للتخلص منهم نهائياً، مما دفعهم إلى طلب الحماية السعودية، واستطاع السعوديون بالحملات المتتالية التي شنوها على قطر

(١) يرجع تاريخ ارتباط آل خليفة بقطر إلى الهجرة الكبيرة التي قام بها العتوب من أواسط شبه الجزيرة العربية ومروا خلالها بقطر التي كانت تخضع لسلطة آل مسلم، وواصلوا مسيرتهم إلى الكويت، وتعاونت القوى القبلية الثلاث (آل صباح - آل خليفة - والجلاهمة) في تأسيس مدينة الكويت. انظر: عبد العزيز محمد المنصور، التطور السياسي لقطر (١٨٦٨-١٩٢٦م)، ط١، المطبعة العصرية، الكويت ١٩٧٤م، ص٢٤.

(٢) أحمد محمود صبحي، البحرين ودعوى إيران، الإسكندرية ١٩٦٢م، ص١١.

(٣) عبد العزيز محمد المنصور، المصدر السابق، ص٣٦.

إخضاع معظم مناطقها، وقد أشارت سجلات بومباي بوضوح إلى أن آل سعود قاموا عام ١٨١٠م بتوحيد البحرين وقطر والقطيف، وكلفوا عبدالله بن عفيصان لإدارتها نيابة عن الأمير السعودي سعود بن عبد العزيز (١٨٠٣-١٨١٤م)(١). ونتيجة لتقدم القوات المصرية، وانحسار النفوذ السعودي، بدأ يظهر نفوذ القبائل المحلية في شبه جزيرة قطر بشكل واضح، ونتيجة للتقارب المصري مع شيوخ البحرين عام ١٨٣٩م تعرضت القبائل القطرية لمحاولات الابتزاز، وصلت لدرجة أن بعضها فكر جدياً في الانتقال من شبه جزيرة قطر إلى مناطق أخرى بعيداً عن سطوة شيخ البحرين، وكثيراً ما كانت تلك القبائل تعلن تمردها بين الحين والآخر على سلطة آل خليفة(٢)، مما حول قطر إلى ساحة للحروب الأهلية التي نشبت بين شيوخ البحرين المتنازعين على السلطة فيما بينهم من جهة وبينهم وبين القبائل القطرية من جهة أخرى(٣) وقد جاءت وجهة نظر لوريمر متطابقة مع هذا الواقع عندما ذكر: «**إن سلطة شيخ البحرين على القبائل القطرية كانت قائمة، إلّا أن هذا لا يعني بأن سلطته لم تجد من ينازعها**»(٤) وذلك يعني أن القبائل القطرية كانت في كثير من الأحيان طرفاً في النزاعات الأسرية التي قامت بين الأسرة الحاكمة في البحرين، فالنجاح الذي حققه الشيخ محمد بن خليفة (١٨٤٣-١٨٦٧م) في هزيمة عمه الشيخ عبدالله بن خليفة (١٧٩٦-

(١) Selection from records of the Bombay Government, new series NO.XXIV (Bombay 1856) P.368.

(٢) ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج٣، ترجمة قسم الترجمة بمكتب صاحب السمو أمير دولة قطر، الدوحة، بلا، ص١٣٤٠.

(٣) جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، مج١، ص٣٧٦-٣٧٧.

(٤) ج. ج. لوريمر، القسم التاريخي، ج٣، ص١٢٠٦.

١٨٤٣م)، وإجباره بالجلاء عن البحرين كان بفعل مساعدات القبائل القطرية[١]، فضلاً عن الدور السعودي الذي تمثل في مساندة فيصل بن تركي[٢]. لكن الأوضاع لم تتحسن في عهد الشيخ محمد بن خليفة، بل على العكس من ذلك كان: «**يجمع في نفسه أسوأ صفات الطغيان والجشع غير المحدود للثروة والمزاج المتقلب الذي لا يمكن التحكم فيه، والجهل وفقدان الصبر**» على حد ما ذكره لوريمر[٣] لذلك فمن الطبيعي أن تقف القبائل القطرية إلى جانب الشيخ عيسى بن طريف الذي كان عاملاً على قطر في صراعه مع شيخ البحرين محمد بن خليفة، والتي هزمت فيها القبائل القطرية، وقتل فيها الشيخ عيسى أثر الهجوم البحريني على الدوحة، وقد سميت تلك المعركة بواقعة (أم سوية) أو خراب الدوحة الأول، لأن بلدة الدوحة وهي مقر الشيخ عيسى بن طريف كانت قد خربت في أعقاب الهجوم البحريني[٤].

---

(١) عبد العزيز محمد المنصور، المصدر السابق، ص٣٨.

(٢) إبراهيم خلف العبيدي، الحركة الوطنية في البحرين (١٩١٤-١٩٧١م)، بغداد ١٩٧٦م، ص٣٦. وتنقسم فترة حكم فيصل بن تركي إلى ثلاثة أقسام، الأول: وهو يساعد والده في الحكم. والثاني: وهي فترة حكمه الأولى (١٩٣٤ - ١٩٣٨م) والثالث: وهي فترة حكمه الثانية (١٨٤٣ - ١٨٦٥م)، وهي المدة التي شهدت فيها البلاد استقراراً سياسياً، ورخاءاً اقتصادياً، ولهذه الأسباب استحق فيصل لقب المؤسس الأول والحقيقي للدولة السعودية الثانية. انظر: عبد الفتاح حسن أبو علية، تاريخ الدولة السعودية الثانية (١٨٤٠ - ١٨٩١م)، ط٤، دار المريخ، الرياض ١٩٩١م، ص٤١.

(٣) دليل الخليج، القسم التاريخي، ج٣، ص١٣٤٠.

(٤) مؤيد عاصي سلمان، العلاقات القطرية البريطانية (١٨٦٨-١٩١٦م) دراسة تاريخية في العلاقات السياسية، رسالة ماجستير غير منشورة، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة ١٩٨٩م، ص١٨.

لم تضع هذه المعركة حداً للنزاعات بين شيخ البحرين والقبائل القطرية، بل عمقت الصراع بينهما، وانضوت القبائل القطرية إلى جانب أبناء الشيخ عبدالله آل خليفة المعارضين لحكم شيخ البحرين محمد بن خليفة، ولا سيما بعد طلب المعونة التي تقدم به أبناء الشيخ عبدالله إلى الأمير السعودي فيصل بن تركي[١].

انتهز الأمير فيصل تلك الفرصة، ليدعي أحقيته في التدخل لإنهاء الاضطرابات في المنطقة[٢]، لا سيما إن استعادة البحرين كما كانت في عهد أجداده - أصبح هدفاً رئيساً له، أو على أقل تقدير استعادة الضريبة التي تدفعها البحرين وتوابعها على ساحل قطر في عهد أبيه تركي[٣]، فأمدهم بقوة كبيرة قادها بنفسه إلى قطر، وانضمت القبائل القطرية إليهم، ووقعت الاشتباكات في مكان يسمى (المسيمير) عام ١٨٥٠م، واستطاعت القوة السعودية إخضاع قطر في السنة التالية[٤].

عقد قائد القوة السعودية المهاجمة أحمد السديري مع الشيخ محمد بن ثاني - الذي تزعم حركة المعارضة صلحاً منفرداً، والانفصال عن البحرين، وأصبح الشيخ محمد بن ثاني منذ ذلك الحين وكيلاً للأمير

(١) عبد الحميد كاظم حمادي الشكري، البحرين دراسة سياسية (١٨٢٠-١٨٨٠م)، رسالة ماجستير غير منشوره، مركز دراسات الخليج، جامعة البصرة ١٩٩٠م، ص٦٦.

(٢) Saldanha J.A., Precis of Bahrain Affairs (1854-1904), Simla, Government Central Press, 1904, p. 2.

(٣) عصام عبد الغفور عبد الرزاق النعيمي، العلاقات السياسية القطرية - البحرينية (١٨٦٨-١٩٤٥م)، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا، إتحاد المؤرخين العرب، بغداد ٢٠٠٢م، ص٤٦.

(٤) عبد العزيز محمد المنصور، المصدر السابق، ص٣٩-٤٠.

السعودي، ويقوم بجمع الضرائب من رؤساء القبائل ويبعثها إلى نجد، مقابل حمايتهم من الهجمات الخارجية البحرينية. وبعد أن رفض شيخ البحرين دفع الضريبة المقررة عليه للسعوديين، قرر الأمير فيصل بالتنسيق مع الشيخ محمد بن ثاني، والقبائل القطرية الأخرى وأبناء الشيخ عبدالله آل خليفة، بالهجوم على البحرين، إلّا أن شيخ البحرين بعد أن وصلته أنباء الاستعدادات السعودية القطرية، أراد أن تكون قطر نفسها ميداناً للمعركة الفاصلة بدل البحرين، فبعث بجيش كبير العدد بقيادة أخيه الشيخ علي، ودارت معركة أطلق عليها (نهاية معركة المسيمير) هزمت فيها القوات السعودية القطرية المشتركة[١].

أيقن شيخ البحرين محمد بن خليفة بأن آل ثاني (محمد بن ثاني وولده قاسم) يمثلون قيادة حركة المعارضة في قطر، وينسقون المواقف مع الأمير السعودي وأبناء الشيخ عبدالله آل خليفة والقوى القبلية القطرية الأخرى، فقرر قمع هذه الحركة في عقر دارها، فأرسل قوة كبيرة بالتعاون مع شيخ أبو ظبي سعيد بن طحنون (١٨٤٥-١٨٥٥م)، وفرضت حصاراً صارماً على الدوحة معقل آل ثاني في قطر[٢]، وبعد وقت قصير تدخل حاكم أبو ظبي بين الجانبين السعودي والبحريني وأقنعهم بضرورة تفادي سفك الدماء، وعقد صلحاً بينهما، تعهد بموجبه شيخ البحرين على دفع أربعة آلاف ريال فرنسي سنوياً للسعوديين مقابل إعادة شبه جزيرة قطر لسلطة آل خليفة في البحرين[٣]. في حين أشارت سجلات بومباي إلى

---

(١) عبد الحميد كاظم حمادي الشكري، المصدر السابق، ص٦٧؛ عبد العزيز محمد المنصور، المصدر السابق، ص٤٠.

(٢) Selection from the records, Op., Cit, P.424.

(٣) Saldanha J.A., Op., Cit., P.5.

أن مساعد المقيم البريطاني في بوشهر الكابتن كامبل Kampool هو الذي تدخل لنزع فتيل تلك الحرب[١].

• الشيخ محمد بن ثاني والنزعة الاستقلالية في قطر: •••••

ظهرت أسرة آل ثاني في شبه جزيرة قطر أوائل القرن الثامن عشر، وهي فرع من قبيلة الوهبة التي يرجع إليها معضاد بن زاخر، وهي بطن من بطون قبيلة تميم أشهر قبائل مضر بن نزار، وارتحلوا من بلدة أشيقر في منطقة الوشم شرقي نجد، وأقاموا في واحة يبرين في الجنوب الشرقي من قطر، ثم انتقلوا إلى السكك جنوب قطر، وغادروها إلى الرويس ومنها إلى فويرط والزبارة واستقر بهم المقام في الدوحة منتصف القرن التاسع عشر[٢].

كتسبت سلالة آل ثاني اسمها نسبة إلى جدها الشيخ ثاني بن ثامر بن علي أحد تجار اللؤلؤ المشهورين في قطر، وبعد وفاته ترأس الأسرة ابنه الشيخ محمد بن ثاني الذي انتقل إلى الدوحة واتخذها مقراً له، ولذلك عرف لدى المؤرخين بشيخ الدوحة. ويبدو أن غنى هذه الأسرة، زيادة على قوة شخصية الشيخ محمد بن ثاني كانا سببين كافيين لأن يحتل المكانة المرموقة التي حظي بها، ودفعت القبائل القطرية إلى الالتفاف حوله وإعلانه زعيما لها[٣]، وليس أدل على ذلك من: قيام قائد القوة السعودية التي أخضعت قطر عام ١٨٥١م بعقد صلح منفرد مع الشيخ محمد بن ثاني دون غيره من رؤساء القبائل القطرية.

---

(١) Selection from records, Op., Cit, P.424.

(٢) أحمد العناني، الشيخ قاسم بن محمد ثاني ومشكلات الزعامة المحلية في الخليج العربي خلال القرن التاسع عشر، مجلة الخليج العربي، العدد ٢، مج١٣، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة ١٩٨١م، ص١٨٦-١٨٧.

(٣) مؤيد عاصي سلمان، المصدر السابق، ص٢٠.

شهدت المنطقة بعد ذلك حالة من الهدوء النسبي، إلّا أنها لم تستمر طويلاً، ففي عام ١٨٦٣م، ونتيجة للطريقة التعسفية التي تعامل بها محمد بن أحمد آل خليفة، المعين من شيخ البحرين والياً على قطر، والذي حاول التقرب من القطريين بزواجه من ابنة زعيمهم الشيخ محمد بن ثاني، إلّا أنه تعامل بطريقة مهينة مع القطريين باستثناء زعمائهم (آل ثاني) فخلق ذلك نفوراً منه من جميع القبائل القطرية[1]. وأصبح الوضع أكثر تعقيداً من ذي قبل، بعدما تجاوز الوالي البحريني على قبيلة النعيم، واعتقل شيخهم علي بن ثامر عام ١٨٦٦م[2].

(١) عبد العزيز محمد المنصور، المصدر السابق، ص٤١.

(٢) جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، مج٢، ص١٩٣؛ عبد العزيز محمد المنصور، المصدر السابق، ص٤١؛عصام عبد الغفور عبد الرزاق النعيمي، المصدر السابق، ص٥٣.

دفعت هذه التصرفات الطائشة القبائل القطرية إلى التحرك السريع، فلجأت إلى الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني في الدوحة لوقف التجاوزات التي لحقت بهم من الوالي الخليفي، ولم يتردد الشيخ قاسم في تحشيد القبائل القطرية، والسير بهم إلى الوكرة وحاصر قلعتها، إلّا أن الوالي أحمد بن محمد تسلل ليلاً وهرب إلى البحرين، وتم إطلاق سراح شيخ النعيم علي بن ثامر[١].

كان من الطبيعي أن تعمق هذه الحادثة العداء بين شيخ البحرين من جهة وبين آل ثاني والقبائل القطرية من جهة أخرى، ففي الجانب القطري رأت القبائل القطرية في شخصية الشيخ قاسم بن ثاني زعيماً ومنقذاً لها للخلاص من التبعية البحرينية، وأخذت تبذل جهوداً حثيثة بهذا الاتجاه. وتعبيراً عن إرادة القطريين بعث الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني رسالة إلى شيخ البحرين شرح فيها التصرفات السيئة التي صدرت من الوالي البحريني في قطر، وعدم كفائته في إدارة شؤون البلاد، ولم يكتف بهذا الحد، بل ضمنها مطالب أخرى هي: منح قطر الاستقلال الإداري، وعدم التدخل مستقبلاً في شؤونها الداخلية، وفي حالة رفض تلك المطالب هدد الشيخ قاسم في رسالته بأن القطريين سيعلنون الاستقلال، ويطلبون الحماية السعودية لتحقيق هذا الهدف[٢]، لا سيما وأن العلاقات السعودية مع شيوخ قطر للمدة (١٨٥٢-١٨٦٦م) كانت ودية حسب ما ذكره بيللي Pelly المقيم البريطاني في الخليج العربي[٣].

---

(١) Saldanha J.A., Op., Cit., P.13.

(٢) عصام عبد الغفور عبد الرزاق النعيمي، المصدر السابق، ص٥٣-٥٤. في حين يشير جمال زكريا قاسم إلى أن الشيخ محمد بن ثاني هو الذي بعث الرسالة المذكورة لشيخ البحرين. انظر: تاريخ الخليج العربي، المصدر السابق، مج٢، ص١٩٣.

(٣) ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج٣، ص١٢١٤.

بالطبع لم يوافق شيخ البحرين عما تضمنته الرسالة، إلّا أنه فضل أسلوب المناورة مع الشيخ قاسم، فطلب منه زيارة البحرين لمناقشة التطورات الأخيرة، وإيجاد الحلول اللازمة لها، وتوطيد العلاقات الأخوية بينهما، وما أن وطأت قدما الشيخ قاسم أرض البحرين، حتى أودع في السجن(١).

خلق اعتقال الشيخ قاسم حالة من الهياج الشعبي لدى القبائل القطرية، وعدته فعلاً منافياً للقيم والأعراف العربية الأصيلة، وأجمعت على مهاجمة البحرين لتخليص زعيمها الأسير. فأقلعت سفنها إلى البحرين، وما إن اقتربت من الساحل حتى تصدت لها القوات البحرينية المتأهبة، في منطقة تسمى (دامسة) وأوقعت بها هزيمة كبيرة(٢). وفي تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٦٧م تحالف شيخ البحرين محمد بن خليفة، وحاكم أبو ظبي الشيخ زايد بن خليفة (١٨٥٥-١٩٠٨م)، وقاما بهجوم مشترك على الدوحة(٣)، بعدما خدعوا الشيخ محمد بن ثاني(٤) الذي كان على أهبة الاستعداد للقتال. ودخلت القوات المشتركة للدوحة، وما أن وصلت سوق المدينة حتى بدأ السلب والنهب، الأمر الذي ألحق أضراراً جسيمة بمدينة الدوحة، وكذلك مدينة الوكرة(٥)، ويذكر لوريمر:

---

(١) Saldanha. J.A., Op., Cit., P.14.

(٢) محمود بهجت سنان، تاريخ قطر العام، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٦٦م، ص٧٥.

(٣) عباس حسين مجيسر، التطورات السياسية في البحرين (١٨٦٩-١٩٢٣م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد ١٩٩١م، ص٣٦.

(٤) أخبر المهاجمون الشيخ محمد بن ثاني أن مجيئهم لم يكن إلّا نتيجة القسم الذي قطعه الشيخ محمد بن خليفة على نفسه، بأن تطأ قدماه أرض الدوحة، أثر إخراج عامله على قطر، وأعطوه الأمان فتفرقت قوات آل ثاني، ودخلت القوات البحرينية دون مقاومة. انظر: مؤيد عاصي سلمان، المصدر السابق، ص٢٢.

(٥) المصدر نفسه، ص٢٢.

أن هاتين المدينتين قد أزيلتا من الوجود[١]. وقد عرفت في كتب التاريخ المحلي القطري باسم «**خراب الدوحة الثاني**»[٢].

لم تتعرض المنطقة منذ عقد اتفاقية الهدنة لعام ١٨٣٥م إلى انتهاك صارخ، كالكارثة التي حلت بالمدن القطرية، وبمجرد أن علم بيللي المقيم البريطاني في الخليج بذلك الاعتداء حتى بادر بإرسال خطابات إلى كل من محمد بن خليفة شيخ البحرين وزايد بن خليفة حاكم أبو ظبي، وطالبهما بتفسير واضح عن الاعتداء الذي قاموا به على قطر، واكتفى بيللي بهذا الإجراء بسبب عدم وجود أية سفينة حربية تحت تصرفه، وعندما عرض الموضوع على حكومة بومباي، أوعزت إليه بتحذير الشيخ زايد بن خليفة وتحميله مسؤولية خرق الهدنة. وأصبح بيللي في موقف حرج، فقد راقبت قبائل المنطقة على طول الساحل الأوضاع، وحاولت التعرف على الإجراءات البريطانية حول الموضوع. فإذا لم تتخذ الحكومة البريطانية إجراءات رادعة فإن ذلك يعني أن نظام الهدنة قد فقد مفعوله. كما كان الشيخان يتخذان مواقف تتسم بالتحدي من المقيم البريطاني بيللي. فقد رد الشيخ زايد على رسالة بيللي، وكان الرد يتسم بالفظاظة وحاول التنصل من المسؤولية، في حين تنصل الشيخ محمد بن خليفة من أية مسؤولية، بل ذكر في رده أنه تصرف في إطار حقوقه المشروعة في معاملة رعاياه الذين تمردوا عليه في شبه جزيرة قطر. وفي تموز/ يوليو ١٨٦٨م فوضت حكومة الهند بيللي بتوجيه تهمة انتهاك اتفاقية ١٨٦١م[٣] إلى الشيخين،

---

(١) ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج٣، ص١٢١٥.

(٢) عبد العزيز محمد المنصور، المصدر السابق، ص٤٢.

(٣) وقعت هذه الاتفاقية في ٢١ أيار/ مايس ١٨٦١م بين فيلكس جونز F. Jones المقيم السياسي في الخليج وبين شيخ البحرين وثلاثة شهود من أبناء عم شيخ البحرين، =

ومطالبتهما بإيضاحات معقوله. وتم إرسال التحذير مشفوعاً بتهديد الحكومة البريطانية باستخدام القوة إذا لم يرد الشيخان رداً مقنعاً، غير أن هذا التحذير لم يأت بنتيجة[١].

وبعد أن يئس القطريون من قيام المقيم البريطاني بإجراءات رادعة ضد حاكم البحرين، أخذوا يستجمعون إمكاناتهم، ويحشدون قواهم لشن حملة انتقامية على البحرين، وإطلاق سراح شيخهم قاسم بن محمد بن ثاني فهيأ الشيخ محمد بن ثاني سفناً كثيرة عام ١٨٦٨م ونزلت القوة في منطقة (دامسة) ودارت معركة طاحنة، تكبد فيها الفريقين المتحاربين خسائر فادحة، لكن النتيجة كانت لصالح آل خليفة، الذين واصلوا تعقب المهاجمين القطريين المنسحبين. فنزلت القوات البحرينية في شواطئ مدينة الوكرة المنكوبة، إلّا أن القطريين قاموا بهجوم ليلي مباغت، وقطعوا خطوط اتصال القوة البحرينية في البر بسفنها على الشاطئ، وهزمت القوة البحرينية، وأسر الشيخ إبراهيم بن علي آل خليفة، وهو من أفراد العائلة الحاكمة في البحرين، بينما تمكن والده الشيخ علي بن خليفة وابن عمه الشيخ عيسى من الفرار بصعوبة بالغة،

= وصادقت عليها حكومة الهند في تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٦١م، واعترف شيخ البحرين بمقتضاها الاعتراف بالاتفاقيات السابقة التي عقدها أسلافه في الحكومة البريطانية ويتجنب الانغماس في الحروب وهو ما نصت عليه المادة الثانية. للاطلاع على نص الاتفاقية يراجع: سي. يو. أتيجسون بي. سي. أس، مجموعة المعاهدات والتعهدات والسندات ذات العلاقة بالهند البريطانية والخليج والجزيرة العربية، ترجمة عبد الوهاب عبد الستار القصاب، بيت الحكمة، بغداد ٢٠٠١م، ص٢٧٧-٢٧٩.

(١) جون. ب. كيلي، بريطانيا والخليج (١٧٩٥-١٨٧٠م)، ج٢، ترجمة محمد أمين عبدالله، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عُمان، ص٥٠٧-٥٠٨.

وعلى أثر هذه التطورات جرت مفاوضات أدت إلى إطلاق سراح الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني[(١)].

لقيت التوصيات التي أطلقها بيللي صداها في الأوساط البريطانية في الهند، فتوجه طراد بريطاني إلى الخليج العربي، بناءاً على طلب من حاكم بومباي، وأوعز قائد الطراد بفرض غرامة قدرها (١٠٠) ألف ريال نمساوي (ما يساوي حوالي ٢٠ ألف باون إسترليني) على الشيخ محمد بن خليفة عقوبة له على خرقه نصوص اتفاقية الهدنة البحرية، وطالبه باستعادة الممتلكات القطرية المغتصبة، كما فرض غرامة مالية على حاكم أبو ظبي زايد بن خليفة، وبعد أن توافرت القطع البحرية البريطانية الكافية في منطقة الخليج العربي أبحر الأسطول كله إلى البحرين، وعلى رأسه المقيم البريطاني بيللي، فهرب الشيخ محمد بن خليفة إلى داخل البلاد مع بعض أتباعه، وأناب أخاه على إدارة شؤون البلاد، وبعد وصول بيللي إلى المنامة في السادس من أيلول/ سبتمبر ١٨٦٨م استدعى الشيخ علي بن خليفة، الذي قبل شروط بيللي بدفع الغرامة التي قررتها حكومة بومباي، وتم التوقيع على اتفاقية في اليوم نفسه. وفي اليوم التالي تم تدمير قصر الشيخ محمد بن خليفة[(٢)]،

(١) أحمد العناني، المصدر السابق، ص١٨٨-١٨٩؛ عبد العزيز محمد المنصور، المصدر السابق، ص٤٤.

(٢) لجأ الشيخ محمد بن خليفة إلى الكويت، وحل ضيفاً على شيخها عبدالله بن صباح (١٨٦٦-١٨٩٢م) الذي سعى للتوسط بينه وبين أخيه، ووافق الشيخ علي بن خليفة لاستقبال أخيه الشيخ محمد وإرجاع الأمور إلى نصابها، إلّا أنه تراجع في اللحظات الأخيرة عن رأيه ورفض التنازل عن الحكم. وبعد ذلك أخذ الشيخ محمد بن خليفة يتآمر على أخيه، فحشد قوة قوامها تسعة قوارب تحمل حوالي (٥٠٠) مسلح من قبيلة بنو هاجر وتوجه للبحرين في آب/ أغسطس ١٨٦٩م، ودارت معركة كان الشيخ =

وإحراق أسطوله الحربي، وبعد الانتهاء من تلك الإجراءات توجه إلى شبه جزيرة قطر[١].

اجتمع بيللي في مدينة الوكرة بكبار رؤساء القبائل القطرية التي يتزعمها محمد بن ثاني شيخ الدوحة. وعلى الرغم من أن مهمته في قطر تنطوي على إبلاغ آل ثاني باستياء الحكومة البريطانية من العمليات الانتقامية التي قاموا بها مؤخراً على البحرين، إلّا أنه أهمل هذا الجانب، وركز على إعادة العلاقات مع البحرين إلى سابق عهدها، وعقد معاهدة مع الشيخ محمد بن ثاني في أيلول/ سبتمبر عام ١٨٦٨م تضمنت بعض الشروط أهمها:

أن يتعهد شيخ قطر بعدم مساعدة شيخ البحرين المخلوع محمد خليفة في محاولته استعادة السلطة، وأن يسلمه للمقيم السياسي البريطاني إذا ما وقع بأيدي شيخ قطر، وتعهد أيضاً بالمحافظة على

= علي بن خليفة شيخ البحرين أحد ضحاياها، واستعاد الشيخ محمد سلطته على البلاد، إلّا أن حكمه لم يستمر سوى مدة قصيرة، فقد تدخلت السلطات البريطانية، وتم إقصاءه باعتباره حاكماً غير شرعي للبحرين، وتوجه بيللي بنفسه وألقي القبض على الشيخ محمد وتقرر نفيه إلى الهند وتنصيب الشيخ عيسى بن علي آل خليفة حاكماً للبلاد بعد أن تشاور مع رؤساء القبائل البحرينية. أنظر: فائق حمدي طهبوب، تاريخ البحرين السياسي (١٧٨٣-١٨٧٠م)، منشورات ذات السلاسل، الكويت ١٩٨٣م، ص٢٨٧-٢٨٨؛ محمد غانم الرميحي، قضايا التغيير السياسي والاجتماعي في البحرين (١٩٢٠-١٩٧١م)، منشورات مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع، الكويت ١٩٧٩م، ص٣١.

(١) جون ب. كيلي، المصدر السابق، ج٢، ص٥٠٩؛ أمل إبراهيم الزياني، البحرين (١٧٨٣-١٩٧٣م) دراسة في محيط العلاقات الدولية وتطور الأحداث في منطقة الخليج العربي، بيروت ١٩٧٣م، ص٥٦-٥٧.

العلاقات مع البحرين، كما كانت عليه قبل وقوع النزاعات السابقة، وفي حالة وقوع أي نزاع جديد يحال إلى المقيم السياسي البريطاني للبت فيه(١).

وفي ربيع العام التالي وضعت صيغة دفع قطر الجزية إلى البحرين بإشراف المقيم السياسي البريطاني، وقع عليها كل من حاكمي البحرين وقطر وقدرت بـ: (٩٠٠٠) تسعة آلاف كران (ما يعادل ١٤٠٠ باون إسترليني) سنوياً، يدفع محمد بن ثاني بموجبها (٤٠٠٠) أربعة آلاف كران فوراً إلى رئيس قبيلة النعيم في قطر، بينما يحول المبلغ الباقي إلى البحرين مباشرة ليتم إرساله إلى الرياض. وقد أكد بيللي في تقريره عن هذه الاتفاقية أن هذا التعهد لا يمس استقلال قطر، وأن دفع المبلغ المذكور لا يتعدى أن يكون مساهمة ثابتة تدفعه البحرين إلى الرياض، مقابل حماية الحدود بين البلدين من الاعتداءات المتوقعة(٢).

وهكذا نجحت بريطانيا بمقتضى هذه المعاهدة أن تفرض إرادتها على طرفي النزاع (البحرين - قطر) والتي تجلت بالاعتراف باستقلال قطر عن البحرين استقلالاً كاملاً، وخرجت قطر لأول مرة في تاريخها كدولة مستقلة، ودخلت المعترك السياسي الدولي في كيان خاص، وحكومة مستقلة تمثلت بحكامها من سلالة آل ثاني التي حكمت قطر منذ ذلك الحين وحتى الوقت الحاضر.

تحسنت العلاقات بين قطر والبحرين في عهد شيخ البحرين الجديد،

---

(١) عبد الحميد كاظم حمادي الشكري، المصدر السابق، ص٧٢؛ وللاطلاع على نص المعاهدة يراجع: سي. ي. أتيجسون، بي. سي. أس، المصدر السابق، ص٣٠٥.

(٢) جون ب. كيلي، المصدر السابق، ج٢، ص٥١٠-٥١١؛ عبد الحميد كاظم حمادي الشكري، المصدر السابق، ص٧٢.

إلّا أن هذا الموقف تغير بعد الحملة العثمانية على الإحساء عام ١٨٧١م[١]، وجاء تعيين مدحت باشا والياً على بغداد (١٨٦٩-١٨٧٢م)، الذي كان من أشد المعارضين للسياسة البريطانية في الخليج العربي، فرصة فعلية للتدخل العثماني المباشر[٢]، ومحاولة إخضاع جميع مناطق الخليج التي تتبعها سمياً[٣]. ودخلت قطر طوراً جديداً من العلاقات، فكان على شيخها قاسم بن محمد بن ثاني مواجهة التحديات الجديدة، بما يحقق الاستقلال التام لقطر.

● الشيخ قاسم بن محمد بن ثاني في مواجهة التحديات: ● ● ● ●

■ الوجود العثماني في قطر:

برزت شخصية الشيخ قاسم بن محمد بن ثاني (١٨٢٤-١٩١٣م) في وقت كانت فيه القبائل القطرية على امتداد الساحل العربي للخليج تعاني من تواجد أكثر من قوة كبرى في المنطقة، الأمر الذي جعل الزعامات القبلية تضطر إلى رفع غير علم واحد في وقت واحد، وذلك في أوج التنافس (البريطاني - العثماني - الفارسي) وادعاء تلك القوى سيادتها على الإمارات الساحلية، فضلاً عن النزاعات المستمرة بين الأمراء أنفسهم، وادعاء تلك الإمارة سيادتها على إمارة أخرى. مما يجعل مسؤولية الزعامة ولا سيما الإمارات الصغيرة عبئاً ثقيلاً، خصوصاً وأن الأسس الجغرافية للسيادة الإقليمية لم تكن واضحة المعالم بعد[٤].

---

(١) عبد الحميد كاظم حمادي الشكري، المصدر السابق، ص٦٣.

(٢) للتعرف على حملة مدحت باشا على الإحساء وتداعياتها في المنطقة يراجع: صلاح العقاد، حملة مدحت باشا في شبه الجزيرة العربية، البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، ج٢، الدوحة ١٩٧٦م، ص٩١٦-٩٤٠.

(٣) عصام عبد الغفور عبد الرزاق النعيمي، المصدر السابق، ص٦٣-٦٤.

(٤) أحمد العناني، المصدر السابق، ص١٨٦.

وعلى أثر اعتقاله في أحداث عام ١٨٦٧م مع البحرين تزعم الشيخ قاسم حلف عشائري واسع في شبه جزيرة قطر أخذ مظهراً إقليمياً لأول مرة[١]، ونجح بعدها في تحقيق الاستقلال.

كانت أولى التحديات التي واجهت الشيخ قاسم هي الحملة العثمانية، ففي نهاية أيلول/ سبتمبر ١٨٧١م أكمل العثمانيون السيطرة على الإحساء، ولا حاجة لنا لكتابة تاريخ هذه الحملة فقد درست بعناية من مؤرخين بارزين، لكننا سنحاول تسليط الضوء الكافي على وصول العثمانيين إلى شبه جزيرة قطر في العام نفسه، وردود الفعل البريطانية، والدور الذي أداه قاسم بن محمد آل ثاني في استثمار هذا التطور لتأكيد استقلال إمارته.

كان على العثمانيين محاولة الحصول على تأييد القبائل المحلية، بعد أن تعرضت قواتهم لمقاومة بعض القبائل، وصعوبات المنطقة والأمراض والخسائر التي لحقت بهم[٢]، مما دفع مدحت باشا للقيام بزيارة ميدانية في ١٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٧١م ترافقه تعزيزات جديدة، للوقوف على حقيقة الموقف، وإقرار الهيمنة العثمانية. فاتخذ

---

(١) أحمد العناني، المعالم الأساسية لتاريخ قطر، البحوث المقدمة إلى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، الدوحة ١٩٧٦م، ص٥٣٣.

(٢) كانت القوات العثمانية عند وصولها إلى الإحساء في وضع سيئ للغاية، فقد مات ما لا يقل عن (٤٠٠) جندي بسبب انتشار الأمراض والمجاعة ونقص المؤن، ومن مجموع (٢٥٠٠) جندي بقيادة نافذ باشا مرض نحو (١٠٠٠) جندي. أما على الساحل فلم يكن الوضع أفضل حالاً، فهناك حوالي (١٥٠) جندي مريض من مجموع (٥٠٠) والموجودة في القطيف، كما كان في العقير عدد كبير من الجنود المرضى، وهكذا لم يبق من القوات الزاحفة وعددها (٣١٥٠) رجلاً القادرين على القتال سوى (٢٠٠٠) جندي. انظر: جون. ب. كيلي، المصدر السابق، ج٢، ص٦٠٤.

إجراءاً يقضي باستحداث أربعة أقضية تؤلف لواء نجد من بينها قطر، وتعيين الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني قائمقاماً لها[١].

أبدى الشيخ قاسم منذ الوهلة الأولى تأييده الكامل في الوقوف إلى جانب العثمانيين، وزودهم بثلاث مراكب، وطلب من نافذ باشا قائد الحملة إرسال بعض القوات العثمانية إلى قطر، وبالفعل وصلت القوة العثمانية إلى قطر، وقام قائدها الشيخ عبدالله الصباح بتسليم الشيخ قاسم أربعة أعلام عثمانية رفعت في الأماكن المهمة[٢]، على العكس من والده الشيخ محمد بن ثاني الذي رفض الوجود العثماني، واستمر في رفع العلم القطري[٣].

بين الشيخ عبدالله الصباح أنه على استعداد لتزويد قطر بالمزيد من القوات، في حين رحبت الإدارة العثمانية بموقف الشيخ قاسم بن محمد، نظراً للأهمية الإستراتيجية لشبه جزيرة قطر، فضلاً عن أن العثمانيين كسبوا حليفاً قوياً يستطيع تأمين خطوط المواصلات العثمانية بين القطيف والإحساء، ويجنبها خطر الهجمات التي تقوم بها القبائل البدوية بين قطر والعقير. وكان من الطبيعي أن تثير تلك التطورات الجانب البريطاني، فأرسل بيللي مساعده الميجر شارلس كرانت Grant إلى الدوحة للاطلاع على الموقف عن قرب، والتقى بالشيخ قاسم آل ثاني وبين له قلق المسؤولين البريطانيين من أي وجود عثماني في قطر. إلا أن رد الشيخ قاسم هذه المرة اتسم بالجرأة حيث ذكر له: أنه يتخذ المواقف التي

(١) جريدة الزوراء، العدد ٢٠٩، ٢١ شوال ١٢٨٨هـ-٢١ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٧١م.

(٢) رفعت الأعلام الأربعة على: ١- الدوحة، ٢- الوكرة، ٣- الخور، ٤- العديد. انظر: عصام عبد الغفور عبد الرزاق النعيمي، المصدر السابق، ص٦٧.

(٣) جون ب. كيلي، المصدر السابق، ج٢، ص٦٠٥-٦٠٦.

تخدم بلاده، خصوصاً بعد فشل البريطانيين في تحقيق العدالة لرعاياه[١]. وقد ذكر شيخ قطر ما نصه: «**نحن أمة تقيم على البر الرئيسي وقواتهم (قوات الأتراك) تتحرك على اليابسة. فطلب مني قبول الراية فقبلتها**»[٢]. ويعتقد بعض المؤرخين المتخصصين بدراسة تاريخ المنطقة أن الشيخ قاسم أراد من اتخاذ خطوة تبعيته للدولة العثمانية، قطع الطريق نهائياً على شيوخ البحرين الذين ما انفكوا بمطالبة قطر بدفع الضريبة السنوية التي كانت تدفع سابقاً للحكومة السعودية، فيضمن بذلك ترصين استقلال البلاد[٣]. كما سعى العثمانيون لتوسيع نفوذهم في مناطق أخرى من الخليج العربي، إلّا أن البريطانيين لم يتسرعوا في اتخاذ أي إجراء عسكري، طالما لم تتعرض البحرين وإمارات الساحل العُماني للتهديد العثماني، وهو ما كان ينسجم مع سياسة حكومة الهند التي تقوم على عدم التدخل في شؤون الخليج العربي مادامت لا تهدد المعاهدات والاتفاقيات المعقودة مع شيوخ الإمارات العربية[٤].

أراد الشيخ قاسم توظيف ظروف وجود العثمانيين في الخليج لتعزيز استقلال قطر، فقد رفض طلباً بريطانياً تقدم به قائد سفينة بريطانية وصلت قطر أوائل عام ١٨٧٢م بدفع الضريبة السنوية لشيخ البحرين طبقاً لمعاهدة عام ١٨٦٨م تحت ذريعة أنه من رعايا الدولة العثمانية، وأبلغ الإدارة

(١) مؤيد عاصي سلمان، المصدر السابق، ص٥١.

(٢) تاريخ الإمارات العربية المتحدة، مختارات من أهم الوثائق البريطانية (١٧٩٧-١٩٦٥م)، مج١، بريطانيا والإمارات (١٧٩٧-١٩٦٠م)، المشرف على الترجمة لزلي ماكلوكلين، تحقيق محمد مرسي عبدالله، مركز لندن للدراسات العربية ١٩٩٦م، ص٢٤٧.

(٣) صلاح العقاد، المصدر السابق، ص٩٣٣.

(٤) مؤيد عاصي سلمان، المصدر السابق، ص٥٥.

العثمانية بالموضوع، فاحتجت الدولة العثمانية على الإجراء البريطاني، وبعثت بسفينة إلى قطر كتعبير عن حمايتها لها[١]. ويبدو أن الحكومة البريطانية فضلت أمام الإصرار العثماني «**أن تعتبر رفع الراية عملاً قام به شخص غير مخول وعديم الشعور بالمسؤولية**»[٢].

● مشكلة الزبارة: ●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

عدت بريطانيا موقف الشيخ قاسم والتدخلات العثمانية الأخيرة تحدياً لإرادتها في المنطقة، وخطراً يهدد مصالحها المباشرة في البحرين وساحل عُمان فبذلت جهوداً كبيرة لإيقافه. وانصبت جهودها في اتجاهين: الأول البحرين والثاني خور العديد، وما أن ظهرت توجهات الدولة العثمانية لإعادة بناء الزبارة، فتقدمت باحتجاج شديد اللهجة على ذلك عام ١٨٧٤م، لأنه يشكل خطراً مباشراً على مصالح آل خليفة في البحرين، كما أحبطت القوات البريطانية هجوماً قام به ناصر بن مبارك شيخ بني هاجر على الزبارة في العام نفسه[٣]. وعلى الرغم من الإجراءات البريطانية تلك، فإن إدوارد روس Ross. E. المقيم السياسي البريطاني في مسقط نصح شيخ البحرين بتجنب التورط في تعقيدات البر القطري، مبدياً استعداده لصد أي هجوم بحري متوقع سواءاً من القبائل القطرية أو الدولة العثمانية[٤].

---

(١) صلاح العقاد، المصدر السابق، ص٩٣٣.

(٢) تاريخ الإمارات العربية، مختارات من أهم الوثائق البريطانية، المصدر السابق، ص٢٤٨.

(٣) جي. أي. سالدانا، وثائق التاريخ القطري، الشؤون القطرية من سنة ١٨٧٣ إلى ١٩٠٤م، تعريب أحمد العناني، لجنة كتابة تاريخ قطر، دولة قطر، ص٢٣-٢٤.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٠؛ جون ب. كيلي، المصدر السابق، ص٦٠٩. ومن أجل قطع الطريق نهائياً أمام العثمانيين في التفكير بمد سيطرتهم إلى البحرين وقع المقيم =

شهد عام ١٨٧٨م احتدام النزاع بين قطر والبحرين حول الزبارة، وأوقع الشيخ قاسم بمعاونة شيخ بني هاجر ناصر بن مبارك خسائر فادحة بقبيلة النعيم الموالية لشيخ البحرين بعد حصارها خمسة عشر يوماً، مع دفع غرامة مالية للشيخ قاسم آل ثاني وعقد الصلح معه(١). وبعد أن أصبحت الزبارة عملياً تحت السيادة القطرية، رفض الجانب البريطاني أية محاولة لإعادة أعمارها، كما حدث ذلك عام ١٨٨٨ وعام ١٨٩٥م بعدما سمح الشيخ قاسم إلى عشيرة بني علي بالإقامة فيها(٢). وظهر التحيز البريطاني للبحرين بعدما حاول القطريون عام ١٨٩٥م بدعم من متصرف الإحساء، استرجاع سفن تعود لبني علي احتجزها المقيم السياسي البريطاني لصالح شيخ البحرين، حيث قام بيللي برفقة أسطول في السادس من أيلول/ سبتمبر من السنة نفسها بتدمير السفن الراسية في الزبارة البالغة (٤٤) سفينة، وطرد بنو علي وتسليم المراكب في الزبارة(٣).

= السياسي روس معاهدة حماية مع شيخ البحرين عرفت بالاتفاقية المانعة الأولى Agreement First Exclusive. للاطلاع على نص الاتفاقية انظر: سي. يو. أتيجسون، المصدر السابق، ص٢٨١.

(١) ج. ج. لوريمر، المصدر السابق، القسم التاريخي، ج٣، ص١٣٦٨.

(٢) للمزيد من التفاصيل حول تطورات مشكلة الزبارة في المدة المذكورة يراجع، عصام عبد الغفور عبد الرزاق النعيمي، المصدر السابق، ص٨٠-٨٨؛ عبد العزيز محمد المنصور، المصدر السابق، ص٤٨-٥١.

(٣) للتعرف على تفاصيل الانحياز البريطاني والحملة البريطانية على الزبارة والشروط التي فرضها المقيم السياسي البريطاني على الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني. يراجع: مؤيد عاصي سلمان، المصدر السابق، ص٦٨-٧٢.

• مشكلة خور العديد: •

واجه الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني تحدياً جديداً تمثل بمشكلة خور العديد[١]، وقد أثيرت هذه المشكلة في أوائل عام ١٨٧١م بعدما كتب شيخ أبو ظبي زايد بن خليفة إلى المقيم السياسي البريطاني، يستأذنه بالقيام بهجوم على قبيلة القبيسات[٢] في العديد، مدعياً إنها ستكون ملجأ للقراصنة والخارجين عن القانون. لكن المقيم البريطاني رفض الطلب رغم قناعته بتبعية العديد لأبو ظبي، وأن القبيسات من رعاياه، وأرسل مساعده سدني سميث S. Smith إلى شيخ القبيسات في العديد لتسوية الأمر بالطرق السلمية. إلّا أن الشيخ بطي رفض الخضوع لشيخ أبو ظبي، وطلب من سميث الاعتراف باستقلال العديد، وإلّا فإنه سيجد نفسه مضطراً لقبول الراية العثمانية التي عرضت عليه ولم يقبلها[٣].

قدم سميث تقريراً ذكر فيه: إن إصرار القبيسات على موقفهم هذا سيعرض أمن الخليج العربي إلى خطر يستدعي تدخلاً بريطانياً، لا سيما

(١) العديد: قرية تقع في الزاوية الجنوبية الشرقية من شبه جزيرة قطر، في رأس الخور الذي هو عبارة عن خليج يصلح لرسو السفن، وقرية العديد ميناء على هذا الخور. أنظر: مؤيد عاصي سلمان، المصدر السابق، ص٧٣.

(٢) القبيسات: عشيرة من قبيلة بني ياس يتزعمها الشيخ بطي بن خادم، هاجرت من أبو ظبي عام ١٨٦٩م للمرة الثالثة إلى خور العديد، وأنكرت ولائها لمشيخة أبو ظبي،وعدت نفسها مشيخة مستقلة. للمزيد من التفاصيل يراجع: مصطفى عبد القادر النجار وآخرون، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، جامعة البصرة ١٩٨٤م، ص١٢٨.

(٣) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، بريطانيا وإمارات الساحل العُماني دراسة في العلاقات التعاهدية، منشورات مركز دراسات الخليج العربي (٢١)، مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٧٨م، ص٣٠٨.

وأنهم صرحوا بالانضمام للدولة العثمانية، وقاموا فعلاً برفع العلم العثماني في كل يوم جمعة، وذلك يتطلب - حسب رأيه - تدخلاً سريعاً من حكومة الهند لحسم المسألة لصالح شيخ أبو ظبي، إلّا أن هذا التدخل مع وجود الأسطول العثماني قريباً من مسرح الأحداث لا يخلو من المخاطرة، لذلك طلبت حكومة الهند من بيللي إقناع القبيسات بالتراجع عن موقفهم. وبالفعل نجح المقيم السياسي في الاحتفاظ بعلاقات حسنة مع شيخ القبيسات حتى عام ١٨٧٣م، واستمر خلفه الكولونيل روس Ross في المحافظة على الوضع الراهن[١].

بدأ الاتصال العثماني المباشر بمنطقة العديد عام ١٨٧٣م بعدما زار المنطقة وفد عثماني برئاسة القائد البحري العثماني حسين أفندي، وتوصل إلى اتفاق يدفع بموجبه القبيسات مبلغاً سنوياً للشيخ قاسم آل ثاني ويقوم بدوره بتسليمه للعثمانيين مقابل السماح لهم بصيد اللؤلؤ في سواحل العديد[٢].

نظرت بريطانيا إلى الموقف العثماني من شيخ القبيسات في العديد، وتبعيته إلى شيخ قطر، غامضة ولا أساس لها، وأن وجود مشيخة منفصلة ومستقلة في العديد أمر غير معترف به، وأن طلب شيخ العديد الحماية العثمانية له لا يشكل بحد ذاته تبريراً كافياً لتأكيد السيادة العثمانية على المكان، ولو صح الإقرار بهذا المطلب حسب وجهة النظر البريطانية لفعل جميع الشيوخ الصغار الشيء نفسه ليكون مسوغاً لهم للتملص من

(١) مصطفى عبد القادر النجار وآخرون، المصدر السابق، ص١٢٨-١٢٩.

(٢) مؤيد عاصي سلمان، المصدر السابق، ص٧٧؛ عبد العزيز محمد المنصور، المصدر السابق، ص٢١٣.

الإشراف البريطاني، والإفلات من العقاب الصارم[١]. لذلك عد البريطانيون التدخل العثماني المباشر في العديد، التي أصبحت من الناحية العملية خاضعة إلى شيخ قطر قاسم آل ثاني، تهديداً لمشيخة أبو ظبي التي يرتبط شيخها زايد بن خليفة بعلاقات تعاهدية مع بريطانيا لسنوات طويلة، فأخذوا يعدون العدة لضم العديد بصورة مطلقة إلى أبو ظبي[٢].

ظلت الأوضاع على حالها هادئة حتى عام ١٨٧٦م، ولم تعط الحكومة البريطانية للموضوع الأهمية الكافية، إلّا أنه انقلب في العام نفسه بحدوث أعمال قرصنة أدت إلى تعكير الأمن البريطاني في المنطقة[٣]. ويرى بعض الباحثين أن البريطانيين أنفسهم الذين افتعلوا أعمال القرصنة للفترة (١٨٧٦-١٨٧٧م) بالقرب من مياه العديد واتهموا بها قبيلة هاجر الموالية للشيخ قاسم والعثمانيين، لتبرير تدخلهم العسكري المرتقب[٤]، وهو رأي متوقع حسب رأينا.

قرر البريطانيون استخدام القوة لفرض سيادة أبو ظبي على العديد، ففي حزيران عام ١٨٧٧م كتب مساعد المقيم البريطاني في الخليج إلى شيخ أبو ظبي يبلغه قرار حكومة الهند إرجاع العديد إلى سيادته، وطلب المقيم البريطاني من حكومة الهند إرسال بارجة حربية كبيرة لهذا الغرض، واستجابت حكومة الهند فأرسلت في آذار/ مارس ١٨٧٨م سفينة الحرب

---

(١) جي. أي. سالدانا، المصدر السابق، ص٩٣-٩٤؛ عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، المصدر السابق، ص٣١٥.

(٢) عبد العزيز محمد المنصور، المصدر السابق، ص٩١.

(٣) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، المصدر السابق، ص٣٠٩.

(٤) مؤيد عاصي سلمان، المصدر السابق، ص٧٨.

الملكية تيسير Teaser كما أبلغ المقيم البريطاني الشيخ زايد بن خليفة بحشد أكبر عدد ممكن من الرجال والذهاب إلى جزيرة كافاي[١]، ليلتقي بالقوة البريطانية، وكان الغرض من هذا الحشد العظيم كما تقول المصادر البريطانية هو كي يعرف الشيخ بطي بن خادم أن المقاومة غير مجدية، وتضطره أخيراً إلى الاستسلام[٢]، وهو ما حدث فعلاً إذ اتجهت القوات المشتركة إلى العديد ودخلتها في ٣٠ آذار/ مارس ١٨٧٨م دون قتال بسبب أن القبيسات غادروها بعد أن أخذوا كل ممتلكاتهم ودمروها بصورة كاملة، قبل وصول الحملة البريطانية، ولجأوا إلى شيخ قطر في البدع وأقاموا فيها سنتين قبل أن يعودوا لديارهم في أبو ظبي[٣].

أضعفت عودة القبيسات إلى أبو ظبي موقف شيخ قطر قاسم آل ثاني، حيث كان يمني نفسه لإخضاع العديد لسلطته الأمر الذي دفعه لأن يثير موضوع الديون المترتبة على شيخ القبيسات أثناء إقامته وعشيرته في البدع، إلّا أن الشيخ بطي بن خادم رفض تسديدها، فاحتج الشيخ قاسم إلى المقيم السياسي البريطاني، وأدى ذلك إلى توتر العلاقات بين قطر وأبو ظبي، وحدثت اشتباكات بين القبائل الخاضعة للطرفين المتنازعين في ١٨٨١ و١٨٨٥م[٤]. وتفجر الموقف من جديد عام ١٨٨٨م أثر غارة شنها خليفة ابن شيخ أبو ظبي على الدوحة، مستغلاً غياب الشيخ قاسم آل ثاني عن المدينة، ودارت معركة كان علي ابن الشيخ قاسم آل ثاني واحداً من ضحاياها[٥].

---

(١) تقع على بعد (١٢) ميل إلى الشرق من العديد.
(٢) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، المصدر السابق، ص٣١٣-٣١٤.
(٣) مؤيد عاصي سلمان، المصدر السابق، ص٧٩.
(٤) للمزيد من التفاصيل. انظر: مؤيد عاصي سلمان، المصدر السابق، ص٧٨-٨٥.
(٥) المصدر نفسه، ص٨٣.

استعد شيخ قطر للرد على تلك الغارة، وطلب الدعم والمساندة من الباب العالي مباشرة في رسالة بعثها إلى الأمير عبدالله بن ثنيان[١] في العام نفسه، طلب فيها وساطته لدى السلطات العثمانية بعد أن عجز عن الحصول على مساندة المسؤولين العثمانيين في كل من الإحساء والبصرة[٢]. إلّا أن الموقف البريطاني المتشدد الذي يستند على استخدام القوة المفرطة حال دون تحقيق شيخ قطر أهدافه في العديد، وأحبطت محاولاته المتكررة لإعمارها. وحسم الأمر بصورته النهائية عام ١٩٠٥م بعدما أعلن البريطانيون رسمياً ضم العديد لمشيخة أبو ظبي، وتم إبلاغ السلطات العثمانية بذلك[٣].

• مشكلة الرعايا البريطانيين (التجار الهنود) في قطر: •••••

لم يكتف البريطانيين بموقفهم المناوئ للشيخ قاسم بن محمد بن ثاني على مسألتي النزاع مع شيخي البحرين وأبو ظبي، بل تعدى ذلك إلى تحين الفرص وافتعال مشاكل أخرى من أجل التدخل المباشر في الشأن الداخلي لشبه جزيرة قطر، شأنها شأن المشيخات الأخرى في المنطقة وإبعادها عن النفوذ العثماني، وقد وجد البريطانيون في مسألة رعاياهم من التجار الهنود Banians في قطر الذريعة المناسبة للتدخل.

---

(١) الأمير عبدالله بن ثنيان هو أحد أعضاء الأسرة السعودية، كان مقيماً في الآستانة وكان مقرباً من السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩م). انظر: جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، مج٢، ص٢٦٤.

(٢) للاطلاع على نص الرسالة التي بعثها الشيخ قاسم إلى عبدالله بن ثنيان آل سعود في ٩ حزيران/ يونيو ١٨٨٨م، يراجع: عبد العزيز محمد المنصور، المصدر السابق، ص٢١٤-٢١٩.

(٣) المصدر نفسه، ص٢٦٧.

ازدهرت الدوحة كمركز تجاري في الخليج العربي في عهد الشيخ قاسم آل ثاني كغيرها من موانئ الخليج الأخرى، وأدى هذا الازدهار إلى توافد التجار الهنود إلى هذه الموانئ للعمل في تجارة اللؤلؤ وعمليات التبادل التجاري كممثلين للوكالات التجارية والشركات الملاحية في بومباي وغيرها من الموانئ الهندية الشهيرة. وهو بالطبع يعد مظهراً من مظاهر تعاظم النفوذ الاقتصادي البريطاني في منطقة الخليج العربي، وقد وفد هؤلاء كرعايا بريطانيين يتمتعون بالحماية البريطانية الكاملة، التي اتخذت في كثير من الأحيان ذريعة لتعزيز النفوذ البريطاني[١]. وقد عمل هؤلاء التجار في الإقراض بالربا للتجار المحليين وأصحاب سفن صيد اللؤلؤ، وأدى ذلك إلى ثرائهم، فأصبحوا منافسين خطرين للتجار القطريين ومن ضمنهم الشيخ قاسم الذي يعد من أكبر تجار اللؤلؤ في المنطقة، وسيطروا على العمليات التجارية، وكان هؤلاء يتمتعون بحرية العمل في مدينة الدوحة التي كانت عاصمة لشبه جزيرة قطر ومركزاً النشاط الاقتصادي فيها. وبذلك أخذوا يمتصون الثروة الوطنية من خلال رؤوس الأموال الضخمة التي استثمروها في احتكار اللؤلؤ[٢].

كان على الشيخ قاسم والاقتصاد القطري يتعرض إلى هذا النوع من التهديد أن يتخذ موقفاً حازماً لإيقافه، لا سيما وأنه يتطلع لإقامة كيان سياسي يصون مصالح الشعب القطري، ويحقق الاستقلال الكامل، لذلك قام بتقييد نشاطهم التجاري وحريتهم المطلقة[٣].

---

(١) محمد مرسي عبدالله، رسالتان في تاريخ شرقي الجزيرة العربية الحديث، البحوث المقدمة إلى مؤتمر تاريخ شرقي الجزيرة العربية، ج٢، الدوحة ١٩٧٦م، ص٧٢٩-٧٣٠.

(٢) مؤيد عاصي سلمان، المصدر السابق، ص٨٩؛ عبد العزيز محمد المنصور، المصدر السابق، ص٩٢-٩٣.

(٣) مؤيد عاصي سلمان، المصدر السابق، ص٨٩.

مما دفع بكبار التجار الهنود إلى تقديم شكوى عام ١٨٧٥م إلى المقيم السياسي البريطاني روس(١)، كما عرضوا عليه رغبتهم بمغادرة قطر، فبادر إلى إرسال مساعده الثاني الملازم فريزر Freazer إلى الدوحة لتقصي المعلومات من الشيخ قاسم. وقد رد الشيخ قاسم في رسالة بعثها للمقيم السياسي البريطاني روس أوضح فيها أن الأموال التي أخذها منهم تهدف إلى حمايتهم وأموالهم من اللصوص، وأن الضرائب المدفوعة من قبلهم يدفعها جميع السكان القطريين دون تمييز، وأكد أنه سيبقي الرعايا البريطانيين في حالة موافقتهم في المستقبل على دفع مبلغ يوازي ما يأخذه من مواطنيه، وإلّا فليس بوسعه التفريط بماله الخاص لحمايتهم من البدو وغيرهم(٢).

وفي العام التالي وقعت حادثة أخرى بعدما أمر الشيخ قاسم بإبعاد اثنين من التجار الهنود إلى الإحساء يدعيان (راما وشيلا) بسبب عدم دفعهما الضريبة المقررة والغريب في الأمر أن السلطات البريطانية بالغت في الحادثة وعدتها تجاوزاً خطيراً، وإساءة صارخة لهيبة الحكومة البريطانية، فرفعت الموضوع إلى وزارة الخارجية البريطانية لأشعار السلطات العثمانية بالحادثة والعمل على تعويض التاجرين(٣).

وفي كانون الثاني/ يناير ١٨٧٩م تعرض أحد التجار الهنود ويدعى (فورسو) إلى الضرب وأسيئت معاملته من قبل المسؤول العثماني في الدوحة (محمد أغا) بسبب قيامه تصدير التمر، وهي مادة محضور

(١) جي. أي. سالدانا، المصدر السابق، ص٦٢.

(٢) مؤيد عاصي سلمان، المصدر السابق، ص٩٠.

(٣) للمزيد من التفاصيل يراجع: جي. أي. سالدانا، المصدر السابق، ص٥٨-٥٩؛ جون ب. كيلي، المصدر السابق، ص٦٥٧-٦٥٨.

تصديرها في قطر. ودفعت هذه الحادثة السلطات البريطانية إلى العمل على إبعاد المسؤول العثماني في الدوحة، ورفعت القضية إلى وزير الدولة لشؤون الهند في ٧ آذار/ مارس ١٨٧٩م وبالفعل نجحت في إزاحته عن وظيفته(١).

في أواخر عام ١٨٨١م ضاق الشيخ قاسم آل ثاني بنشاط التجار الهنود الذين تمتعوا بحمايته لمدة طويلة، لكنهم رفضوا دفع الالتزامات المترتبة عليهم، ولم يتأثر كثيراً بالضغوط التي مارسها البريطانيون عليه، فعبر صراحة عن رغبته الملحة في رحيل التجار الهنود إلى البحرين في رسالة بعثها إلى المقيم السياسي البريطاني في كانون الثاني/ يناير ١٨٨٢م(٢). مما دفع المقيم السياسي بإرسال السفينة الحربية وود لارك Wood Lark في تظاهرة تهديدية لسواحل شبه جزيرة قطر(٣).

في مايو/ مايس عام ١٨٨٢م أرسل المقيم السياسي أحد موظفيه (المنشي ميرزا أبو القاسم) للتفوض مع شيخ قطر لكن مفاوضاته فشلت. وازداد الموقف تعقيداً بعدما أخذ الشيخ قاسم يضيق الخناق على التجار الهنود مما اضطرهم الرحيل إلى البحرين في تموز/ يوليو ١٨٨٢م، ووجد المقيم السياسي البريطاني في الخليج وكذلك حكومة الهند في سياسة الشيخ قاسم أبن ثاني تحدياً لوجودهم هناك، وخشوا أن تمدد هذه السياسة من السواحل القطرية إلى بقية الإمارات العربية(٤). لذلك كله توجه روس بمركب حربي في كانون الأول/ ديسمبر ١٨٨٢م

(١) للمزيد من التفاصيل. يراجع: المصدر نفسه ص٦٢-٦٣.

(٢) محمد مرسي عبدالله، المصدر السابق، ص٧٣٠.

(٣) مؤيد عاصي سلمان، المصدر السابق، ص٩٣.

(٤) محمد مرسي عبدالله، المصدر السابق، ص٧٣٠.

وأجبر الشيخ قاسم على: الاعتذار للحكومة البريطانية ودفع مبلغ ثمانية آلاف روبية تعويضاً للتجار الهنود الذين لجؤا إلى البحرين، وأن يسمح لهؤلاء التجار بالعودة إلى الدوحة[١].

عبر الشيخ قاسم عن استيائه من الموقف العثماني الضعيف، وهدد المسؤولين العثمانيين في الإحساء والبصرة بالاستقالة من وظيفة القائمقام إذا لم يرد إليه مبلغ الغرامة[٢]. وإزاء ذلك قدم الباب العالي احتجاجاً للسفير البريطاني في إسطنبول، وجاء رد وزارة الخارجية أن الحكومة البريطانية لا تعترف بأي حق من حقوق السيادة العثمانية على قطر. كما أبلغ السفير العثماني في لندن في ٢٢ أيلول/ سبتمبر ١٨٨٣م إن الحكومة البريطانية لا تستطيع قبول المزاعم العثمانية، وأنها غير مستعدة للتنازل عن (حقها!) الذي مارسته لمدة طويلة في التعامل مع شيوخ قطر من أجل مراقبة الأمن البحري في المنطقة[٣].

قرر الشيخ قاسم بن محمد عام ١٨٨٦م مغادرة الدوحة والإقامة المؤقتة في العديد، الأمر الذي دفع القبائل البدوية من بني هاجر لمداهمة التجار الهنود وجرح اثنين منهم، وقد عدت المصادر الوثائقية البريطانية أن مغادرة قاسم الدوحة من شأنه التغطية على دوره في الاعتداءات التي يتعرض لها الرعايا البريطانيين، والتنصل من المسؤولية عن سلامتهم[٤]. وفي أيار/ مايس عام ١٨٨٧م أعلن الشيخ قاسم أنه غادر الدوحة وحكومتها ولم يعد مسؤولاً عن شؤون قطر بعد ذلك، ووصف

(١) جي. أي. سالدانا، المصدر السابق، ص١١٨.

(٢) المصدر نفسه، ص١١٨.

(٣) مؤيد عاصي سلمان، المصدر السابق، ص٩٤.

(٤) جي. أي. سالدانا، المصدر السابق، ص١٢٦.

تلك الشؤون بقوله: «**إنها الآن متروكة أولاً لله ومن ثم للحكومة التركية**»[١] وقد حدثت بعد ذلك حوادث متفرقة تعرض خلالها التجار الهنود إلى الاعتداء والمضايقة، أدت إلى قيام البريطانيين لسحب جميع رعاياهم الهنود من قطر إلى البحرين في آب/ أغسطس ١٨٨٧م[٢]. وقدر البريطانيون خسائر التجار الهنود من جراء ترحيلهم إلى البحرين بخمسين ألف روبية، لذلك طلب المقيم السياسي البريطاني من شيخ البحرين حجز أموال الشيخ قاسم في البحرين والبالغة عشرون ألف روبية، فقدم الشيخ قاسم شكوى إلى الإدارة العثمانية في كل من بغداد والبصرة، لكنه كان يدرك عدم جدوى الاعتماد على السلطات العثمانية في رد أمواله المحجوزة في البحرين، فلجأ إلى تسوية القضية مع المقيم البريطاني، ورفع روس الحجز عن تلك الأموال، وكتب لحكومة الهند يخبرهم عن عودة العلاقات البريطانية مع الشيخ قاسم بن محمد بن ثاني إلى وضع ودي، وقد أعربت حكومة الهند عن سرورها بتلك النتيجة[٣].

• الشيخ قاسم بين التراجع العثماني وتعاظم النفوذ البريطاني:

سارت علاقات الشيخ قاسم بالعثمانيين بشكل طبيعي حتى عام ١٨٨٧م، وبعدها أصبح على قناعة تامة بتخاذلهم وفساد أجهزتهم

(١) المصدر نفسه، ص١٢٧؛ ومن الجدير بالذكر أن الشيخ قاسم أعد وثيقة (استشهاد) وقعها معظم سكان قطر، أكدوا فيها إن الشيخ قاسم غير مسؤول عن الحوادث التي وقعت مؤخراً ومع ذلك لم تأخذ الحكومة البريطانية بها، وعلقت أن الشيخ قاسم أملاه على احد كتبته ووقعه الناس عن جهل، فضلاً عن أن لا أحد يجرؤ على معارضته. انظر: جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، مج٢، ص٢٨٩.

(٢) المصدر نفسه، مج٢، ص٢٨٩.

(٣) جي. أي. سالدانا، المصدر السابق، ص١٣٢؛ مؤيد عاصي سلمان، المصدر السابق، ص٩٥-٩٦.

الإدارية في نجد والبصرة وبغداد، فضلاً عن الضرائب الثقيلة التي يدفعها لهم دون مقابل، الأمر الذي دفعه إلى رفض المقترح العثماني بإقامة دار للعوائد الكمركية في الدوحة عام ١٨٨٧م. كما وقف بقوة بوجه المشروع العثماني الذي يهدف إلى الإشراف المباشر على قطر في الأعوام (١٨٨٩-١٨٩١م)[١]. وتكشفت البوادر الخطيرة للخلاف بين الشيخ قاسم والإدارة العثمانية في الخليج العربي عام ١٨٩١م حول الاتفاق الذي أبرمه الشيخ قاسم مع قبيلة القبيسات للسكن في العديد، وتعيين أحد أبناء الشيخ قاسم حاكما عليهم[٢]. كما وقف بوجه تدخلات والي البصرة حافظ محمد باشا الذي زار الدوحة عام ١٨٩٣م، رافضاً كل أشكال التدخل العثماني المباشر في الشؤون القطرية[٣].

دفعت مواقف الشيخ قاسم العثمانيين للجوء إلى استخدام القوة لفرض سيطرتهم المباشرة على قطر، وأدى ذلك إلى انتفاضة واسعة قامت بها القبائل القطرية ضد الهيمنة العثمانية، واشتبكت بالحملة العثمانية التي قادها والي البصرة حافظ محمد باشا في منطقة الوجبة وهزمتها وكبدتها نحو مائة قتيل، وفي معركة مسيمير اضطر قائد الحملة العثماني على الفرار لسفينته الحربية (مريخ) وأخذ يقصف بالمدفعية مدينة الدوحة موقعاً خسائر كبيرة بسكانها ولا سيما الأطفال والنساء. وبعدما وصلت أنباء تلك الحملة الفاشلة إلى العاصمة العثمانية عبر السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩م) عن استياءه من تصرف والي البصرة وعده تصرفاً شخصياً، وأمر بعزله وكلف نقيب الإشراف في البصرة محمد سعيد

(١) جي. أي. سالدانا، المصدر السابق، ص١٦٦.

(٢) للتعرف على تفاصيل الخلاف بين العثمانيين وبين الشيخ قاسم. يراجع: المصدر نفسه، ص١٦٥-١٦٩؛ مؤيد عاصي سلمان، المصدر السابق، ص١٠٥- ١٠٨.

(٣) مؤيد عاصي سلمان، المصدر السابق، ص١٠٨.

بتسوية المسألة مع الشيخ قاسم بطريقة ودية[١]. لذلك فمن المنطقي أن يعد بعض الباحثين الحقبة الزمنية من عام ١٨٧١ إلى عام ١٨٩٣م من تاريخ قطر الحديث مرحلة قائمة بذاتها، اتسمت بالحروب والتدخلات العثمانية المباشرة والثورات القبلية التواصلة ضد الوجود العثماني، وكان شيوخ قطر من آل ثاني مترددين فيها بولائهم، فتارة يتجهون صوب الدولة العثمانية أثناء صراعهم مع شيوخ البحرين، وأخرى يلجأون إلى طلب الحماية البريطانية للتخلص من الضغط العثماني عليهم[٢]. كم ذهب بعض الباحثين إلى أن اختلاف وجهات النظر البريطانية والعثمانية بشأن قطر خلق حالة من التوازن في المنطقة أدى إلى بقائها بعيدة عن محاولة زيادة نفوذ أي من القوتين فيها، ففي الوقت الذي نظر العثمانيون إلى شبه جزيرة قطر كما لو كانت جزءاً من الدولة العثمانية، كان البريطانيون ينظرون لها إمارة عربية مستقلة، وأعطت بريطانيا لنفسها الحق في إقامة علاقات معها. كما أن الحقبة التي تبدأ من عام ١٨٩٣ ولغاية عام ١٩١٣م فقد اتسمت بتغير واضح في سياسة الشيخ قاسم آل ثاني، الذي تحول ولائه بشكل ملحوظ من الدولة العثمانية إلى الحكومة البريطانية[٣]، ففي العام ١٨٩٣م أمر الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني أخاه أحمد أن يتصل بالمسؤولين البريطانيين في الخليج

(١) للتعرف على تفاصيل الحملة التي قادها والي البصرة وتداعياتها وموقف بريطانيا منها يراجع: عبد العزيز محمد المنصور، المصدر السابق، ص١٥٢-١٥٧؛ مؤيد عاصي سلمان، المصدر السابق، ص١٠٨-١١٧.

(٢) جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، مج٢، ص٢٨٦؛ عبد العزيز محمد المنصور، المصدر السابق، ص١٤٦.

(٣) جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، مج٢، ص٢٩٢؛ عبد العزيز محمد المنصور، المصدر السابق، ص١٤٦.

العربي للتفاوض على عقد اتفاقية على غرار اتفاقيات مشيخات ساحل عُمان والبحرين مع بريطانيا[١]، إلّا أن الحكومة البريطانية وجدت أن الوقت لم يحن بعد لاتخاذ مثل تلك الخطوة وأنها ستؤدي إلى تعقيد الموقف مع الدولة العثمانية طالما أنها قادرة على التدخل في شؤون الساحل القطري في أي وقت تشاء[٢]. ولم تفلح المحاولات العثمانية المتتالية في تأكيد وجودهم في قطر بسبب المعارضة القطرية الداخلية، والموقف البريطاني المتشدد[٣]. وبقيت الأحوال على ما هي عليه طيلة فترة المباحثات التي جرت في لندن من شباط/ فبراير ١٩١١ وحتى تموز/ يوليو ١٩١٣م بهدف تحديد مناطق النفوذ العثماني في الخليج العربي، وأسفرت المباحثات عن التوقيع على اتفاقية ٢٩ تموز/ يوليو ١٩١٣م[٤]، ونصت مادتها الحادية عشرة على تنازل الدولة العثمانية عن سيادتها في قطر التي تحكمها بالوراثة أسرة آل ثاني وتتعهد بريطانيا منع حكام البحرين من محاولة ضمها[٥].

وأخيراً بدأت مرحلة جديدة من العلاقات القطرية - البريطانية بتوقيع الاتفاقية البريطانية العثمانية والتي لم يصادق عليها بسبب نشوب

---

(١) للاطلاع على نصوص تلك الاتفاقيات التي بدأت في الربع الأول من القرن التاسع عشر يراجع: عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، المصدر السابق، ص٤٠٣-٤٣٨.

(٢) جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، مج٢، ص٢٩٢.

(٣) للتعرف على المحاولات العثمانية يراجع: مؤيد عاصي سلمان، المصدر السابق، ص١١٩-١٣٠.

(٤) للاطلاع على نص الاتفاقية المذكورة يراجع: تاريخ الإمارات العربية المتحدة، مختارات من أهم الوثائق البريطانية (١٧٩٧-١٩٦٥م)، المصدر السابق، ص٣٥٣-٣٥٦.

(٥) للمزيد من التفاصيل يراجع: صلاح العقاد، التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية، ص٢٠٥-٢٠٨.

الحرب العالمية الأولى، وقد أشير في معاهدة العقير التي عقدتها بريطانيا مع عبد العزيز بن سعود (١٨٨٨-١٩٥٣م) في عام ١٩١٥م إلى أن شيخ قطر تحت حماية الحكومة البريطانية، إلّا أن شيخ قطر لم يلتزم بأي اتفاق يسبغ عليه هذا الوضع إذ لم يدخل شيخ قطر عبدالله آل ثاني الذي خلف والده الشيخ قاسم بعد وفاته عام ١٩١٣م في علاقات رسمية مع البريطانيين إلّا في ٣ تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩١٦م بعدما عقد معاهدة نصت على وضع قطر تحت الحماية البريطانية[١]. وهكذا فرضت القوة العظمى (بريطانيا) إرادتها ليتحول الخليج العربي برمته خلال سنوات الحرب العالمية الأولى وفي أعقابها إلى منطقة نفوذ بريطانية مغلقة، وانطوت هذه المعاهدة على اعتراف بقطر كإمارة، استطاعت بمرور الزمن أن تشق طريقها نحو التقدم والازدهار حتى تحقق لها الاستقلال التام عام ١٩٧١م الذي طالما قدمت له القبائل القطرية التضحيات الجسام، واحتلت المكانة الدولية المرموقة تحت حكم سلالة آل ثاني منذ القرن التاسع عشر وحتى الوقت الحاضر.

● الخاتمة ●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

- شهدت منطقة الخليج العربي تطورات سياسية داخلية متسارعة، وتدخلاً أجنبياً سافراً.
- وصل إلى درجة إقالة وتنصيب حكام ومشايخ الإمارات العربية المطلة على شواطئ الخليج، وتدخل إمارة قطر ضمن هذه القاعدة، فقد كانت هذه الإمارة تحت حكم آل خليفة الذين حكموا البحرين من معقلهم في الزبارة الواقعة في شبه جزيرة قطر.
- شهدت الإمارة صراعاً عنيفاً وحروباً أهلية بين القبائل القطرية وشيوخ

(١) جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، مج٢، ص٢٩٦-٢٩٧.

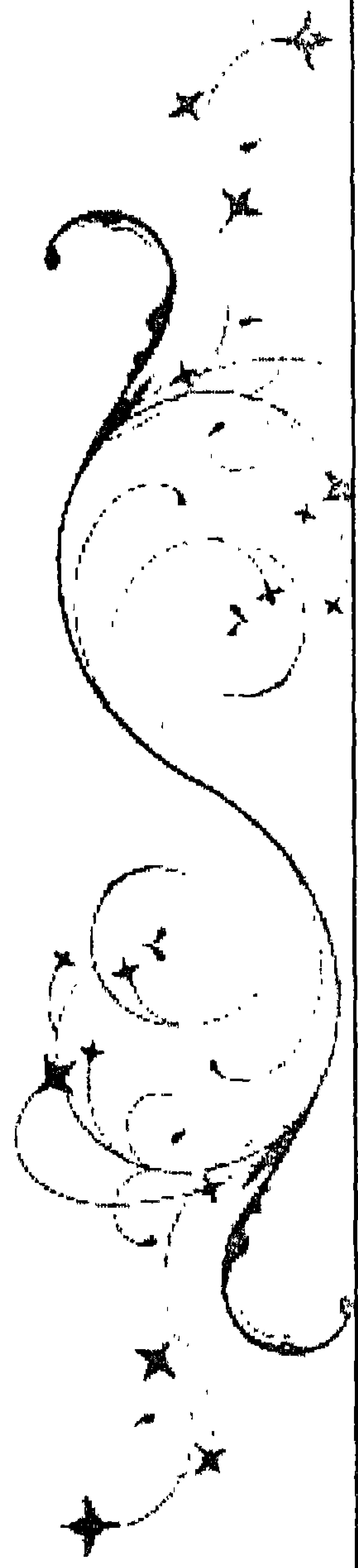
البحرين، وكثيراً ما كانت تلك القبائل طرفاً في الصراعات التي تحدث بين حكام البحرين أنفسهم، وتطلعت تلك القبائل منذ وقت مبكر إلى تحقيق الاستقلال من الحكم البحريني.

- تزعمت سلالة آل ثاني النزعة الاستقلالية وقادت القبائل القطرية الأخرى لتحقيق هذا الهدف، حيث تزعم الشيخ محمد بن ثاني ذلك التجمع القبلي الكبير للاستقلال عن البحرين.
- نجحت أسرة آل ثاني في الانفصال عن البحرين بموجب معاهدة عام ١٨٦٨م الذي يعد تاريخاً لنشأة إمارة قطر.
- تعرضت هذه الإمارة الفتية إلى تحديات كبيرة جداً تمثلت بالتدخلات العثمانية المباشرة في الشأن القطري، وأصبحت ميداناً للصراع العثماني البريطاني، حيث عدت بريطانيا الساحل القطري منطقة محرمة على القوى الدولية الأخرى.
- ضايقت بريطانيا شيخي قطر محمد بن ثاني وولده الشيخ قاسم، واختلقت في كثير من الأحيان الذرائع الواهنة لفرض إرادتها في المنطقة.
- نجم عن الصراع البريطاني العثماني في قطر انتصار الإرادة الاستعمارية البريطانية التي تقوم على استخدام القوة المفرطة، في فرض سيادتها ليس على قطر وحدها بل على منطقة الخليج العربي برمتها.
- حاول الشيخ قاسم بن محمد أن يسلك سلوكاً سياسياً متوازناً القصد منه تجنيب بلاده من التدخل الأجنبي المباشر وخصوصاً البريطاني إلّا أنه لم يقو على تحدي القوة العالمية الأعظم آنذاك.
- نجحت سلالة آل ثاني في أوج التنافس الأجنبي والصراعات الإقليمية

الدامية في أن تحقق قدراً مقبولاً من الاستقلال، كان الأساس الذي تحقق بعده الاستقلال التام عام ١٩٧١م، لتأخذ قطر مكانتها المهمة في المنطقة والعالم.

الفصل السادس

العلاقات اليمنية السعودية
بين الحربين العالميتين



مقدمة
الفصل السادس

واجهت شبه الجزيرة العربية بين الحربين العالميتين عوامل داخلية وخارجية أثرت بشكل مباشر على الكيانات السياسية فيها، فكانت تلك الكيانات عرضة للنفوذ الأجنبي الذي يتمثل ببريطانيا والإمبراطورية العثمانية وهما القوتان اللتان كانتا تقتسمان النفوذ على المنطقة، فضلاً عن التهديد الإيطالي في سواحل البحر الأحمر، وكان لهذا العامل الخارجي تأثيره المباشر في التنافس الشديد بين الكيانات السياسية العربية فيما بينها. وتأتي أهمية دراسة العلاقات اليمنية السعودية في الحقبة المذكورة في أنها تعد من أخطر الحقب التي مرت بها العلاقات بين البلدين الشقيقين ذلك أن نتائجها أثرت في مسيرة العلاقات اللاحقة بينهما.

مهد البحث إلى استعراض الأوضاع السياسية في شبه الجزيرة العربية عشية الحرب العالمية الأولى وأثناءها. وتم التطرق إلى المراحل الأولى للعلاقات اليمنية النجدية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى حتى عام ١٩٢٥م التي شهدت توتراً في العلاقات بين البلدين على أثر حادثة تنومه، وموقف اليمن المؤيد للحجاز في سنوات الصراع النجدي الحجازي.

وتناول البحث أيضاً: تطور العلاقات اليمنية السعودية (١٩٢٦-١٩٣٣م) التي تعد من الفترات التي شهدت تجاذبات حادة بين البلدين على أثر إعلان الحماية السعودية على عسير التي تعد جزءاً من اليمن حسب وجهة النظر اليمنية ودفع ذلك إلى تجدد النزاع الحدودي بينهما واندلاع الحرب اليمنية السعودية عام ١٩٣٤م وإبرام معاهدة الطائف في العام نفسه، وفي المبحث الأخير درست التحسن الذي شهدته العلاقات بين البلدين الشقيقين والذي تتوج بانضمام اليمن إلى المعاهدة العراقية السعودية عام ١٩٣٧م.

اعتمد البحث على جملة من المصادر والمراجع أهمها:

كتاب سيد مصطفى سالم، تكوين اليمن الحديث لما تناوله من معلومات دقيقة عن تاريخ اليمن وعلاقاته الخارجية ومع القوى المحلية في الجزيرة العربية، واعتماده على المصادر الوثائقية فضلاً عن المصادر المحلية اليمنية. كما أن مؤلفات سنت جون فيلبي وحافظ وهبة لها أهمية خاصة كونهم عاصروا الأحداث التي تناولها البحث، بل شاركوا بالكثير من فصولها. وكان للرسائل والأطاريح الجامعية التي كتبت في الجامعات العراقية الدور المهم في كشف الكثير من الملابسات والعقد التي لازمت الأحداث في المنطقة وكان للمؤلفات الأخرى أهميتها والتي وردت في ثنايا البحث، وكانت الصحف المصرية على وجه الخصوص قد أعانتني في توضيح الحوادث الغامضة. وأخيراً إذا كان ليس من حقي الإشارة للصعوبات التي رافقت كتابة البحث فإن الواجب العلمي والأدبي يدفعني إلى أن أتقدم بالشكر والامتنان إلى الأستاذ د. مهيوب غالب رئيس قسم التاريخ والأساتذة في جامعة ذمار في اليمن الشقيق لما قدمه لي من عون ومساعدة طيلة إقامتي في اليمن بعد ظروف المحنة (الاحتلال) التي ألمت ببلدي عام ٢٠٠٣م، وإلى العاملين في مكتبتها، وأشكر

العاملين في مكتبة جامعة صنعاء لما قدموه لي من عون في الحصول على المراجع وخصوصاً الصحافة التي تناولت فترة البحث. ولا يفوتني أن أشكر الأستاذ الفاضل مرزوق فايز الرحيلي أمين مكتبة الملك عبد العزيز في المدينة المنورة الذي استقبلني أثناء زيارتي المملكة العربية السعودية في رمضان عام ٢٠٠٧م، وذلل الصعوبات التي واجهتني، وأخيراً أستعين بقوله تعالى.

ومن الله التوفيق.

الأوضاع السياسية في شبه الجزيرة العربية
عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى

● تمهيد ●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●●

تعد شبه الجزيرة العربية وحدة سكانية وحضارية واجتماعية متشابهة ومنسجمة، مما أدى إلى نشوء أنماط اجتماعية مشتركة لسكانها. والقبيلة هي الوحدة الاجتماعية السائدة، وهذا ساهم في نشوء كيانات سياسية تعتمد بالدرجة الأولى على النفوذ الأسري والزعامة القبلية، أو على التأثير الديني كما هو الحال في نظام الإمامة الزيدية في اليمن، والأدارسة في عسير، والإشراف في الحجاز. وعملت القوى الأجنبية على إضعاف عوامل الانسجام في المنطقة من أجل بسط نفوذها والتحكم بمقدراتها[١].

كانت النتيجة المباشرة لانتصار بريطانيا وحلفاءها في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م) انسحاب الدولة العثمانية نهائياً من شبه الجزيرة العربية بموجب هدنة موندروس التي عقدت يوم الأربعاء

---

(١) راهي مزهر عبد العامري، العلاقات الحجازية اليمنية (١٩١٦-١٩٢٥م) دراسة تحليلية في العلاقات السياسية، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا، بغداد، ٢٠٠٣م، ص١-٢.

الموافق ٣٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٨م(١)، واعترفت بريطانيا رسمياً بالشريف حسين بن علي (١٨٥٣-١٩٣١م)(٢) ملكاً على الحجاز فقط، وارتبطت بمعاهدة مع عبد العزيز بن سعود (١٨٨٨-١٩٥٣م)(٣) أمير

(١) عبد الوهاب آدم العقاب، تطور العلاقات اليمنية السعودية (١٩٤٨-١٩٧٠م)، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٩٨م، ص١٧.

(٢) ولد الشريف حسين بن علي في الآستانة عام ١٨٥٣م، عاش برعاية عمه الشريف عبدالله، درس العلوم الدينية، وتزوج من ابنة عمه (عبدية خانم) وأنجبت له أولاده الثلاثة (علي - عبدالله - فيصل)، تزوج بعد وفاتها من امرأة من كبار الأسر التركية أنجبت له (زيد - ثلاث بنات) عين شريفاً لمكة عام ١٩٠٨م أعلن الثورة العربية المشهورة على العثمانيين بمعونة البريطانيين، تنازل عن عرش الحجاز لولده علي عام ١٩٢٤م وساءت علاقته ببريطانيا فنفته لجزيرة قبرص، عاد لشرق الأردن بعد أن اشتد به المرض، وافته المنية عام ١٩٣١م ودفن عند قبة الصخرة في القدس. للمزيد من التفاصيل عن الدور الذي أداه في الجزيرة العربية وعلاقته ببريطانيا يراجع: سليمان موسى، الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى، دار النشر والطباعة والتوزيع ١٩٥٧م؛ أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين، دار الكاتب العربي، بيروت بلا؛ أمين الريحاني، ملوك العرب، المطبعة العلمية بيروت ١٩٧٠م؛ طالب محمد وهيم، مملكة الحجاز (١٩١٦ - ١٩٢٥م)، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة ١٩٨٣م.

(٣) ولد عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود بالرياض عام ١٨٨٠م تزعم الأسرة بعد وفاة والده ولقب بأمير نجد، وبعد انتصاره على ابن رشيد وضم إمارة حائل إليه أعلنه شعبه سلطاناً على نجد وملحقاتها. إلا أنه بعد دخوله الحجاز وإعلانه ملكاً عليها تبدل لقبه إلى ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها، ومن ثم لقب بملك الحجاز ونجد وملحقاتها عام ١٩٢٧م، وبعد خمس سنوات تبدل اسم المملكة السابق إلى المملكة العربية السعودية وبذلك صدر الأمر الملكي المرقم ٢٧١٦ بالموافقة على الاسم الجديد ابتداءاً من يوم الخميس الموافق ٢٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٢م وهو التاريخ الذي أصبح فيما بعد العيد الوطني للمملكة، ويعد الملك عبد العزيز مؤسس المملكة العربية السعودية الحديثة من وجهة نظر جميع الباحثين. وافته =

نجد، وكانت علاقتها جيدة مع الأدارسة في عسير، في حين فرضت سيطرتها العسكرية على جنوب اليمن وأجزاء أخرى من شبه الجزيرة العربية، وميناء الحديدة اليمني، أما شمال اليمن فكان تحت حكم الإمام يحيى بن حميد الدين (١٨٦٩-١٩٤٨م)(١) الذي حاولت بريطانيا الضغط عليه لإسكات مطالبته المستمرة بالجنوب اليمني(٢). وكانت بريطانيا قد زاد اهتمامها بسواحل شبه الجزيرة العربية الجنوبية بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩م التي أصبحت الشريان الحيوي لمستعمراتها الآسيوية(٣). وتظافرت عوامل خارجية وذاتية لإضعاف الوحدة السياسية في شبه الجزيرة العربية منها: التدخل الأجنبي

= المنية في ٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٣م انظر: عبد الرزاق خلف خميس الزيدي، التطورات الداخلية في المملكة العربية السعودية (١٩٣٢-١٩٥٣م)، رسالة ماجستير غير منشورة كلية التربية الأولى ابن رشد، جامعة بغداد ١٩٨٩، ص٢٨-٢٩؛ الملف الوثائقي للمغفور له الملك عبد العزيز آل سعود، ج٣، ص٣٤٩.

(١) ولد الإمام يحيى بن محمد حميد الدين في صنعاء عام ١٨٦٩م، وهو الإمام السابع والثمانون من الأئمة الزيديين الذين تعاقبوا على الإمامة في اليمن، بويع بالإمامة عام ١٩٠٤م، وواصل قيادة المقاومة الوطنية لاستئصال شأفة الوجود العثماني في بلاده، قتل عام ١٩٤٨م في أحداث ثورة اليمن الدستورية. للمزيد من التفاصيل يراجع: أمين الريحاني، المصدر السابق؛ أمين سعيد ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، بلا؛ أحمد قائد الصائدي، حركة المعارضة اليمنية في عهد الإمام يحيى بن حميد الدين (١٩٠٤-١٩٤٨م)، مركز الدراسات اليمنية صنعاء ١٩٨٣م.

(٢) جمعه عليوي فرحان الخفاجي، العلاقات العراقية اليمانية (١٩٣٢-١٩٦٢م)، دراسة تاريخية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية الأولى، جامعة بغداد، ص٢.

(٣) أمين سعيد، الوطن العربي، دار الهلال، القاهرة، بلا، ص٢١.

السافر في المنطقة، والصراعات الدامية بين القوى المحلية نفسها، وتوسع البعض منها على حساب الآخر[١].

وفي خضم تلك الأوضاع برزت كيانات مستقلة، لكنها كانت مقيدة بقيود ثقيلة تمثلت في المعاهدات الجائرة التي فرضتها القوى الأجنبية عليها، وأهم تلك الكيانات هي:

١- **الحجاز**: خضع الحجاز منذ أمد طويل للسيطرة العثمانية، غير أن النفوذ الفعلي كان ضعيفاً بوجه عام، وعلى الرغم من السيادة العثمانية إلّا أن الحكم الفعلي كان بيد أشراف مكة، وقد أعلن الحسين بن علي منذ وصوله لشرافة مكة عام ١٩٠٨م معارضته للسياسة المركزية التي أتبعها الاتحاديون في الحجاز فكانت علاقته بالعثمانيين متوترة عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، وأدى ذلك في النهاية إلى إعلان ثورته الشهيرة عليهم عام ١٩١٦م بمعاونة البريطانيين. وانفصلت الحجاز من الناحية الفعلية عن الدولة العثمانية في ١٠ حزيران/ يونيو ١٩١٦م - وهو يوم انطلاق الثورة - وفي غضون أشهر قليلة تم إعلان الحجاز مملكة مستقلة في الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٦م وأعلن الحسين بن علي ملكاً عليها[٢].

٢- **اليمن**: أصبح الإمام يحيى الزعيم الوطني في المنطقة الجبلية، بينما سيطر العثمانيون على المناطق الساحلية، وكانت علاقته بالعثمانيين

(١) فتوح عبد المحسن الخترش، تاريخ العلاقات السعودية اليمنية (١٩٢٦-١٩٣٤م)، منشورات ذات السلاسل، الكويت، بلا، ص١٥-١٦؛ راهي مزهر عبد العامري، المصدر السابق، ص٤.

(٢) طالب محمد وهيم، المصدر السابق، ص٣٨؛ أمين سعيد، الوطن العربي، ص١٠٣؛ عبد الرزاق خلف خميس الزيدي، المصدر السابق، ص٧-٨.

متوترة حتى عقد صلح دعان[١] معهم عام ١٩١١م، وخلال سنوات الحرب العالمية الأولى وقف الإمام يحيى على الحياد، ولم تستطع أياً من القوى الكبرى المتصارعة زحزحة موقفه الحيادي من الحرب. وبعد خروج العثمانيين من اليمن تقلد الإمام يحيى زمام الأمور في البلاد كوارث شرعي للحكم العثماني، وأخذ يتطلع لبسط نفوذه على المناطق التي أخلاها العثمانيين، وعلى المحميات في جنوب اليمن. إلّا أن الإمام الذي أعلن قيام المملكة المتوكلية اليمنية - وجد نفسه محاطاً بالخصوم: آل سعود في الشمال، والإنكليز في الجنوب، والأدارسة في الغرب، ومحروماً من الموانئ التي تغذي اقتصاد البلاد، بعد أن سلمت بريطانيا ميناء الحديدة إلى حليفها الإدريسي عام ١٩٢١م[٢].

٣- **إمارة حائل:** يتركز نفوذ أسرة آل رشيد في منطقة جبل شمر، وتنازعت السلطة السياسية في نجد مع عائلة آل سعود وأسسوا إمارتهم منذ منتصف القرن التاسع عشر، وبلغت من القوة في عهد أميرها محمد بن عبدالله الرشيد (١٨٧٢-١٨٩٧م)[٣] لدرجة أنه استولى على الرياض عام

---

(١) صلح دعان: وهو الذي عقد بين الإمام يحيى والعثمانيين في قرية دعان التي تقع فوق قمة جبل غربي مدينة عمران، وفيها اعترف العثمانيون بالشخصية الخاصة للإمام يحيى وبعض النفوذ الديني، ونظم العلاقة بينهما للاطلاع على نص الصلح يراجع: عبد الواسع بن يحيى الواسعي، تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، القاهرة ١٩٢٧م، ص٢٣٦-٢٣٩.

(٢) فاروق عثمان أباظة، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر (١٨٣٩-١٩١٨م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦م، ص٦٥٩؛ جمعة عليوي فرحان الخفاجي، المصدر السابق، ص٨.

(٣) اختلف المؤرخون في تاريخ ولادته، ويرجح أن تكون بين عامي (١٨٢٠-١٨٢٢م) في أثناء رحلة أبيه عبدالله إلى منفاه في العراق، تولى الإمارة عام ١٨٧٢م بعد مصرع ابن أخيه الأمير بندر، تعامل بنزعة دموية مع مناوئيه السياسيين من أفراد أسرته، =

١٨٨٤م، وقضى على الدولة السعودية الثانية (١٨٢٠-١٨٩١)[١] وعندما استعاد السعوديون الرياض، وأخضعوا نجد مطلع القرن العشرين طلب أمير حائل عبد العزيز بن متعب (١٨٩٧-١٩٠٦م)[٢] المساعدة من العثمانيين، إلّا أن القوات السعودية دخلت القصيم دون مقاومة كجزء من التسوية التي تمت بين الباب العالي وآل سعود عام ١٩٠٥م، والتغاضي الصريح من السلطات العثمانية[٣]. وتعرضت الإمارة إلى صراعات أسرية حادة، استمرت حتى الربع الأول من القرن الماضي أدت إلى زوال سلطتهم نهائياً، وسقوط حائل بيد عبد العزيز آل سعود عام ١٩٢١م[٤].

٤- **نجد**: نجح عبد العزيز آل سعود في انتزاع الرياض عام ١٩٠٢م من آل الرشيد[٥]، وأخذ يستعيد أملاك عائلته في نجد، مستعيناً بالقبائل

= بلغت الإمارة أقصى اتساع لها في عهده، ويعد عهده الأقوى في إمارة آل رشيد. توفي عام ١٨٩٧م، للمزيد من التفاصيل يراجع: أمين الريحاني، المصدر السابق.

(١) راهي مزهر عبد العامري، المصدر السابق، ص٣٠؛ عبد الرزاق خلف خميس الزيدي، المصدر السابق، ص٢.

(٢) هو عبد العزيز بن متعب بن عبدالله بن عبد الرشيد، سادس حكام إمارة حائل بعد وفاة عمه محمد عام ١٨٩٧م، اهتم بتوسيع رقعة الإمارة، غزا الكويت عام ١٨٩٨م وقتل في أحد المعارك التي خاضها مع عبد العزيز بن سعود عام ١٩٠٦م. للمزيد من التفاصيل يراجع: أمين الريحاني، المصدر السابق؛ أمين سعيد، ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم.

(٣) لوريمر ج. جي، دليل الخليج القسم التاريخي، ج٣، ترجمة قسم الترجمة مكتب أمير دولة قطر، الدوحة ١٩٧٥م، ص١٧٣٦-١٧٣٧.

(٤) Troeller. G, The Brith of Saudia Arabia, London 1970, P.168.

(٥) للتعرف على المحاولات التي قام بها عبد العزيز بن سعود استعادة الرياض من سيطرة آل رشيد يراجع: كريم طلال الركابي، التطورات السياسية الداخلية في نجد =

العربية في شبه الجزيرة العربية وبما أمده به البريطانيين من مال وعتاد[١]، فاسترد القصيم وفرض سيطرته على نجد عام ١٩١٢م، والإحساء عام ١٩١٣م بواسطة جيش نظامي محترف[٢]. ومما يجدر الإشارة إليه أن بريطانيا حاولت استمالة أياً من الأمراء العرب الأقوياء في شبه الجزيرة العربية. وعلى الرغم من أنها تحالفت في النهاية مع الشريف حسين الذي كان في صراع دائم مع عبد العزيز آل سعود للسيطرة على شبه جزيرة العرب[٣]، لكنها أدركت في الوقت نفسه أهمية أمير نجد

= (١٨٦٥-١٩٠٢م)، الدار العربية للموسوعات، بيروت ٢٠٠٤م، ص١٧٧-١٩١؛ صلاح الدين المختار، تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها، ج٢، مكتبة الحياة، بيروت بلا، ص٣٠-٤٤.

(١) عبد الفتاح إبراهيم، على طريق الهند، دار الشؤون الثقافية، بغداد ٢٠٠٤م، ص٣٠١؛ وقد عالج كتاب هـ. س. أرمسترونج بإسهاب لجوء العائلة الحاكمة إلى البحرين ومن ثم إلى الكويت وبأسلوب مشوق ودقيق. وكذلك الدور الذي أداه عبد العزيز بن سعود في استعادة الرياض. انظر: عبد العزيز السعود سيد الجزيرة العربية، ترجمة يوسف نور عوض، مطابع الأهرام التجارية، مصر ١٩٩١م، ص٤٧-٦٨م.

(٢) لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة عفيفة البستاني، موسكو ١٩٧١م، ص٢٤؛ جان جاك بيربي، جزيرة العرب، ترجمة نجدة هاجر وسعيد الغز، بيروت ١٩٦٠م، ص٥.

(٣) كان السياسيون البريطانيون في كل من الهند والقاهرة على خلاف شديد حول التعاون مع الزعماء العرب في شبه الجزيرة العربية، فساسة الهند أو من عرفوا بمدرسة الهند يحبذون التعاون مع عبد العزيز بن سعود لما له من دور فعال في الخليج العربي والأقطار المطلة عليه. في حين كان ساسة القاهرة أو مدرستها يرون ضرورة التعاون مع الشريف حسين بن علي وأنجاله لما لهم من نفوذ روحي على المسلمين بفعل سيطرتهم على الحرمين الشريفين، فضلاً عما يمكن أن يؤديه الإشراف من دور في التأثير على موقع بريطانيا في مصر بفعل الأهمية الإستراتيجية لقناة السويس. انظر: صادق حسن عبدالله، العراق والصراع الحجازي - النجدي صفحات من تاريخ =

لمصالحها الإستراتيجية في المنطقة، فمناطق نفوذه تمتد من الكويت إلى جبل شمر إلى حدود الربع الخالي ومن الخليج إلى الحجاز، وهي بتحالفها معه تشل حركة أمير حائل الموالي للعثمانيين الذي يهدد جناح الجيش البريطاني جنوب وادي الرافدين، ذلك دفع المعتمد البريطاني في الخليج العربي برسي كوكس Percy Cox (١٨٦٤-١٩٣٧م) إلى إيفاد الكابتن شكسبير Shakespeare إلى عبد العزيز آل سعود، الذي قتل في واحدة من المعارك التي وقعت مع ابن الرشيد أثناء مرافقته الأمير عبد العزيز[(١)] وبالتالي ضربت عرض الحائط جميع الالتزامات التي تعهدت بها للشريف حسين.

استتبت الأوضاع في نجد عشية الحرب العالمية لصالح عبد العزيز آل سعود الذي نجح في إجهاض الثورات التي قام بها أبناء عمومته الذين تحالفوا مع آل الرشيد، وفتح صفحات جديدة من العلاقات مع بريطانيا بعقده معاهدة (القطيف) يوم الأحد الموافق ٢٦ كانون الأول/ ديسمبر ١٩١٥م، وأبدى تشدداً واضحاً تجاه المسألة الحجازية، وتعززت طموحاته في إقصاء الشريف حسين عن شبه جزيرة العرب وإخضاع الحجاز عام ١٩٢٥م[(٢)].

= الحجاز والجزيرة العربية المعاصر، مجلة الخليج العربي، جامعة البصرة، المجلد ١٢، العدد ١، ١٩٨٠م، ص٨٤-٨٥؛ مؤيد عاصي سلمان وصالح محمد حاتم، الصراع النجدي الحجازي على بلدتي (الخرم وتربه) وموقف بريطانيا منه (١٩١٠-١٩١٩م) مجلة دراسات في التاريخ والآثار، جمعية المؤرخين والآثاريين في العراق، العدد السابع، بغداد ٢٠٠١م، ص١٨٢-١٨٣.

(١) عبد الفتاح إبراهيم، المصدر السابق، ص٣٠١؛ د. فان درمولين الملك بن سعود والجزيرة العربية الناهضة، ترجمة ويسي. أي. سي، دارة الملك عبد العزيز، الرياض ١٩٩٩م، ص٧٣.

(٢) وقع المعتمد البريطاني في الخليج العربي برسي كوكس مع عبد العزيز بن سعود في =

٥- **عسير**: تعد عسير جزءاً من اليمن حسب التقسيم الإداري العثماني الذي وضعوه عند احتلالهم اليمن وعسير(١)، وخضعت لنفوذ آل عائض من قبيلة مفيد العربية. ويعد عائض بن مرعي (١٨٣٤-١٨٥٦م) مؤسس إمارة آل عائض في عسير، وحشدت هذه السلالة الطاقات كلها لتحرير البلاد من الوجود العثماني(٢)، وبعد وفاة عميد الأسرة الحاكمة محمد بن عائض (١٨٥٦ - ١٨٧٢م) استغل محمد على الإدريسي (١٨٧٦ - ١٩٢٣م)(٣) انحلال الأوضاع فيها فشكل إمارته، وانطلق لمواجهة الوجود العثماني، وتحالف مع الإمام يحيى لهذا

= ٢٦ كانون الأول/ ديسمبر ١٩١٥م على المعاهدة البريطانية النجدية في جزيرة دارين المقابلة للقطيف، وصادق عليها نائب ملك بريطانيا وحاكم الهند في تموز/ يوليو ١٩١٦م. انظر نص المعاهدة في: حافظ وهبه، شبه جزيرة العرب في القرن العشرين، القاهرة ١٩٦٥م، ص٤٣٣-٤٣٤.

(١) راهي مزهر عبد العامري، المصدر السابق، ص٢٢.

(٢) للتعرف على الدور الذي أدته سلالة آل عائض في مقاومة الوجود العثماني في عسير يراجع: صباح مهدي رميض الأموي، إمارة عسير (١٨٧٦-١٩٣٢م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية الأولى (ابن رشد)، جامعة بغداد، ص٥٤ - ٧٠.

(٣) ولد محمد علي بن أحمد بن إدريس في منطقة صبيا عام ١٨٩٦م رحل إلى السودان ودرس في الأزهر وانتقل إلى ليبيا وعاد إلى صبيا عام ١٩٠٥م في وقت كانت عسير في ذروة الفوضى والاضطراب، واستطاع أن يوظف إمكانات الإدارية والسياسية والدينية العالية ليحصل على ثقة القبائل. أدى دوراً مهماً في الأحداث السياسية التي شهدتها شبه جزيرة العرب توفي في ٢٠ آذار/ مارس ١٩٢٣م وتولى حكم الإمارة بعده نجله الأكبر علي الذي ظهرت في عهده علامات ضعف الإمارة وانهيارها. للمزيد من المعلومات يراجع: فاروق عثمان أباظة، الحكم العثماني في اليمن (١٨٧٦ - ١٩١٨م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦م، ص٢٠٣ - ٢٢١؛ صباح مهدي رميض الأموي، المصدر السابق، ص٧٠ - ١٣٦.

الغرض[١]. وتعاون مع كل من بريطانيا وإيطاليا لمد نفوذه على عسير[٢]، خصوصاً بعد عقد صلح دعان عام ١٩١١م بين اليمن والدولة العثمانية، وفرض سيطرته على منطقة تهامه بما في ذلك الحديدة التي احتلتها بريطانيا بحجة وجود بعض الحاميات العثمانية فيها، ثم قامت بتسليمها له عام ١٩١٩م، وأصبحت عسير مجزءة بين آل عائض في جبالها والأدارسة في تهامتها وصار الإدريسي يتطلع إلى القضاء نهائياً على نفوذ آل عائض في عسير الجبال، وقد أثرت النزاعات الداخلية في عسير على العلاقات بين القوى المحلية في المنطقة[٣]، وأصبحت تلك التطورات فيما بعد واحدة من الأسباب الرئيسة التي دفعت بالعلاقات اليمنية السعودية إلى تجاذبات حادة.

---

(١) فاروق عثمان أباظة، المصدر السابق، ص١٩٣؛ عبد الرزاق خلف خميس الزيدي، المصدر السابق، ص١١.

(٢) بدأ الاتصال بين الإدريسي وإيطاليا عن طريق مترجم القنصلية الإيطالية في القاهرة (محمد علي علوي) عام ١٩٠٥م وتوسعت الاتصالات التي كان هدفها في البداية شراء الأسلحة الإيطالية. واتفقت رغبة إيطاليا في تحريض الإدريسي على محاربة العثمانيين مع رغبته الشخصية في إقامة إمارة مستقلة في عسير. فقدم الأسطول الإيطالي مساعدات عسكرية مباشرة للإدريسي، واستمرت تلك العلاقة لغاية انتهاء الحرب العالمية الأولى. انظر: صباح مهدي رميض الأموي، المصدر السابق، ص١١٨-١١٩. كما تفاوض الإدريسي مع البريطانيين عن طريق حكام عدن وسارع للتحالف معهم لمحاربة العثمانيين في اليمن، وانتهت تلك المفاوضات بعقد معاهدة مع البريطانيين في ٣٠ نيسان/ أبريل ١٩١٥م حصل بموجبها على مساعدات بريطانية. انظر: فاروق عثمان أباظة، الحكم العثماني في اليمن، ص٢٧٢.

(٣) محمد يحيى الحداد، التاريخ العام لليمن، التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي منذ بداية تاريخ اليمن القديم وحتى العصر الراهن، اليمن المعاصر، ج٥، بيروت ١٩٨٦م، ص٩٩.

• المراحل الأولى للعلاقات اليمنية - النجدية (١٩١٩-١٩٢٥م) • • •

من الصعب تحديد تاريخ معين لبداية العلاقة بين الإمام يحيى وعبد العزيز آل سعود، ولم تشر المصادر المتخصصة إلى وجود علاقات مباشرة بينهما حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وبعد ذلك بقليل، إذ كان كل من العاهلين منشغلاً بمشاكله الداخلية المتفاقمة والعلاقة مع العثمانيين في سنوات الحرب، إلّا أن خروج العثمانيين من المنطقة أدت إلى أن يكونا وجهاً لوجه، وقد ساهمت المواقف السياسية والحوادث العرضية، والنزعات الفردية إلى توتر العلاقة بين اليمن ونجد منها:

■ حادثة تنومه:

دفعت التطورات الداخلية في عسير (الحسن بن علي بن عائض) إلى التحالف مع ملك الحجاز، والثورة على الإدريسي عام ١٩٢٠م، الأمر الذي حمل الإدريسي بدوره إلى التحالف بعبد العزيز آل سعود، وهو ما كان يتمناه أمير نجد لتحقيق الأمل الذي ظل يراوده للسيطرة على الجزيرة العربية ووضع خططه لتحقيق ذلك بـ: قمع آل عائض في عسير الجبال والسيطرة عليها أولا، وبذلك سيوقف تقدم الإمام يحيى نحو عسير وتضييق نفوذه في جبال اليمن، ومن ثم عزل القوات الحجازية والانقضاض عليها، وبسط نفوذه على الأدارسة في عسير[1]. وفعلاً أرسل عبد العزيز آل سعود قوة عسكرية لضرب آل عائض وكسر شوكتهم في عسير. وقد تزامن هذا الحدث وصول حشد من الحجاج اليمنيين الذي ظل الطريق في وادي تنومه، فاصطدمت به القوات النجدية وإبادتهم جميعاً إلّا من استطاع الهرب منهم، وكان النجديون يظنون أن هؤلاء الحجاج كانوا

---

(١) المصدر نفسه، ص٩٩-١٠٠.

نجدة من الإمام يحيى إلى ملك الحجاز في صراعه مع بن سعود، وقد قدرت المصادر عدد القتلى ما يقرب من (٥،٠٠٠) حاج وعدد الناجين حوال (٧) حجاج فقط[١]. وكان لهذا الحادث أثره السيئ في نفوس اليمنيين، وتوقع الكثيرون أن يكون سبباً في نشوب حرب بين البلدين[٢].

استنكر الإمام يحيى بشدة هذا الحادث البشع، وبعث برقيه إلى عبد العزيز آل سعود بهذا المعنى، فرد عليه عبد العزيز آل سعود بأنه يبرأ إلى الله من هذا الحادث، وأنه لا علم له به، وأمر بجمع المؤن الخاصة بالضحايا وإرسالها لصنعاء، ومن ثم أرسل المبالغ اللازمة إلى الإمام يحيى تعويضا لُعوائل الحجاج، وعبر عن أسفه ثانية للإمام يحيى لهذا الحادث المفجع، وأمر بمعاقبة المتسببين به، وأكد أن الحادث لم يكن مقصوداً. وعلى الرغم من تسوية هذه الحادثة إلّا أنها زادت من حدة التوتربين الإمام يحيي وعبد العزيز بن سعود، بسبب مشاكل الحدود في عسير، وموقف الإمام يحيى المساند لملك الحجاز في حربه مع بن سعود، الأمر الذي دفع الإمام يحيى إلى زيادة عدد قواته في المخافر المجاورة لمنطقة عسير، وحاول الإيقاع بين عبد العزيز والإدريسي بهدف زعزعة الاستقرار الداخلي في نجد، متهماً بن سعود بعرقلة وصول الحجاج إلى العتبات المقدسة.

---

(١) سيد مصطفى سالم، المصدر السابق، ص١٤٩-١٥٠. أشارت بعض المصادر إلى أن قافلة الحجاج اليمنين أثناء مرورها في مقاطعة أبها، استقبلها العامل السعودي هناك وأكرمهم، ونصحهم بالسير في طريق أمن غير الطريق الذي سلكوه الذي يعد أحد ميادين المعارك النجدية الحجازية، إلّا أنهم لم يسمعوا النصيحة. انظر: فتوح عبد المحسن الخترش، المصدر السابق، ص١١٧؛ عبدالله عبد الكريم الجرافي، المقتطف من تاريخ اليمن، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة ١٩٥١م، ص١٠٠؛ عبد الواسع بن يحيى الواسعي، المصدر السابق، ص٢٤٦.

(٢) مجلة لغة العرب ج١، السنة الرابعة، تموز/ يوليو ١٩٢٦م، ص٥٤.

حاول السلطان عبد العزيز تفادي الصدام العسكري مع اليمن بكل السبل اللازمة، فأرسل رسالة إلى الإمام يحيى أعرب فيها عن أمله في تسوية المسائل المعلقة بين البلدين، وعقد صلح بينهما، وأكد فيها عدم وجود أطماع نجدية في اليمن، أو أغراض شخصية مع الإمام، وأنه يسعى لإحلال السلام الدائم بين البلدين الجارين وبعد فشل المحاولات كلها للتوصل إلى اتفاق بين الإمام يحيى وابن سعود، قام الأخير بتعزيز علاقاته مع الأدارسة في عسير[(١)].

■ اليمن والصراع النجدي - الحجازي:

أدى الصراع النجدي - الحجازي إلى أن يتنبه أمراء شبه الجزيرة العربية إلى شخصية عبد العزيز بن سعود التي فرضت نفسها بقوة في مجرى الأحداث في شبه الجزيرة العربية، وكان هذا الحدث في الوقت نفسه بداية العلاقة المباشرة بين عبد العزيز بن سعود والإمام يحيى. إن استيلاء العاهل السعودي على المناطق المقدسة دفعه لترتيب وتنظيم العلاقة مع العالم الإسلامي برمته، فأسرع إلى عقد مؤتمر إسلامي في مكة وأرسل دعوات إلى جميع ملوك وأمراء وسلاطين العالم الإسلامي، والهيئات الإسلامية العالمية المختلفة للتفاهم معهم حول المسائل المتعلقة بالحرمين الشريفين، وكان الإمام يحيى بالطبع من بين المدعوين لحضور هذا المؤتمر[(٢)] وقد حملت الدعوة الموجهة للإمام يحيى الكثير من عبارات التبجيل والمودة، إلّا أن هذه الدعوة لم تكن الاتصال الأول بين العاهلين، بل سبقتها اتصالات لكنها كانت غير مباشرة[(٣)].

---

(١) صباح مهدي رميض الأموي، المصدر السابق، ص١٤٩-١٥٠.

(٢) سيد مصطفى سالم، المصدر السابق، ص٣٣٧-٣٣٨.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٣٨.

وكان الإمام يحيى قد شجب القتال الدائر بين نجد والمملكة الحجازية وعزم على التدخل لإنهائه، فبعث برقيتين: الأولى إلى الملك علي والأخرى للسلطان عبد العزيز يحثهما على إيقاف القتال، واحترام الأراضي المقدسة وقبوله حكما بينهما. فأجابه الملك علي بالإيجاب، أما السلطان عبد العزيز فأجابه أنه دعا المسلمين إلى مؤتمر في مكة يبحث أمر الحجاز ويرجوه حضور المندوب اليمني فيه[١]، ولم يخف الإمام يحيى موقفه المنحاز للحجاز فدعا إلى عقد معاهدة تحالف دفاعية بين المملكتين اليمنية والحجازية، لا سيما بعد تدهور الموقف العسكري الحجازي، ورجحان كفة القوات النجدية، تهدف إلى: توحيد المواقف السياسية بين البلدين من التطورات في شبه الجزيرة العربية والمحافظة على استقلال الحجاز، وتوازن القوى في المنطقة، وصد الهجمات النجدية[٢].

وجاءت تلك الدعوة منسجمة مع عواطف الشعب اليمني، فالعدوان النجدي على الأماكن المقدسة أوغر صدر الشعب اليمني برمته كما وصفته جريدة حضرموت. وقد أضفى الإمام يحيى على مواقفه من القضية الحجازية منذ البداية طابعاً دينياً يفرضه عليه واجب الإمامة والخلافة

---

(١) أمين الريحاني، نجد الحديث وملحقاته وسيرة عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها، دار الريحاني للطباعة والنشر، ط٢، بيروت ١٩٥٤م، ص٤١٨. افتتح بن سعود سلطان نجد مؤتمر مكة في ٨ حزيران/ يونيو ١٩٢٦م للنظر في المسألة الحجازية ومستقبلها. انظر: مجلة لغة العرب، ج١، السنة الرابعة، تموز/ يوليو ١٩٢٦م، ص٥٤.

(٢) جريدة حضرموت، العدد ٧١، ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٢٥م. إلّا إن هذه المعاهدة لم يقدر لها أن توضع موضع التنفيذ بسبب الانتصارات النجدية المتلاحقة. انظر فتوح عبد المحسن الخترش، المصدر السابق، ص١١٦.

لحماية الأراضي المقدسة، وهذا من وجهة نظر الإمام سيتيح له التسليم بحقه في الخلافة[١]. وثمة أمر آخر هو أن انتماء البيتين الحاكمين في كل من مكة وصنعاء إلى بيت الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم كان سبباً للتقارب اليمني الحجازي، وهذا يفسر التقارب الذي حصل فيما بعد بين الإمام يحيى والمملكة العراقية[٢].

تناولت المادة الخامسة من مسودة المعاهدة ما نصه:

«عند ظهور عدو مشاق للطرفين إذا لزم لأحدهما إمداد من الثاني فعلى من تطلب منه الإعانة إعانة الطالب بمقدار ما يدخل تحت إمكانه من مال أو رجال أو سلاح أو معدات حربية، وعلى الطالب للإمداد بالرجال لوازم المطلوبين مع التأمينات اللازمة»[٣].

وهي إشارة صريحة لاستعداد اليمن للتدخل عسكرياً في الصراع الدائر بين البلدين.

ومما زاد في حماس اليمنيين قيام القوات النجدية باحتلال مدينة (البيشة) الواقعة على بعد (٣٥) ميلاً شمال صبيا[٤]. ونتج عن تلك التطورات تبلور موقفين: شعبي ورسمي فالقبائل اليمنية من جانبها سارعت إلى إرسال الشيخ محمد بك العبدلي أحد رؤساء القبائل في منطقة القنفذة مبعوثاً لملك الحجاز وحملوه رسالة عبروا فيها عن استعدادهم لتجنيد قوة قبلية قوامها (١٢،٠٠٠) مقاتل للقتال جنباً إلى

---

(١) جريدة حضرموت، العدد ٦٩، ١٥ أيلول/ سبتمبر ١٩٢٥م.

(٢) سيد مصطفى سالم، المصدر السابق، ص٣٣٩.

(٣) مقتبس في: المصدر نفسه، ص٣٤٠.

(٤) جريدة حضرموت، العدد ٦٣، ٢٣ تموز/ يوليو ١٩٢٥م.

جنب مع القوات الحجازية[١] أما الإمام يحيى فقد قرر إرسال جيش يمني إلى الحجاز للتأثير في الموقف العسكري لصالح الملك حسين، ووضع حد للحرب الطاحنة بين نجد والحجاز[٢].

جهز الإمام يحيى حملة عسكرية قوامها (١٤،٠٠٠) مقاتل بقيادة عبدالله بن الوزير، على أن تتقدم من الحديدة إلى جدة لنصرة الجيش الحجازي، وقد ذهب الإمام يحيى إلى أبعد من ذلك عندما عزم الذهاب بنفسه لتخليص البيت الحرام والمرقد النبوي الشريف من الاحتلال النجدي قبل موسم الحج من العام التالي[٣]. إلّا أن الظروف التي عاشتها شبه الجزيرة العربية عموماً لم تكن تسمح بمثل هذا التدخل، لذلك سلك الإمام يحيى طريقاً جديداً لتسوية النزاع هو: أنه قاد حملة سياسية دعا فيها العالم العربي والإسلامي للتدخل السريع لحل المعضلة باعتبارها تخص العرب والمسلمين جميعهم[٤]. فوجه نداءاً إلى الدول العربية والإسلامية والدول الأخرى لوضع حد للتوسع النجدي في الحجاز، ولقيت دعوته استجابة دولية وعربية وإسلامية حيث قامت بالتوسط لوقف القتال[٥]، إلّا أن تلك الوساطات كانت

---

(١) جريدة حضرموت، العدد ٥٠، ١٢ آذار/ مارس ١٩٢٥م.

(٢) جريدة حضرموت، العدد ٦٧، ٢٧ آب/ أغسطس ١٩٢٥م.

(٣) جريدة المفيد، العدد ٤٩٤، ٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٢٥م.

(٤) أدرك عبد العزيز بن سعود إن هناك من يضمر التدخل في شؤون الحجاز، ويحشد الرأي العام العربي والإسلامي لهذا الغرض، إلّا أن التدابير الداخلية الخاصة بالحجاج، والتحرك الدولي حال دون تدويل المسألة الحجازية. انظر: أحمد عسة، معجزة فوق الرمال، المطابع الأهلية اللبنانية، ط٢، بيروت ١٩٦٦م، ص١٠٨ - ١٠٩.

(٥) جريدة المفيد، العدد ٥١٨، ٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٢٥م. من الوفود التي =

تصطدم كل مرة بالتزمت النجدي. وبعد فشل جميع الدعوات السلمية الدولية، وتدخل الهيئات الإسلامية رأى الإمام يحيى أن استخدام القوة هو الطريق الوحيد لحل المشكلة وإيقاف القتال، وإخراج القوات النجدية من الحجاز، فأجرى الإمام اتصالات ومشاورات مع زعماء الجمعيات الإسلامية لهذا الغرض، وتم الاتفاق معهم على قيام قوات (يمنية - أفغانية - فارسية) مشتركة لمساندة الحجازيين، ومنع ذهاب الحجاج لإداء فريضة الحج بسبب سيطرة القوات النجدية على الأماكن المقدسة، وبذل الجهود اللازمة لوضع هذا المنع موضع التنفيذ[1] إلّا أن الضغط النجدي المتواصل، وحالة الفوضى في الحجاز، وانفضاض الكثير من القبائل عن ملك الحجاز، أدى إلى أن تشارف المقاومة الحجازية على الانهيار، واضطر الملك علي بن الحسين أخيراً إلى التسليم بالأمر الواقع، وأعلن موافقته على الشروط النجدية وتسليم جده يوم الخميس الموافق ١٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٥م[2] ودخلها السلطان عبد العزيز منتصراً في ٢٤ كانون الأول/ ديسمبر

= توسطت لحسم الصراع النجدي الحجازي: الوفد المصري الذي بعثه الملك فؤاد برئاسة محمد مصطفى المراغي قاضي قضاة مصر. والوفد الإيراني برئاسة السفير الإيراني في مصر. والسر كلبرت كلايتون Sir Gilbert Clayton (١٨٧٥ - ١٩٢٩م) ومستشاره العراقي توفيق السويدي. فضلاً عن وفدين من الحجاج الهنود. انظر: أمين الريحاني، نجد الحديث وملحقاته، ص٤١٩ - ٤٢٠.

(١) جريدة حضرموت، العدد ٩٨، تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٦م.

(٢) عالج أمين الريحاني - وهو شاهد عيان على الأحداث التي وقعت في الجزيرة العربية - بإسهاب عملية التسليم ومغادرة الملك علي جدة، ومبايعة السلطان عبد العزيز ملكاً على الحجاز. انظر:
نجد الحديث وملحقاته، ص٤٢١-٤٣٠.

١٩٢٥م، واستقبل وجوه المدينة وعلماءها، ومعتمدي الدول الإسلامية والأجنبية الذين قدموا التهاني له بهذه المناسبة(١).

وإذا ما أردنا تقويم الموقف اليمني من الصراع النجدي الحجازي يتضح لنا: إن القوات اليمنية، الرسمية منها والقبلية لم تشترك على الإطلاق في العمليات العسكرية، وأن التصريحات التي أطلقت بين الحين والآخر لم تأخذ طريقها للتنفيذ. وإن تلك الأحداث السياسية تعد جميعها مقدمات لوقوف الملكين اليمني والسعودي أمام بعضهما وجهاً لوجه بعد أن تماست حدودهما، وزاد دخول الأدارسة تحت الحماية السعودية في تعكير الأجواء وتعقيد العلاقات بين البلدين.

● تطور العلاقات اليمنية - السعودية (١٩٢٦-١٩٣٣م): ●●●

■ الحماية السعودية على عسير:

ظهرت علامات انهيار إمارة عسير في عهد الإمام علي بن محمد الإدريسي، فتخلى عن المناطق المجاورة إلى ميناء الحديدة إلى الإمام يحيى. واكتفى بمنطقتي (صبيا - جيزان) الأمر الذي أثار حفيظة قبائل الإمارة، فتنازل عن حكم الإمارة إلى عمه الحسن الإدريسي(٢)، وأبدى الإمام الجديد حال تبوءه المنصب رغبته في توطيد العلاقة مع عبد العزيز آل سعود، وجاءت هذه الرغبة متطابقة مع رأي القبائل العسيرية(٣)،

---

(١) أحمد عسة، المصدر السابق، ص١٠١؛ واتجه بن سعود في بداية الأمر لإنشاء إدارة مؤقتة في الحجاز، فعين حافظ وهبة حاكماً إدارياً لمكة وبعث بقوات كافية لإحكام السيطرة على المدن الحجازية الأخرى. انظر: هـ. س. أرمسترونج، المصدر السابق، ص١٩٩.

(٢) صباح مهدي رميض الأموي، المصدر السابق، ص١٥٠-١٥١.

(٣) جريدة حضرموت، العدد ١١٩، ٢٤ أيار/ مايس ١٩٢٧م.

واستغل بن سعود ذلك فسعى لوضع عسير تحت حمايته بأشراف أمامها الحسن الإدريسي، وقد تحقق ذلك بالفعل عندما طلب الحسن الإدريسي بنفسه الحماية السعودية على إمارته، درءاً للخطر اليمني، فأرسل وفداً إلى نجد برئاسة الميرغني الإدريسي لعقد اتفاقية الحماية، وعقدت في يوم الأحد الموافق ٢١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٢٦م عرفت بمعاهدة مكة المكرمة[١].

أرسل بن سعود على الفور نسخة من نص المعاهدة المذكورة مع كتاب منه إلى الإمام يحيى يرجوه فيه أن يصدر أوامره لقادته العسكريين ورؤساء القبائل بالكف عن مهاجمة الأدارسة لأنهم أصبحوا تحت حمايته، وكانت قوات الإمام يحيى حينذاك تحاصر مدينتي (صبيا - جيزان) المعقلين الرئيسين للأدارسة، فلم يكن أمام الإمام يحيى غير اختيار أحد أمرين: الاعتراف بالمعاهدة أو مواصلة الزحف وإعلان الحرب مع بن سعود[٢]. إلّا أنه أثر في نهاية المطاف تسوية مسألة عسير بالطرق السلمية، لأن ظروفه السياسية والعسكرية غير ملائمة لمواجهة عسكرية مع بن سعود[٣].

وصل الوفد السعودي الذي حمل معاهدة الحماية لعرضها على الإمام إلى صنعاء يوم السبت الموافق ٤ حزيران/ يونيو ١٩٢٧م، ودارت بين الوفد والإمام يحيى من جهة وبينه وبين ممثلي الإمام من جهة أخرى

---

(١) للتعرف على نص المعاهدة يراجع: سيد مصطفى سالم، المصدر السابق، ص٥٢٩-٥٣١؛ صباح مهدي رميض الأموي، المصدر السابق، ص١٨٣-١٨٤.

(٢) محمد يحيى الحداد، المصدر السابق، ص١٠٢.

(٣) كان الإمام مشغولاً في تلك الأثناء بإخماد الثورات الداخلية بين الجماعات الزيدية والشافعية، فضلاً عن توتر علاقته ببريطانيا في الجنوب. انظر: سيد مصطفى سالم، المصدر السابق، ص٣٤٣؛ جريدة الأهرام القاهرية بتاريخ ١٣ تموز/ يوليو ١٩٢٨م.

مباحثات طويلة بلغت سبع عشرة جولة، وكان موقف اليمن من الموضوع: إن عسيراً جزء لا يتجزأ من اليمن وأن الأدارسة غاصبون ودخلاء، ولم يتم الاعتراف بمعاهدة الحماية. وعاد الوفد السعودي إلى مكة المكرمة وعرض خلاصة أعماله على الملك عبد العزيز، فصدر له أمر بالرجوع إلى صنعاء والتفاق على إبقاء الحالة الراهنة ووضع الترتيبات المؤدية لتعيين الحدود بين عسير ونجران من جهة واليمن من جهة أخرى، فعاد الوفد إلى صنعاء، واستمرت مباحثاته بين شهري كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٧م وكانون الثاني/ يناير ١٩٢٨م، وكان تركي بن ماضي (أحد المفاوضين السعوديين) قد بعث رسالة إلى الملك عبد العزيز من صنعاء أوضح فيها: إن للإمام يحيى أطماع غريبة وأهداف غامضة، وأنه يراوغ كثيراً في النقاط التي يمكن التوصل إلى اتفاق بشأنها، وأنه لا يريد حسم الأمور والاعتراف بحدود معلومة، كما أنه ليس لديه نوايا عدوانية في الوقت الحاضر(١) وانتهت المفاوضات وعاد الوفد السعودي ومعه ثلاثة مفاوضين يمنيين إلى مكة المكرمة في آذار/ مارس ١٩٢٨م، وجرت مباحثات لكنها كانت غير منتجة بسبب عدم امتلاك الوفد اليمني الصلاحيات الكافية للبت في أي موضوع(٢).

أرسل الملك عبد العزيز رسالة في يوم السبت الموافق ٢٣ حزيران/ يونيو ١٩٢٨م إلى الإمام يحيى جدد فيها علاقات الصداقة بين البلدين وختمها بالقول:

«إني قبل أن أختم كتابي هذا، يحب أخوكم أن يشرح لكم الثلاث مواد الآتية لأنها هي المحور الذي سيدور عليه كل اتفاق في المستقبل.

(١) سيد مصطفى سالم، المصدر السابق، ص٣٤٥.

(٢) صباح مهدي رميض الأموي، المصدر السابق، ص١٥٦.

أولاً: إننا نحب الاتفاق مع حضرتكم، ونرى أن ذلك أبكى للعدو وأسر للصديق.

ثانياً: أنه ليس لدينا أغراض أو مطامع سواءاً فيما يتعلق بشخصكم أو بوطنكم وكل ما نرمي إليه هو السعي للاتفاق وراحة وطنكم ورعيتكم.

ثالثاً: إننا بقدر ما نستطيع سنمنع كل ما يوجب سوء التفاهم أو يحدث المشكلات بيننا وبينكم، وأننا سنبذل جهدنا في توطيد السلام إلّا ما يوجبه الدفاع عن الكرامة والشرف. .. وكل ما لدينا قد أبديناه شفاها لمندوبيكم»(١).

ويبدو أن الطرفين قد اتبعا ولو بصورة مؤقتة سياسة المحافظة على الأوضاع الراهنة وأخذ كل منهما يعمل على تقوية وضعه في المناطق الحدودية واستمرت الأوضاع معلقة حتى عام ١٩٣١م أملاً في الوصول إلى وضع نهائي مستقر، حتى قامت حادثة جبل العرو التي عكرت الأجواء السياسية بين البلدين من جديد(٢)

■ تجدد النزاع الحدودي:

تجددت الأزمة ثانية عندما احتلت قوات الإمام يحيى جبل العرو على حدود عسير، وأخذت عدداً من الرهائن، وحرضت قبائل المنطقة على التخلي عن التزاماتهم مع آل سعود تحت ذريعة إن الحدود في هذه المنطقة غير واضحة، ولا توجد خرائط معتمدة يمكن الرجوع لها عند وقوع نزاعات حدودية(٣).

(١) مقتبس في: سيد مصطفى سالم، المصدر السابق، ص٣٤٦.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٤٧.
(٣) صباح مهدي رميض الأموي، المصدر السابق، ص١٦٥.

بعث الملك عبد العزيز رسالة للإمام يحيى ذكر فيها أنه يستبعد أن يكون الإمام قد أصدر أمراً بالزحف على جبل العرو[١] ودعا إلى الإخلاص للإسلام والمسلمين، وإلى أن تسود حالة السلم بين العرب والمسلمين عموماً، وبين اليمن ومملكة نجد والحجاز وملحقاتها بصورة خاصة[٢]. ولأجل تقريب وجهات النظر وتخفيف حدة التوتر أعلن عبد العزيز آل سعود تنازله عن جبل العرو إلى اليمن، واقترح أجراء مفاوضات لتسوية المسائل المعلقة، وجرت مباحثات بين الطرفين لكنها كانت غير مثمرة كسابقاتها، مما دفع الإمام يحيى أن يبعث برقية للملك بن سعود يدعوه إلى إيجاد الحل المناسب، بعدها جرت سلسلة من الاجتماعات بين الطرفين، وتم التوقيع على المعاهدة التي سميت بمعاهدة العرو يوم الثلاثاء الموافق ١٥ كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٣١م[٣]، وتم العمل بها بعد أن صادق عليها الملكان في كانون الثاني/ يناير عام ١٩٣٢م[٤].

رأى الملك عبد العزيز آل سعود ضرورة استئناف المفاوضات مع اليمن والتوصل إلى حلول جذرية لمسألة الحدود، لا سيما وأن معاهدة العرو عالجت الأمور بصورة مؤقتة. إلّا أنه انشغل في إخماد الثورات التي اندلعت في شمال الحجاز، ومما زاد الموقف تعقيداً أن هؤلاء الثوار اتخذوا من ميناء اللحية اليمني القريب من الحدود السعودية مركزاً متقدماً لنشاطهم. وعندما أبلغ الملك عبد العزيز الإمام يحيى بهذا الأمر، أعرب الأخير عن عدم قدرته في منع نشاطاتهم العدوانية، وعدم

---

(١) سيد مصطفى سالم، المصدر السابق، ص٣٥٩.

(٢) صباح مهدي رميض الأموي، المصدر السابق، ص١٦٦.

(٣) انظر نص المعاهدة في: سيد مصطفى سالم، المصدر السابق، ص٥٣٨-٥٤٠.

(٤) صباح مهدي رميض الأموي، المصدر السابق، ص١٦٧.

تسليمهم، وأدى هذا الموقف بالطبع إلى امتعاض الملك عبد العزيز، لأنه يتعارض كلياً مع معاهدة العرو التي لم يجف مدادها بعد.

بعث الملك عبد العزيز رسالة إلى الإمام يحيى يوم الأحد الموافق ٩ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٢م اقترح فيها وضع تسوية شاملة ونهائية لجميع المشكلات بين البلدين، فأجاب الإمام بالموافقة على جميع النقاط التي أثارها الملك في رسالته. وهكذا قبل الطرفان التفاوض لوضع تسوية نهائية لجميع المشاكل العالقة بينهما[١]، إلّا أن قيام الحسن الإدريسي بنقض معاهدة مكة المكرمة حال دون الاستمرار.

بعدما أدرك الحسن الإدريسي حجم الخطأ الذي ارتكبه بإبرام معاهدة مكة المكرمة مع عبد العزيز بن سعود وقبوله بالحماية السعودية، التي قلصت الكثير من صلاحياته واختصاصاته في عسير، أصبحت تلك المعاهدة من وجهة نظره الشرك الذي وقع فيه. كل ذلك دفعه إلى الاتصال بالقوى المحلية المناوئة للملك عبد العزيز، وكان من الطبيعي أن يطلب المال والسلاح من الإمام يحيى لتفجير الموقف العسكري في عسير[٢]، وقام بتحشيد القبائل العسيرية والهجوم على نجران أواخر عام ١٩٣٢م ومن ثم اعتقل أمير جيزان السعودي فهد بن زعير وبعض المندوبين السعوديين وألقى بهم في السجن، وبعث في الحال برقية للملك عبد العزيز أوضح فيها الدوافع التي كانت وراء ذلك. فرد عليه بن سعود مقترحاً تشكيل لجنة سعودية لدراسة الأوضاع في المنطقة، وما إن وصلت اللجنة حتى تأكدت بشكل لا لبس فيه أن

(١) سيد مصطفى سالم، المصدر السابق، ص٣٦٣-٣٦٤.
(٢) الملف الوثائقي للمغفور له الملك عبد العزيز آل سعود، ج٣، ص٣٧٩-٣٨٠؛ أحمد حسين شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، القاهرة ١٩٦٣م، ص٢١٣.

الإدريسي يهدف لإلغاء معاهدة الحماية ومن ثم التخلص من النفوذ السعودي بصورة نهائية، فقامت القوات السعودية بمهاجمة جيزان وفرضت السيطرة عليها ثانية، وفرّ الحسن الإدريسي والقبائل العسيرية المحاربة إلى الأراضي اليمنية جنوب عسير على مقربة من الحدود السعودية[١]، ومن هناك اتصل الإدريسي بالإمام يحيى طالباً اعتباره وجماعته وأفراد أسرته لاجئين سياسيين، فاستجاب الإمام لطلبهم وأمر ببقائهم في منطقة تدعى (زهب حجر)[٢] فكان من الطبيعي أن تتصدر مسألة تسليم الإدريسي المفاوضات اليمنية - السعودية المرتقبة. فأبرق الملك عبد العزيز آل سعود إلى الإمام يحيى يطلب منه تسليم الحسن الإدريسي ومساعديه عملاً بما اتفق عليه بمعاهدة العرو المبرمة بين البلدين عام ١٩٣١م. غير أن الإمام يحيى رفض تسليمهم للسعودية تعبيراً عن تعاطفه معهم، وتمسكاً بالعادات والتقاليد العربية والإسلامية التي تستوجب حماية المستغيث مهما كانت النتائج. وقد تفهم الملك السعودي موقف الإمام يحيى هذا[٣]. وعرض الإمام وساطته لحل مشكلة الحسن الإدريسي، وبناء على ذلك عقد اجتماع في مدينة (ميدي) اليمنية في ٢٤ شباط/ فبراير ١٩٣٣م بين وفد سعودي برئاسة تركي بن ماضي وبين شيخ قبيلة المسارحة ممثلاً عن الأدارسة بحضور القاضي عبدالله العرشي حاكم ميدي ممثلاً عن الإمام، واقترح الوفدين (اليمني والإدريسي) إعادة الأمور إلى وضعها السابق، والاعتراف بالحسن

(١) سيد مصطفى سالم، المصدر السابق، ص٣٦٥؛ أحمد حسين شرف الدين، المصدر السابق، ص٢٨٣.

(٢) أحمد حسين شرف الدين، المصدر السابق، ص٢٨٤.

(٣) صلاح العقاد، المشرق العربي - دراسة تاريخية، القاهرة (١٩٩٢-١٩٩٣م)، ص٥٨٤.

الإدريسي أميراً لعسير تحت الحماية السعودية وفقاً لمعاهدة مكة عام ١٩٢٦م، فرفض الوفد السعودي المقترح جملة وتفصيلاً مؤكداً ضم عسير نهائياً للملكة العربية السعودية. إلّا أن الإمام استطاع إقناع الملك عبد العزيز إصدار عفو عن جميع اللاجئين لليمن، وحصوله على عفو خاص عن الحسن الإدريسي، وتقديم مساعدة مالية له مقدارها (٢٥٠٠) ريال شهرياً(١).

■ ازدياد التعقيد - واندلاع الحرب اليمنية السعودية عام ١٩٣٤م:

بعد تخلصه من الأدارسة في عسير أراد الملك عبد العزيز معالجة المشكلات الحدودية العالقة مع اليمن بصورة نهائية فأرسل وفداً لصنعاء للدخول في مفاوضات بين البلدين، إلّا أنه في هذه الأثناء حصل ما لم يكن بالحسبان، بدخول القوات اليمنية إلى نجران(٢) بعد أن أصدر الإمام يحيى أوامره بذلك(٣). وبررت اليمن هذا الفعل بأنه يرتبط بضرب الجيوب المتمردة المَدعومة من القبائل اليامية في نجران. مما دفع ولي العهد أحمد نجل الإمام يحيى - محارب العائلة الحميدية والمدافع القوي عن عرشها لملاحقة المتمردين الفارين إلى نجران(٤).

---

(١) عبد الرزاق خلف خميس الزيدي، العلاقات اليمنية السعودية (١٩٣٢-١٩٧٠م)، أطروحة دكتوراه، كلية التربية (ابن رشد) جامعة بغداد ١٩٩٦م، ص٢٧.

(٢) نجران: منطقة صحراوية تسكنها قبائل عديدة أهمها: (يام) الذين ينتمون للطائفة الإسماعيلية، وتركزوا في منطقة ذات ظروف جغرافية ودفاعية حصينة، مكنتهم من الوقوف بوجه جميع المحاولاتِ التي استهدفت إخضاعهم لحكومة مركزية قوية من القوى المجاورة، وبقوا تابعين لزعيمهم الديني الإسماعيلي ولمشايخ قبائلهم. انظر: عبد الرزاق خلف خميس الزيدي، العلاقات اليمنية السعودية، ص٢٧-٢٨.

(٣) سيد مصطفى سالم، المصدر السابق، ص٣٦٧.

(٤) عبدالله عبد الكريم الجرافي، المصدر السابق، ص٢٤٤.

أثارت هذه الحادثة السلطات السعودية التي عدتها تهديداً لها وعدواناً مباشراً عليها، فنجران جزء من أراضيها ولا يمكن التخلي عنها إطلاقاً لليمن لكنها ومن منطق عدم إثارة الطرف المقابل - آثرت أن تكون نجران منطقة محايدة بين المملكة العربية السعودية والمملكة المتوكلية اليمنية، ويديرها أبنائها من الطائفة الإسماعيلية[1].

حاول الملك عبد العزيز أن لا يتسرع باتخاذ إجراء عسكري مضاد خصوصاً وأن وفده موجود في صنعاء لإجراء مباحثات هناك. وكان واضحاً إن الإمام يحيى أراد إطالة أمد المباحثات حتى يستكمل الجيش اليمني الإمساك بنجران فتوجه إلى منطقة عمران بحجة المرض، وحاجته الماسة لأطباء من مصر والعراق. وبدأت الجلسة الأولى من المباحثات يوم ٢٩ تموز/ يوليو بين الوفد السعودي المؤلف من خالد أبو الوليد القرقني (مستشار الملك) والشيخ حمد السليمان وزير المالية وتركي بن ماضي أمير عسير، والوفد اليمني المؤلف من القاضي عبدالله العمري والقاضي عبدالله المطهر (مستشار الإمام). وكانت وجهات نظر المتفاوضين متعارضة اشد التعارض. فالجانب السعودي: شدد على تخطيط الحدود على أساس اتفاقية العرو عام ١٩٣١م وبموجبها فأن عسيراً ونجران تتبعان للمملكة العربية السعودية، وأن يتم تسليم الإدريسي للحكومة السعودية أو نقل مقر إقامته من المناطق الحدودية إلى مكان آخر داخل اليمن. أما الجانب اليمني: فأنه عد معاهدة العرو غير مصادق عليها من العاهلين وهي - على هذا الأساس - لا تعدو أن تكون اتفاقاً مؤقتاً بين حاكم مدينة ميدي وبعض الأمراء السعوديين. وطالب الوفد اليمني صراحة تخلي الملك عبد العزيز عن عسير بعد أن

(١) عبد الرزاق خميس خلف الزيدي، العلاقات اليمنية السعودية، ص٢٨.

انتفت معاهدة الحماية على عسير وزاد من سقف مطالباته بضم منطقة نجران الشمالية الخاضعة للسعوديين إلى المملكة اليمنية، وتمسك كلا الوفدين برأيه، ولم يبد أي منهما أية مرونة تذكر، فوصلت المفاوضات إلى طريق مسدود. أراد الوفد السعودي العودة إلى بلاده في تموز/ يوليو ١٩٣٣م، إلا أن الإمام يحيى طلب منه البقاء خمسة أيام أخرى ليتولى بنفسه استكمال المفاوضات. ويبدو بوضوح إن الإمام أراد بذلك الاستفادة من الوقت لفرض السيطرة الكاملة على نجران ووضع المملكة العربية السعودية أمام الأمر الواقع كما فعل ذلك في السابق في حادثة جبل العرو. ولم يكن ممكناً والوضع كذلك أن تنتهي المفاوضات التي أجراها الإمام بنفسه مع المفاوضين السعوديين يومي ٢٢-٢٣ تموز/ يوليو ١٩٣٣م إلّا إلى الفشل الذريع، وعاد الوفد السعودي لبلاده يوم ٢٤ تموز/ يوليو في الوقت الذي ازدادت حدة التوتر بين البلدين الجارين. وكان الوفد قد حمل رسالة من الإمام يحيى للملك السعودي يوضح فيها وجهة نظره من دخول القوات اليمنية إلى نجران، ويطالبه بأن يعيد النظر بمسألة عسير التي تعد من الناحية التاريخية - حسب زعمه - من الأراضي اليمنية. وقد حصل أثناء مكوث الوفد السعودي الطويل نسبياً في صنعاء أنه لم يتمكن من الاتصال برقياً بحكومته مما خلق شكوكاً سعودية أنه واقع تحت الحجز، وكان من الطبيعي أن يثير ذلك حفيظة الجانب السعودي، فاحتج الملك عبد العزيز بشدة لدى الإمام يحيى إلّا أن الأخير خفف الأمر وأوضح أن انقطاع الاتصال بين الوفد وحكومته كان بسبب خلل في أجهزة الاتصال في الحديدة[١].

رد الملك عبد العزيز رداً قاسياً - بعض الشيء - هذه المرة، وطلب

(١) المصدر نفسه، ص٢٩-٣٠.

من الإمام اتخاذ موقف واضح وحاسم إزاء القضايا المطروحة، متهماً إياه بالمماطلة والمراوغة والتسويف. هذا فضلاً عن التقارير الورادة من عيون الملك عبد العزيز في المناطق الحدودية التي تفيد: أن هناك تحركات مريبة من جانب القوات اليمنية ومحاولة تحريض القبائل السعودية ضد الملك عبد العزيز. وكان هذا كله كافياً لأن يصدر الملك عبد العزيز أوامره في ١٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٣م بحشد القوات العسكرية على حدود اليمن لتفادي المفاجئات غير المتوقعة، إلّا أن المراسلات لن تنقطع بين الملكين وإن كانت قد اتخذت طابعاً أكثر حزماً من ذي قبل من جانب الملك عبد العزيز[١]. فشدد في رسالة بعث بها إلى الإمام في ٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٣م على مطالبه الثلاثة وهي:

١ - الاعتراف بالحدود وتثبيتها بمعاهدة مكتوبة.

٢ - حل مسألة نجران بأن تكون منطقة محايدة.

٣ - إعادة المتمردين الأدارسة وإذا تعذر ذلك يتم نقلهم إلى صنعاء[٢].

أدت هذه المراسلات إلى حلحلة العقد، فوافق كل من الإمام والملك على نقل الإدريسي إلى مدينة زبيد، واقترح الإمام حلاً لمسالة الحدود هو: عقد معاهدة سليمة أخوية لمدة (٢٠) عاماً يكون فيها لكل طرف ما تحت يده من البلاد، فوافق الملك عبد العزيز على ذلك.

وفي أثناء تبادل الرسائل تلك كانت البرقيات المتعاقبة ترسل إلى الملك عبد العزيز من حاكم عسير السعودي حمد الشويعر يوضح فيها تحركات القوات اليمنية على الحدود وتقدمها نحو جبال عسير، وعثوره

---

(١) سنت جون فيلبي، المصدر السابق، ص٣٧٨؛

Wernner M. W. modern Yeman the Johnshopkhns press Marland 1967, P.145.

(٢) سيد مصطفى سالم، المصدر السابق، ص٣٧٥.

على رسائل من الحسن الإدريسي لشيوخ القبائل في عسير تدعوهم للثورة على السلطات السعودية. وعلى الرغم من هذه التطورات استمرت المراسلات بين العاهلين والتي مهدت إلى عقد مؤتمر لوضع التسوية النهائية للمشكلات العالقة بين البلدين الشقيقين[١].

عقد المؤتمر في ١٦ شباط/ فبراير ١٩٣٤م في منطقة أبها في عسير بين مندوبي الطرفين إلّا أنه كان امتداد للمؤتمرات والمفاوضات الفاشلة، فكان كل طرف يتمسك بمطالبه ويقدم الأدلة والبراهين التي تؤكد أحقيته بنجران[٢]. فأصدرت وزارة الخارجية السعودية بلاغاً يوم ٢٢ آذار/ مارس جاء فيه:

«لقد استنفدت حكومتنا جميع الوسائل السلمية بالطرق السياسية للاتفاق مع سيادة الإمام يحيى، لكن سيادته بقي مصراً وماضياً في خطته العدائية، من احتلاله لجبال تهامة... وقد أصدر الملك أمره إلى ولي العهد بالتقدم إلى الحدود لاسترجاع البلاد التي كان الإمام يحيى احتلها منتهزاً فرصة توقف جنودنا ابتغاء الصلح فحسبنا الله ونعم الوكيل»[٣].

جاءت تلك التطورات بعد أن نفذ صبر الملك عبد العزيز من عناد جاره ورأى إن المباحثات مهما طالت لن تؤدي إلى اتفاق ودي. فأرسل إنذاراً نهائياً في ربيع عام ١٩٣٤م بالزحف على اليمن إذا انقضى الموعد المحدد وهو ٥ نيسان/ أبريل ١٩٣٤م، إذا لم يتم الاستجابة للمطالب

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٧٦.

(٢) عبد الرزاق خلف خميس الزيدي، العلاقات اليمنية السعودية، ص٣٣-٣٤؛ أمين ساعاتي، الحدود الدولية للملكة العربية السعودية - التسويات العادلة، مصر ١٩٩١م، ص١٥٠.

(٣) مقتبس في: فتوح عبد المحسن الخترش، المصدر السابق، ص٢٢٨.

السعودية(١). ومضى الموعد المحدد دون أن يكترث الإمام يحيى بالإنذار، فنفذت القوات السعودية الأوامر الصادرة لها من الملك. فتقدمت قوتان، الأولى: بقيادة الأمير فيصل بن عبد العزيز مخترقة تهامة إلى أن بلغت ميناء الحديدة. والثانية: بقيادة سعود بن عبد العزيز، التي صادفت عقبات منعتها من تحقيق أهدافها كاملة. وقد ظهرت بعض قطع الأساطيل الأوروبية في ميناء الحديدة تحت ذريعة الوصول إلى تسوية بين المملكتين(٢). وقد اتضح - حسب جريدة المصور القاهرية - إن إنكلترا وإيطاليا كانتا تهدفان لإضعاف الدولتين الشقيقتين، لكي تحتل الأولى الجزء الشمالي من الحجاز، والثانية الجزء القريب من الشواطئ اليمنية، وقد نزل بحارتهما إلى الحديدة، إلّا أن الموقف الصارم من الأمير فيصل الذي أبلغهما بعدم التدخل في الصراع القائم فانسحبت القوتان الإنكليزية والإيطالية(٣).

كان الأمير سعود بن عبد العزيز يقود جيش الصحراء، وكان عليه أن يشق طريقه في الجبال، فكان تقدمه بطيئاً بسبب وعورة المنطقة. أما جيش تهامة الذي يقوده الأمير فيصل بن عبد العزيز فقد واجه مقاومة كبيرة في الأودية، إلّا أن شدة الهجوم مكن القوة السعودية من أن تشق طريقها بقوة، وكان الزحف التالي سهلاً، بحيث حطمت الجهود الضعيفة المبذولة من القوات اليمنية لإيقاف تقدمها، وسقطت الحديدة في يد الأمير فيصل الذي كان بوسعه الزحف باتجاه تهامة على حدود عدن، أو الزحف نحو صنعاء نفسها، أو القيام بكلتا العمليتين معاً بسبب انهيار

(١) سنت جون فيلبي، المصدر السابق، ص٣٧٨؛ جريدة الأهرام القاهرية، ١٦ نيسان/ أبريل ١٩٣٤م.

(٢) عبد الرزاق خلف خميس الزيدي، العلاقات اليمنية السعودية، ص٣٨-٣٩.

(٣) جريدة المصور القاهرية، العدد الصادر في ١٥ حزيران/ يونيو ١٩٣٤م.

المقاومة اليمنية، وقد استغرق إخضاع الحديدة ومنطقة تهامة الواقعة شمالها أسابيع ثلاثة فقط. وكانت ثلاثة أسابيع أخرى - على حد قول جون فيلبي - كافية لإضافة اليمن للممتلكات الوهابية[١]. إلا أن الملك عبد العزيز تعامل بحذر مع ما تبقى من مشروعه في اليمن، وأصدر أوامره إلى فيصل بأن لا يتقدم وراء الحديدة في أي حال من الأحوال. بينما أمر الأمير سعود بالبقاء في المكان المحدد سابقاً كي يكون حداً بين السعودية واليمن[٢].

وهناك إشارة مهمة وردت في جريدة المصور القاهرية هي: إن جون فيلبي المقيم في الحجاز كان يعارض كل المعارضة تسوية النزاع القائم بالطرق السلمية، وكان يدفع باتجاه قيام الجيش السعودي بالمضي في تقدمه في عمق الأراضي اليمنية[٣]. وهو أمر متوقع يؤكد التدخل الأجنبي لبث الفرقة بين الأشقاء لتحقيق المصالح الاستعمارية.

وأود الإشارة إلى أن الخوض في تفاصيل الفعاليات الحربية بين الجيشين اليمني والسعودي لا يدخل ضمن أهداف هذا البحث، وعموماً يمكن القول إن القوات السعودية حققت أهدافها كاملة مما دفع الإمام يحيى بأن يبعث برقية إلى الملك عبد العزيز في ١٢ نيسان/ أبريل

---

(١) سنت جون فيلبي، تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية، تعريب عمر الديراوي، المكتبة الأهلية بيروت، بلا، ص٣٧٨-٣٧٩.

(٢) للتعرف على الدور الذي أداه الأمير فيصل في الحرب اليمنية - السعودية يراجع: محمد حرب، الملك فيصل بن عبد العزيز، دار الفكر اللبناني، بيروت ١٩٩١م، ص٣١-٣٤؛ عبد الرحمن بن عبد العزيز بن سليمان الحصين، فيصل بن عبد العزيز آل سعود وجهوده في القضايا العربية والإسلامية (١٩٠٦-١٩٧٥م)، الرياض ٢٠٠١م، ص٥٥-٦٨.

(٣) جريدة المصور القاهرية العدد الصادر في ١٥ حزيران/ يونيو ١٩٣٤م.

١٩٣٤م يطلب الهدنة، ذكر فيها إنه أصدر الأوامر بجلاء القوات اليمنية عن نجران، بعد ذلك وضع الملك عبد العزيز شروطاً أربعة للموافقة على طلب الإمام يحيى هي:

١ - الجلاء عن نجران.

٢ - تسليم الرهائن من القبائل السعودية.

٣ - الكف عن تحريض الحكومة اليمنية للقبائل الخاضعة لآل سعود.

٤ - تسليم الحسن الإدريسي طبقاً لمعاهدة ١٥ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣١م[١].

اهتم الرأي العام العربي الإسلامي بالحرب التي اتقدت نارها في الجزيرة العربية[٢]. وقد أخذ المؤتمر الإسلامي في القدس على عاتقه القدر الأكبر من المسؤولية لدرجة لم ترتق لها المواقف الرسمية العربية التي اكتفت بالوقوف على الحياد أو المناشدات، وشكل وفداً مؤلفاً من كل من: الحاج أمين الحسيني (فلسطين) ومحمد علي علوية باشا (مصر) والأمير شكيب أرسلان (سوريا) فيما جرت محاولات لضم ياسين باشا الهاشمي (العراق) إلى الوفد. وشاركت هذا النخبة بدور فعال في تقريب وجهات النظر بين البلدين الشقيقين، وتابعت أحداث تلك الحرب حتى نهايتها وتنقلت بين اليمن والحجاز لإنهائها ووقفها[٣].

أصدرت وزارة الخارجية السعودية بلاغاً يوم السبت الموافق ٢٨ نيسان/ أبريل ١٩٣٤م قالت في:

---

(١) سيد مصطفى سالم، المصدر السابق، ص٣٩٧؛ أمين سعيد، تاريخ الدولة السعودية، مج٢، ص٣٧٧.

(٢) جريدة اللطائف المصورة، العدد الصادر بتاريخ ١٨ حزيران/ يونيو ١٩٣٤م.

(٣) جريدة اللطائف المصورة، العدد الصادر بتاريخ ٤ حزيران/ يونيو ١٩٣٤م.

«بناءاً على قبول الإمام تسليم الإدريسي وإخلاء الجبال وتسليم الرهائن، بدأت مفاوضات الهدنة، وقد أمر الملك عبد العزيز جيشه بالتوقف في الأماكن التي احتلتها ووقف القتال في جميع الميادين»[١].

وقد تقابل مندوبو الدولتين في الطائف في ١٨ أيار/ مايس ١٩٣٤م، وترأس الوفد اليمني عبدالله بن الوزير، وتمت المفاوضات في أجواء ودية وتحت رعاية لجنة الصلح المؤلفة من وفد المؤتمر الإسلامي. وقد وقع المندوبين نصوص المعاهدة في ٢٠ أيار/ مايس، وقد تأخر إبرام المعاهدة من الملكين بسبب تردد الإمام يحيى، وكادت الأجواء تتوتر ثانية، وقد أعطى الملك عبد العزيز موعداً نهائياً هو ٢٨ أيار/ مايس ١٩٣٤م لتنفيذ الشروط جميعها، فوافق الإمام عليها واتخذت الترتيبات اللازمة لتنفيذها وقد تم المصادقة على المعاهدة في ١٨ حزيران/ يونيو من الملك عبد العزيز، و١٩ حزيران/ يونيو من الإمام يحيى، وتم نشرها في كل من مكة وصنعاء والقاهرة ودمشق يوم ٢٣ حزيران/ يونيو، وأطلق عليها «**معاهدة الصداقة الإسلامية والأخوة العربية**»[٢]، وفي ٢٧ حزيران/ يونيو أعلنت الحكومة السعودية إيفاء اليمن بجميع الشروط المتفق عليها وجلاء الزيديين عن عسير[٣]. وسارت الدولتان في تثبيت الحدود التي نصت عليها المعاهدة سيراً حثيثاً، وألفت لجنة لترسيم الحدود، وخلال عام ١٩٣٥م أنهت أعمالها بتثبيت أعمدة الحدود التي بلغت (٢٤٠) عموداً على طول الخط الممتد من شاطئ البحر شمال (ميدي) إلى حافة الربع

---

(١) أمين سعيد، تاريخ الدولة السعودية، مج٢، ص٣٧٩.

(٢) للاطلاع على نص المعاهدة: انظر: أمين ساعاتي، المصدر السابق، ص١٥١-١٥٨.

(٣) سيد مصطفى سالم، المصدر السابق، ص٤٢٣-٤٢٤؛ عبد الرزاق خلف خميس الزيدي، العلاقات اليمنية السعودية (١٩٣٢-١٩٧٠م)، ص٥١.

الخالي الذي يبلغ طوله حوالي (٤٠٠) ميل[١]. وهكذا أسدل الستار عن حقبة قلقة ومضطربة وفتحت صفحة جديدة من العلاقات الأخوية بين البلدين الشقيقين[٢].

منذ انتهاء الحرب لم تنشأ مشاكل بين البلدين باستثناء حادثة وقعت في موسم الحج من السنة التالية كادت أن تعكر الأجواء ثانية هي: إن الملك عبد العزيز أثناء طوافه في الكعبة المشرفة، وما كاد ينهي طوفته الثالثة ويباشر بالرابعة هاجمه ثلاثة يمنيين بالخناجر، إلّا أن الأمير سعود اتخذ من نفسه سياجاً لحماية والده، فأصيب بجروح في ظهره وكتفه، بعدها أطلق الحرس الملكي النار على المهاجمين فسقطوا صرعى[٣].

لم يكن لهذه الحادثة تأثيراً سلبياً في علاقات البلدين، ونجح الملك السعودي في كتم غضبه، وحرص على أن لا يجعل من هذه الحادثة العرضية سبباً لمشاكل جديدة بينه وبين جاره الإمام يحيى، خاصة إن

---

(١) سيد مصطفى سالم، المصدر السابق، ص٤٢٧.

(٢) أصدرت وزارة الخارجية السعودية عام ١٩٣٤م (الكتاب الأخضر) المعنون (بيان عن العلاقات بين المملكة العربية السعودية والإمام يحيى بن حميد الدين) تناول بإسهاب المفاوضات بين الجانبين اليمني والسعودي ويعد هذا الكتاب من الوثائق العربية المهمة، ولم يتيسر لي الاطلاع عليها. انظر: صلاح الدين المختار، المصدر السابق، ج٢، ص٤٠٢-٤٠٣.

(٣) سنت جون فيلبي، تاريخ نجد، ص٣٨٠؛ صلاح الدين المختار، المصدر السابق، ج٢، ص٤٠٣؛ سيد مصطفى سالم، المصدر السابق، ص٤١٤؛ وقد أقامت بلدية جدة احتفالاً كبيراً للملك عبد العزيز ابتهاجاً بنجاته من محاولة الاغتيال حضره إضافة للملك الوزراء المفوضين لعدد من الدول الأجنبية كروسيا وبريطانيا وفرنسا وأفغانستان وإيران إضافة إلى المسؤولين السعوديين. انظر: الملف الوثائقي للمغفور له الملك عبد العزيز آل سعود، ج٣، ص٣٠١-٣٠٢.

الحكومة اليمنية تبرأت من تبعة الحادثة في بيان أصدره الإمام في أعقاب التحقيق الشامل الذي أجرته حكومته. وهذا يثبت حكمة العاهلين في معالجة المشكلات الطارئة ونواياهما الصادقة لفتح صفحات جديدة من العلاقات الودية والمستقرة بينهما. واستطاع البلدان بعد ذلك من إنجاز ومتابعة تنفيذ بنود معاهدة الطائف، وفي الوقت نفسه جرى تبادل وثائق اتفاقية أخرى عدت ملحقاً للمعاهدة، احتوى على نص التقرير الذي أعدته لجان ترسيم الحدود بعد انتهاء أعمالها، وقام مندوباً البلدين بالتوقيع عليه[١].

• تطور العلاقات اليمنية - السعودية وانضمام اليمن لمعاهدة الأخوة والتحالف عام ١٩٣٧م

أفسحت معاهدة الأخوة والتحالف التي عقدت بين المملكة العراقية والمملكة العربية السعودية في ٢ نيسان/ أبريل ١٩٣٦م[٢] المجال للدول العربية المستقلة الانضمام إلى المعاهدة. كما أشارت المادة السادسة منها

---

(١) عبد الرزاق خلف خميس الزيدي، العلاقات اليمنية السعودية (١٩٣٢-١٩٧٠م)، ص٧٩-٨٠.

(٢) دعا ملك العراق فيصل الأول (١٩٢١-١٩٣٣م) منذ مطلع الثلاثينات لإقامة حلف عربي فأوفد في ٢٥ آذار/ مارس ١٩٣١م وفداً برئاسة نوري سعيد إلى عُمان والحجاز واليمن، ليفاوض حكوماتها في مشروع الحلف العربي، ولما تولت الوزارة الأيوبية الأولى (آب/ أغسطس ١٩٣٤ - آذار/ مارس ١٩٣٥م) فاتح رئيس الوزراء علي جودت الأيوبي الوزير السعودي المفوض في لندن حافظ وهبه في موضوع عقد معاهدة أخوة وتحالف بين الممالك العربية، ووضع مشروعاً لذلك لقي استحسان الوزير السعودي فبعث به إلى ملكه عبد العزيز الذي وافق بدوره على المشروع دون إبطاء. انظر: عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، ج٤، بيروت ١٩٧٤، ص١٩٧.

صراحة إلى أن الفريقين المتعاقدين يسعيان لطلب انضمام حكومة اليمن إليها[١]. وبعد إقرار المعاهدة المذكورة من مجلس النواب العراقي بالإجماع في ٩ نيسان/ أبريل ١٩٣٦م بعثت الحكومة العراقية نسخة منها إلى الحكومة اليمنية، وطلبت بيان موقف الإمام يحيى منها، وملاحظاته عليها.

تلقى الملك غازي برقية من الإمام يحيى في ١٦ نيسان/ أبريل ١٩٣٦م شكره فيها وبارك ما تم الاتفاق عليه، ورد عليه الملك غازي برسالة تناول فيها أهمية المعاهدة والنتائج الإيجابية التي تترتب عن انضمام اليمن إليها، وأوعزت وزارة الخارجية العراقية إلى مفوضيتها في جدة بسفر عبدالله بن رشيد لنقل رسالة الملك غازي إلى الإمام يحيى لإقناعه بالانضمام إلى معاهدة الأخوة والتحالف[٢].

وبعد أن تسلم الإمام رسالة الملك غازي أجاب قائلاً:

«أنا أبارك بما تم من عقد معاهدة الأخوة، وفي الحقيقة لا نعتقد أنه يمكن تغذية القلوب بأحلى وأرفع وأجل من التبشير بإتمام مثل هذا العقد المبارك... وما تصبو إليه النفوس من أحكام أواصر الإخاء وعلائق المحبة والوداد لا بين مملكة جلالتكم ومملكة جلالة الملك عبد العزيز فحسب، بل بين الممالك الإسلامية كلها»[٣]. وهي إشارة واضحة على موافقة الإمام بالانضمام للمعاهدة.

وفي يوم ٦ حزيران/ يونيو ١٩٣٦م وصل إلى بغداد وزير القصر اليمني محمد الزبارة الحسني وسكرتيره محمد أبو طالب موفدين من

---

(١) المصدر نفسه، ج٤، ص٢٠١.
(٢) جمعة عليوي فرحان الخفاجي، المصدر السابق، ص٨٥-٨٦.
(٣) مقتبس في: المصدر نفسه، ص٨٦.

قبل الإمام يحيى للتداول في موضوع انضمام اليمن إلى هذه المعاهدة وأجرى مفاوضات أولية في بغداد وتقرر مواصلتها في صنعاء[١].

ألفت الحكومة العراقية وفداً مؤلفاً من: جميل المدفعي - سعيد الحاج ثابت - محمد مهدي كبة يحمل كتاباً من الملك غازي إلى الإمام يحيى يدعوه إلى الانضمام للمعاهدة، وقد غادر الوفد بغداد في ١٦ آذار/ مارس ١٩٣٧م متوجهاً إلى الشام ومن ثم إلى صنعاء واستقبل هناك بحفاوة كبيرة من الجانب اليمني[٢]. وقد قابل الوفد الإمام يحيى، وشرح رئيس الوفد جميل المدفعي فوائد المعاهدة لليمن، وأعرب الإمام عن استعداده للتعاون بكل ما من شأنه تعزيز المصلحة العربية. وتشكل وفد يمني برئاسة القاضي عبدالله العمري، وعقد عدة جلسات مع الوفد العراقي انتهت بالاتفاق على انضمام اليمن للمعاهدة، ووقع الإمام يحيى وثيقة الانضمام في ٢٩ نيسان/ أبريل ١٩٣٧م. ومما تجدر الإشارة إليه هو أن الإمام لم يوقع على نص المعاهدة السعودية العراقية نفسها التي وقعت في بغداد عام ١٩٣٦م، بل إنه اختار بعض موادها فقط، وقيل إن الإمام يحيى كتب المعاهدة بخط يده[٣].

تألفت المعاهدة من مواد عشرة: دعت إلى ضرورة التشاور بين الحكومات الثلاث في الأمور المهمة واللجوء إلى التحكيم عند نشوب أي نزاع بينهم، وتقديم المعونة اللازمة لرد أي اعتداء عسكري يتعرض له أي طرف من الأطراف، والتعاون للقضاء على الاضطرابات الداخلية التي تحدث في هذا البلد أو ذاك، فضلاً عن التعاون الدبلوماسي

---

(١) عبد الرزاق الحسني، المصدر السابق، ج٤، ص٢٠٣.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٦٩.

(٣) جمعة عليوي فرحان الخفاجي، المصدر السابق، ص٨٨.

والثقافي والعسكري، وحددت مدة العمل بالمعاهدة عشر سنوات. وفي طريق عودته للعراق زار الوفد المملكة العربية السعودية وقابل الملك عبد العزيز لاطلاعه على وثيقة انضمام اليمن، وأظهرت الحكومة السعودية ارتياحها لانضمام اليمن وترحيبها بجهود العراق[١].

أرسلت الحكومة السعودية من جانبها محمد شيخو أحد موظفي وزارة الخارجية السعودية إلى صنعاء لتبادل إبرام المعاهدة المذكورة موقعة من الإمام يحيى ابن حميد الدين بنسختين إلى كل من الملكين غازي وعبد العزيز وتم إبرامها في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٧م[٢]، وبموجب المادة السادسة من المعاهدة، وتعبيراً عن روح التضامن والأخوة، وتوطيداً للحلف الثلاثي، فوض الإمام يحيى المملكة العربية السعودية لتمثيل بلاده لدى الدول الأوروبية في قضية فلسطين.

وفي مطلع عام ١٩٣٩م بعث الإمام يحيى برقيتين إلى العاهلين العراقي والسعودي كمحاولة لتنشيط وتفعيل معاهدة الأخوة والتحالف، دعاهما إلى تنفيذ بنود المعاهدة خصوصاً في موضوع إنشاء طرق المواصلات وتسريع الاتفاقيات الاقتصادية وتسهيل التبادل التجاري[٣].

ومهما تكن النتائج التي تحققت من المعاهدة فأنها تعد خطوة متقدمة على وفق مقاييس الحقبة التي تأسست فيها، ووسيلة مناسبة لتحقيق التوازن السياسي في منطقة المشرق العربي، لدرء الأطماع

---

(١) المصدر نفسه، ص٨٩-٩٠.

(٢) للاطلاع على نص المعاهدة يراجع: سيد مصطفى سالم، المصدر السابق، ص٥٧٦-٥٨١.

(٣) عبد الرزاق خلف خميس الزيدي، العلاقات اليمنية السعودية (١٩٣٢-١٩٧٠م)، ص٩٠.

الأجنبية التي تتهدد المنطقة على الدوام. فضلاً عن أنها ساهمت مساهمة إيجابية في استقرار العلاقات اليمنية - السعودية على نحو يختلف كل الاختلاف عما شهده البلدان في السنوات السابقة.

• الخاتمة

توصل البحث إلى جملة من الاستنتاجات أهمها أن العلاقات اليمنية السعودية ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية (١٩١٩-١٩٣٩م) اتسمت بالصراع المستمر، وقد وضع الصراع النجدي الحجازي العاهلين اليمني والسعودي وجهاً لوجه، بسبب الموقف اليمني المنحاز للحجاز، كما أن مشكلة عسير أدت إلى تأزم العلاقات وكانت المقدمة للصدام العسكري بين البلدين الشقيقين. وزاد من حدة التوتر والصدام قيام القوات اليمنية بالاستحواذ على نجران. وقد بذل الملك عبد العزيز بن سعود محاولات كثيرة وجادة من أجل تفادي الحرب، إلّا أنه في كل مره كان يصطدم بالتزمت والمراوغة التي لازمت موقف أمام اليمن يحيى بن حميد الدين. وكان كل طرف من الطرفين يعمل على التوسع على حساب الطرف الآخر ولا سيما في عسير. وقد أجبرت المواقف اليمنية المتزمتة الملك عبد العزيز آل سعود إلى اللجوء إلى الحل العسكري الذي عجزت كل المحاولات لتفاديه مما أدى إلى اندلاع الحرب اليمنية السعودية عام ١٩٣٤م، وانتهت برضوخ الإمام يحيى للمطالب السعودية بتوقيع معاهدة الطائف عام ١٩٣٤م.

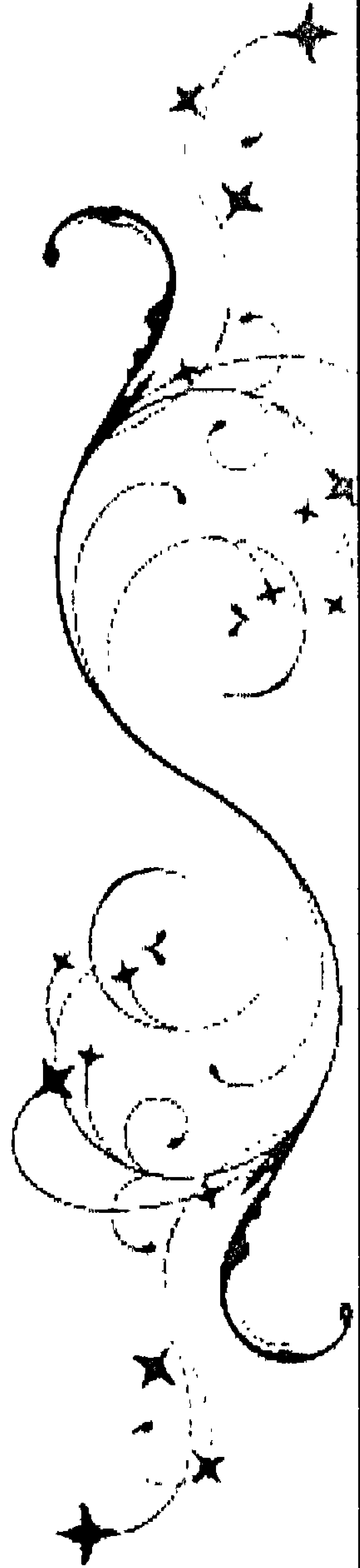
وساهمت القوى الأجنبية المتواجدة في المنطقة ولا سيما بريطانيا وإيطاليا في تأجيج الصراع بين البلدين الشقيقين.

أصبحت معاهدة الطائف الركيزة المتينة التي بنيت فوقها العلاقات اللاحقة بين المملكة اليمنية والمملكة العربية السعودية، وأصبحت مثالاً

يحتذى به لتنظيم العلاقات الودية السلمية بين القوى المحلية في شبه الجزيرة العربية. وهذا يفسر انضمام اليمن إلى معاهدة الأخوة والتحالف الموقعة بين العراق والسعودية في نيسان/ أبريل ١٩٣٧م.

الفصل السابع

المجالس المحلية في اليمن
دراسة في تطور التجربة الديمقراطية



مقدمة
الفصل السابع

اهتم الباحثون بدراسة التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي للوطن العربي، فضلاً عن دراسة الشخصيات السياسية التي أدت أدواراً إيجابية كانت أم سلبية، وفي التاريخ السياسي، عنيت دراساتهم بالتقلبات السياسية والحروب والعلاقات الخارجية لهذا البلد أم ذاك، إلّا أنها أغفلت دراسة التجارب الديمقراطية. ولما كانت التجربة الديمقراطية في الوطن العربي لم تنضج بعد نتيجة لعوامل ذاتية وموضوعية، فقد حاولت التصدي لهذا النوع من البحوث، وتأتي أهميته في أنه يسلط الضوء على تطور تجربة المجالس المحلية في اليمن والظروف والملابسات التي مرت بها اليمن في تاريخها المعاصر، ومما شجعني على الكتابة هو تواجدي في اليمن الشقيق عامي (٢٠٠٣-٢٠٠٤م) وقربي من المصادر والمراجع المتعلقة بالموضوع.

استعرض البحث الخلفية التاريخية للإدارة المحلية في اليمن في العهد العثماني (١٨٧٦-١٩١٨م)، والمحاولات العثمانية الأولى، لإنشاء مجالس محلية في الألوية والأقضية التي أطلق عليها مجالس الإدارة، ثم تناول الإدارة المحلية في اليمن في المراحل الأخيرة من الحكم الإمامي (١٩١٨-١٩٦٢م)، الذي اعتمد على التقاليد القبلية في

إدارة شؤون البلاد - فعلى مستوى الإدارة المركزية - على سبيل المثال - لا توجد أجهزة بالمعنى المتعارف عليه وكان المسؤولون الإداريون يتفننون في أساليب الابتزاز والتنكيل بالأهالي وهؤلاء جميعاً ما هم إلّا خدماً للإمام، هذا فضلاً عن العزلة الخانقة التي شهدتها البلاد في حقبة الإمامة الزيدية.

كما ناقش البحث تبلور مفهوم المجالس المحلية في العهد الجمهوري بعد قيام ثورة ٢٦ أيلول/ سبتمبر ١٩٦٢م والتي تعد نقطة تحول حقيقية في تاريخ اليمن المعاصر، حيث حاولت بناء الدعائم المهدمة في المجتمع اليمني. وشهد هذا العهد صدور الوثائق الدستورية والقانونية التي وضعت الركائز الأساسية لتجربة المشاركة الشعبية في الشأن المحلي، ونجحت في التغلب على الكثير من الصعوبات، وقد تتوجت تلك الجهود بصدور القانون رقم ٤ لعام ٢٠٠٠م، وقيام الانتخابات المحلية عام ٢٠٠١م، وانعقاد المؤتمر الأول للمجالس المحلية عام ٢٠٠٢م.

اعتمد البحث على جملة من المصادر والمراجع أهمها:

المصادر الوثائقية التي صدرت من الجهات الرسمية والشعبية، خصوصاً تلك التي أصدرتها وزارة الإدارة المحلية، والإتحاد التعاوني.

واستفاد البحث من بعض المراجع منها:

سيد مصطفى سالم، تكوين اليمن الحديث - اليمن والإمام يحيى (١٩٠٤-١٩٤٨م)، ط٤، القاهرة ١٩٩٣م.

فاروق عثمان أباظة، الحكم العثماني في اليمن (١٨٧٦-١٩١٨م)، الهيئة المصرية للكتاب، الإسكندرية ١٩٨٦م.

وتأتي أهميتهما في أنهما اعتمدنا بدرجة كبيرة على المصادر

الأصيلة، ولا يمكن لأي باحث في تاريخ اليمن الحديث والمعاصر إلّا أن يرجع لهما. وكذلك مؤلفي **أحمد محمد الحربي**:

المجالس المحلية والتطوير التعاوني.

تنظيم الإدارة المحلية والتنمية الذاتية.

فقد اعتمدنا على الوثائق الرسمية التي أصدرتها الحكومة اليمنية، واستفاد البحث من مراجع أخرى لا يعني عدم ذكرها التقليل من قيمتها العلمية، كالمؤلفات والرسائل الجامعية والصحف.

وأخيراً أقول إذا كان ليس من حقي الإشارة إلى الصعوبات التي واجهتها في إنجاز هذا البحث فأن من واجبي أن أتقدم إلى اليمن الشقيق وإلى أساتذة كلية الآداب والألسن في جامعة ذمار وطلبتها الذين غمرونا بالحب والرعاية التي كنا بأمس الحاجة لها، ونحن نعاني من الغربة التي ألمت بنا بسبب الاحتلال الأمريكي البغيض للوطن، وإلى موظفي المكتبات في جامعة صنعاء وذمار، وإلى رئيس وأعضاء المجلس المحلي في محافظة ذمار الذين قدموا المساعدة لنا في إنجاز هذا البحث، ولهؤلاء جميعاً مني كل الحب والتقدير، ومن الله التوفيق.

الإدارة المحلية في اليمن

(نبذة تاريخية)

الإدارة المحلية في العهد العثماني (١٨٧٢-١٩١٨م)

فرضت الدولة العثمانية سيطرتها على اليمن في أعقاب زوال دولة المماليك في مصر وبلاد الشام عام ١٥١٦م، عندما جهز العثمانيون أسطولاً حربياً في السويس لمواجهة الخطر البرتغالي[١] لسواحل شبه الجزيرة العربية، وإعادة الطريق التجاري إلى مصر[٢]، وقد وصل

(١) للاطلاع على موقف الدولة العثمانية من الغزو البرتغالي للمياه العربية يراجع: نايف محمد حسن الأحبابي، الموقف العربي والإقليمي من الغزو البرتغالي للخليج العربي (١٥٠٧ - ١٦٥٠م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد ١٩٨١م؛ صالح أوزبران، الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي (١٥٣٤ - ١٥٨١م)، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة.

(٢) عرض القائد البرتغالي (أفونسوا لبوكيرك) Da Al buququne عام ١٥٠٤م على ملك البرتغال خطة شاملة امتزجت فيها الأهداف الاقتصادية والدينية لضرب النفوذ الإسلامي في البحار الشرقية، وكسر احتكار العرب التجاري، والسيطرة على منافذها المعروفة متمثلة بالبحر الأحمر والخليج العربي، ومضائق مالقا وتحويلها إلى رأس الرجاء الصالح، وفي عام ١٥٠٦م كلف البوكيرك نفسه لتنفيذ هذه الخطة. للمزيد من التفاصيل يراجع: محمد عبد العال أحمد، البحر الأحمر والمحاولات الأولى للسيطرة عليه، نصوص مستخلصة من مشاهدات المؤرخ اليمني بامخرمه كما سجلها في مخطوط قلادة النحر، القاهرة ١٩٨٠م، ص٩٩؛ بانيكار. ك. م، آسيا =

الأسطول العثماني إلى عدن عام ١٥٣٨م، وبعد فشل مهمته في إقصاء البرتغاليين في المحيط الهندي، ركز قائد الأسطول جهده للاستيلاء على اليمن، فدخل ميناء «المخا» ثم ميناء «الصليف» واستولى على مدينة «زبيد»، وأصبحت اليمن منذ ذلك التاريخ خاضعة للنفوذ العثماني. إلّا أن الثورات الداخلية التي قادها الأئمة الزيديون المتعاقبون[١] أدت إلى زعزعة وجودهم وإقصائهم عن البلاد عام ١٦٣٥م، وهي المدة التي أطلق عليها المؤرخون بالاحتلال العثماني الأول لليمن (١٥٣٨-١٦٣٥م).

تمتعت اليمن بعد هذا التاريخ بالاستقلال قرابة قرنين تحت حكم الأئمة الزيديين، والمشايخ والرؤساء المحليين، إلّا أن النزاعات الداخلية، وتنافس المشايخ والأئمة أدت إلى إضعاف سلطة الإمامة، مما شجع دخول قوات محمد علي باشا (١٨٠٥-١٨٤٩م) إلى اليمن. كما أن التدخل البريطاني مع أطراف أخرى أعاق مشروعاته هناك، وأخرجت قواته عام ١٨٤٠م[٢].

حاول العثمانيون ملء الفراغ الذي خلفه جلاء المصريين، وأن

= والسيطرة الغربية، ترجمة عبد العزيز توفيق، القاهرة ١٩٦٢م، ص٤١.

D. G.E. Hall, History of South East, London 1955, P.180-5.

(١) للتعرف على أسماء الأئمة الزيديين المتعاقبين وأخبارهم منذ ظهور الإمامة الزيدية حتى حكم الإمام يحيى بن حميد الدين (١٩٠٤-١٩٤٨م) يراجع:

محمد بن أحمد عيسى العقيلي، من تاريخ المخلاف السليماني، مطابع الرياض، بلا؛ عبد الواسع بن يحيى الواسعي، تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، المطبعة السلفية، القاهرة ١٩٢٧م.

(٢) سيد مصطفى سالم، تكوين اليمن الحديث، ١- اليمن والإمام يحيى (١٩٠٤-١٩٤٨م)، ط٤، القاهرة ١٩٩٣م، ص٢٩-٣٠.

يعيدوا لحكمهم ثقة الأهالي - الذين شهدوا ميزات الإدارة المصرية - فأنزلوا قوة حربية في الحديدة عام ١٨٤٩م، لاسترجاع سيطرتهم الفعلية هناك، غير إنهم لم يفلحوا في السيطرة على صنعاء، بسبب المقاومة العنيفة فيها، فتراجعت فلولهم المجهدة إلى الحديدة، وقرروا البقاء في تهامة بعيدين عن ثورات القبائل اليمنية، على مقربة من مراكز التموين والإمدادات في الحجاز ومصر. وظلوا هناك يترقبون الفرصة المناسبة للانقضاض على صنعاء، وبالفعل تحقق لهم ذلك عام ١٨٧٢م[١].

كانت الدولة العثمانية قد وجهت سياستها لبسط نفوذها الفعلي على اليمن نتيجة فتح قناة السويس عام ١٨٦٩م التي فرضت عليها التحكم بالمناطق المطلة على البحر الأحمر، وخصوصاً اليمن التي تتحكم بمضيق باب المندب. وقد تزامنت تلك التطورات مع حركات الإصلاح والتجديد في الدولة العثمانية نفسها التي كان لها الأثر البالغ في إتباع تلك السياسة.

تمت هذه الإصلاحات على مرحلتين:

عرفت الأولى باسم «التنظيمات» في جميع الميادين الإدارية والمالية والقضائية والتعليمية، واستمرت في عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩-١٨٦١م)، وخلفه السلطان عبد العزيز (١٨٦١-١٨٧٦م). وفي عهدهما حاول العثمانيون الاحتلال اليمن عام ١٨٤٩م، وإقامة حكمهم الثاني عام ١٨٧٢م[٢].

---

(١) فاروق عثمان أباظة، الحكم العثماني في اليمن (١٨٧٢-١٩١٨م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية ١٩٨٦م، ص٨٦-٨٧.

(٢) ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٠م، ص٧٥-٧٦.

أما الثانية فقد عرفت باسم «المشروطية» التي تجعل حكم السلطان مشروطاً بمراعاة القيود في «القانون الأساسي» العثماني الصادر عام ١٨٧٦م[١]. وقد بدأت هذه المرحلة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩م)، واستمرت حتى إعلان الجمهورية التركية عام ١٩٢٣م[٢]. إلّا إن هذه التنظيمات لم تطبق في ولايات الدولة العثمانية على نحو واحد من السرعة والشمول، فكان تطبيقها بطيئاً في اليمن بعد الاحتلال لها عام ١٨٧٦م[٣]. مما أدى احتفاظ اليمن بتنظيماتها القبلية والإقطاعية برئاسة أمراءها المحليين، الذين كانوا يتقلدون الرئاسة بألقاب عثمانية[٤].

أصدرت الدولة العثمانية عام ١٨٦٤م قانون الولايات، وبموجبه قسمت الدولة إلى ولايات، تتألف من عدد من السناجق «الألوية»، وهذه تتألف من عدد من الأقضية، يتبعها من النواحي، وكان على رأس الإدارة في كل لواء «متصرف»، والولاية على رأسها «الوالي» العثماني المعين بفرمان من الباب العالي، يطلق عليه لقب «الباشا»[٥] وقد خضعت اليمن لهذا القانون بالطبع. وكانت الدولة العثمانية تنشر سنوياً حولية رسمية أسمتها «الكتاب السنوي للدولة العلية العثمانية» بينت فيها تفاصيل التقسيمات الإدارية، وأسماء رؤساء الموظفين في جميع الولايات والألوية والأقضية، فضلاً عن العاصمة، وقد تبين من

(١) فاروق عثمان أباظة، المصدر السابق، ص٨٧-٨٨.

(٢) ساطع الحصري، المصدر السابق، ص٨٢-٨٣.

(٣) فاروق عثمان أباظة، المصدر السابق، ص٩١.

(٤) المصدر نفسه، ص١٠٣-١٠٤.

(٥) كان الباشا يتولى السلطتين القضائية والتنفيذية، ويدفع الخراج للحكومة المركزية في إستنبول.

الحولية الرسمية العائدة لسنة ١٣٢٢ هجرية - الموافقة لسنة ١٩٠٤ ميلادية، إن ولاية اليمن تضم أربعة ألوية هي: (صنعاء - الحديدة - عسير - تعز)[١]. وكان يحكم اليمن والي عثماني مقره صنعاء عاصمة الولاية، يتبعه متصرفو الألوية الأربعة، والمتصرف يمثل الوالي في حدود اللواء، ويرجع إليه في مختلف القضايا. ويتبع المتصرفين قائمقامون للأقضية، ويلي هؤلاء المديرون للنواحي. واشتمل كل لواء في ولاية اليمن على عدد من المدن، فلواء صنعاء يضم مدن (حراز - حجة - ذمار - يريم - رداع - عمران)، بينما يضم لواء الحديدة مدن (زبيد - اللحية - الزيدية - ريمة - بيت الفقيه - بأجل - ابي عريش) أما لواء عسير فضم مدن (ابها - قنفده)، ولواء تعز مدن (اب - الحجرية - مخا - قحطبة)[٢]. ومما تجدر الإشارة إليه هو أن هذه التقسيمات خضعت لتغيرات فرضتها حرب التحرير الوطنية، وفي أواخر أيامهم حاول العثمانيون إدخال بعض الإصلاحات على وضع الإدارة المحلية منها: إنشاء مجالس محلية في الألوية والأقضية أطلقوا عليها اسم «مجالس الإدارة» مهمتها تقديم بعض الخدمات، والبت في قضايا المحليات، وكان الوالي لا يتدخل - في الغالب - في الأمور التي لها خاصية محلية، وكان يختار لهذه المجالس صفوة القوم من العلماء وأصحاب الشأن[٣].

---

(١) فاروق عثمان أباظة، المصدر السابق، ص١٠٩؛ سيار كوكب الجميل، تكوين العرب الحديث (١٥١٦-١٩١٦م)، جامعة الموصل ١٩٩١م، ص٣٩٧.

(٢) فاروق عثمان أباظة، المصدر السابق، ص١٠٩.

(٣) أحمد محمد الحربي، تنظيم الإدارة المحلية والتنمية الذاتية، منشورات الأمانة العامة للمجالس المحلية والتطوير التعاوني، صنعاء ١٩٨٩م، ص٨٦.

وكان هناك مجلس الإدارة في العاصمة صنعاء أيضاً، ويعرف بـ«المجلس العمومي للولاية، يرأسه الوالي بنفسه، ويتألف من ثلاثين عضواً، يتمتع بصلاحيات تقترب من صلاحيات المجالس النيابية، ويمكن وصفه ببرلمان مصغر(١). ويفتتح هذا المجلس في مواعيد محددة وباحتفال شعبي، يلقي فيه الوالي خطبة الافتتاح كما هو معمول به في البرلمانات، ويوضح فيها ما قامت به حكومة الولاية في السنة المنصرمة، وكان لهذا المجلس - عدا السلطات التي يتمتع بها - ميزانية خاصة، لها أبواب محددة في الإنفاق، وله إدارة نشيطة، وسكرتارية عاملة طيلة السنة الحكومية. هذا عدا ما كان لولاية اليمن من نواب يمنيين مشهود لهم بالوطنية والكفاءة، يمثلون الشعب اليمني في البرلمان العثماني «مجلس المبعوثان» يناقشون ويسألون من أجل مصلحة أبناء شعبهم(٢).

لذلك كله يوسعنا القول إن اليمن عرفت نظام الإدارة المحلية في حقبة الحكم العثماني الثاني لليمن (١٨٧٢-١٩١٨م) على وجه التحديد، وورثت بعض ملامحه في التقسيمات الإدارية والمجالس المحلية في المراحل اللاحقة.

● (الإدارة المحلية في اليمن ١٩١٨-١٩٦٢م) ● ● ● ● ● ● ● ● ● ● ● ●

انسحبت الدولة العثمانية من اليمن بأكمله عام ١٩١٩م في أعقاب

(١) محمد يحيى الحداد، التاريخ العام لليمن، التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي منذ بداية تاريخ اليمن القديم وحتى العصر الراهن، اليمن المعاصر، ج٥، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان ١٩٨٦م، ص٥٣.

(٢) فاروق عثمان أباظة، المصدر السابق، ص٤٣٠-٤٣١؛ محمد يحيى الحداد، المصدر السابق، ص٥٣.

هزيمتها في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨م)، وحصلت اليمن على استقلالها، الذي صودق عليه واعترف به دولياً في ٢٤ تموز/ يوليو ١٩٢٣م، في أثناء الدورة الثانية لمؤتمر الصلح الذي عقد في لوزان لتسوية المسائل المعلقة بين الدولة العثمانية والحلفاء، مما منح الإمام يحيى بن حميد الدين (١٩٠٤-١٩٤٨م) - الذي لقب نفسه بالمتوكل - الحق في ملكية ما كان لليمن من ممتلكات عثمانية[(١)] بعد جلاءهم عن البلاد أواخر سنة ١٩١٨م. وهكذا انتهى الحكم العثماني في اليمن[(٢)]، وبدأت اليمن دولة مستقلة تحت حكم الإمامة الزيدية، التي كان بوسعها أن تجني ثمار الاستقلال للارتقاء بالشعب اليمني، وإلحاقه بركب الحضارة الحديثة.

ورث الإمام يحيى جملة من المشكلات الداخلية والخارجية[(٣)]،

(١) كانت علاقة كل من الوالي العثماني محمود نديم بك والقومندان أحمد توفيق قائد الفيلق العثماني في صنعاء بالإمام يحيى طيبة. ولهذا حاولا أن يتيحا له فرصة دخول صنعاء وتسليمه مقاليد الحكم فيها، وأن يقيم في قصر غمدان ويمتلك كل ما فيه من معدات، فضلاً عن الأسلحة والمدافع والممتلكات الحربية العثمانية التي أمر قائد الفيلق العثماني بتسليمها إليه، وحاولا أن يبرزا شخصية الإمام بما له من مظاهر السلطة والسيادة كوارث شرعي للحكم العثماني. انظر: فاروق عثمان أباظة، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر (١٨٣٩-١٩١٨م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦م، ص٦٥٨-٦٥٩؛ جمعة عليوي فرحان الخفاجي، العلاقات العراقية اليمانية (١٩٣٢-١٩٦٢م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية التربية الأولى ١٩٨٩م، ص٨.

(٢) عبدالله عبد الكريم الجرافي، المقتطف من تاريخ اليمن، بيروت ١٩٨٧م، ص٢٨٩.

(٣) تمثلت تلك المشكلات الداخلية في الآثار السلبية التي خلقتها الحرب العالمية الأولى على اليمن، أما الخارجية فهي الموقف العدائي ضد الإمام من الإنكليز في عدن، والأدارسة في عسير. للمزيد من التفاصيل يراجع: مجموعه من المؤلفين السوفييت، تاريخ اليمن المعاصر، ترجمة محمد علي البحر، مطبعة أطلس، القاهرة ١٩٩٠م، ص٨ وما بعدها.

ونظاماً إدارياً عثمانياً لم يتمكن من تطويره بما يؤدي لبناء دولة قوية وحديثة، فهو بدلاً من أن يتجه لتطوير أجهزة الدولة إدارياً، قام بإدخال بعض التعديلات الطفيفة التي تدعم نفوذه(١). وفي ظل الحكم الإمامي الجديد استأثر المسؤولون في الإدارة الإمامية بالأوضاع، وعملوا على التفرقة بين الزيديين وفئات الشعب الأخرى، واستحوذوا على المناصب الحكومية كلها(٢)، واستعان الإمام يحيى بعدد من الموظفين الذين كانوا في الإدارة العثمانية من المدنيين والعسكريين الذين آثروا البقاء في اليمن والذين بلغ عددهم حوالي التسعمائة، وذلك لخبرتهم في الأمور الإدارية ومن هؤلاء الوالي محمود نديم والقاضي راغب توفيق الذي تولى بعد ذلك الشؤون الخارجية للإمام(٣).

وعموماً فقد أجمع الباحثون على أن الإمام يحيى هو الحاكم المطلق للبلاد فتقول فريا ستارك Ferya Stark إنه:

«كان يقبض على شؤون شعبه الروحية والدنيوية بين يديه، كما أنه قاد جيوشهم في المعارك وأرواحهم في الصلاة طوال جيلين، وإنه كان يعني بأمورهم السياسية وحياتهم الخاصة وتجارتهم وملبسهم ورحلاتهم فوصلت يداه إلى كل مكان، وهو مقدس، وخاصة في المناطق الجبلية من بلاده»(٤).

(١) أحمد محمد الحربي، المصدر السابق، ص٨٨؛ جمعه عليوي فرحان الخفاجي، المصدر السابق ص٨.

(٢) خديجة أحمد الهيمصي، العلاقات اليمنية السعودية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، ص٤٣؛ عبد العزيز قايد المسعودي، معالم تاريخ اليمن المعاصر، القوى الاجتماعية لحركة المعارضة اليمنية (١٩٠٥-١٩٤٨م)، ط١، مكتبة السنحاني، صنعاء ١٩٩٢م، ص١٥.

(٣) جمعه عليوي فرحان الخفاجي، المصدر السابق، ص٨.

(٤) مقتبس في: سيد مصطفى سالم، المصدر السابق، ص٤٧٣-٤٧٤.

فعلى مستوى الإدارة المركزية، لا توجد أجهزة بالمعنى المتعارف عليه، وإنما كانت مجرد مكاتب موروثة من العهد العثماني، وتتألف من: مكتب المحاسبة المسؤول عن النواحي المالية وبالذات جباية زكاة والضرائب ومصروفات الدولة في الألوية والأقضية وتلخيصها وإبلاغها أسبوعياً أو يومياً للإمام نفسه. ومكتب المعارف الذي يشرف على دار العلوم كأعلى مراحل التعليم في البلاد، فضلاً عن الإشراف على الكتاتيب. وكذلك مكتب البريد الذي ينظم إرسال البريد الحكومي على ظهور الخيل أو الحمير إلى المراكز الحكومية.

أما على مستوى الإدارة المحلية الداخلية، فقد بقيت كما كانت عليه في العهد العثماني - ما عدا بعض التعديلات الطفيفة - فاللواء يتألف من عدد من الأقضية، وكل قضاء يتألف من عدد من النواحي، وكل ناحية تتألف من عدد من العزل[1]، والعزلة تتألف من عدد من القرى. ويتولى إدارة الوحدة الإدارية شخص معين من الإمام مباشرة وعلى النحو الآتي: على رأس اللواء أمير يعينه الإمام من بين أفراد أسرته أو من المقربين إليه[2]، يعاونه قاضٍ يختص بالأمور الشرعية، وآمر مفرزة يختص بالقضايا العسكرية والأمنية، ومديران أحدهما للمعارف وآخر للمالية، ومأموران أحدهما للبريد والآخر للسلك[3]. وفي القضاء يتولى الإدارة

(١) العزل: عبارة عن وحدة إدارية تتألف من عدد من القرى المتقاربة وتكون تابعة إدارياً للناحية.

(٢) فقد كان أبناء الإمام: (سيف الإسلام أحمد أميراً لتعز) و(سيف الإسلام عبدالله أميراً للحديدة) و(سيف الإسلام الحسن أميراً لأب) و(سيف الإسلام الحسين أميراً لصنعاء) وتسمية سيف الإسلام محصور بأبناء الإمام. انظر: سيد مصطفى سالم، المصدر السابق، ص٤٧٦.

(٣) مأمور السلك هو المسؤول عن إيصال البرقيات والتعليمات للمناطق التي يوجد فيها جهاز لاسلكي.

فيه عامل مسؤول عن القضايا التنفيذية، وقاض للقضايا الشرعية، وضابط مسؤول عن القضايا الأمنية، وكذلك الحال في النواحي. وهذا التقسيم في حقيقته تقسيماً شكلياً، يفتقر لأبسط المقومات القانونية من قوانين ونظم ولوائح. فكل القوانين والأنظمة كانت عبارة عن توجيهات يصدرها أمير اللواء لعامل القضاء والناحية بموافقة الإمام. وغالباً ما كان عامل القضاء أو الناحية على اتصال مباشر بالإمام برقياً. وصفوة القول إن العاملين في الوحدات الإدارية جميعهم يعدون أنفسهم خدماً للإمام، وكل موظف معين من الإمام إذا أراد البقاء في وظيفته، كان عليه أن يضاعف من دخل الواجبات والضرائب، وكان له مقابل ذلك الصلاحيات المطلقة بما في ذلك الحبس ونهب الممتلكات. ولهذا كان المسؤولون الإداريون يتفننون في أساليب الابتزاز والكيد بالأهالي والتنكيل بهم تحت مبررات واهية، في مقدمتها خروج المواطن عن طاعة الإمام[١]، وهؤلاء جميعاً مسؤولون إمام «جلالة» الإمام والدهم، وهم يقلدون «جلالته» في مظهره، وطريقة تعاملهم مع الأهالي، وحتى في إصدار الرسائل والأوامر والجباية ومقابلة المواطنين[٢].

ولم يحدث أن قام الإمام بالاستئناس برأي الشعب في شؤون البلاد المختلفة، إلّا في الظروف التي لا يريد فيها أن يتحمل المسؤولية بمفرده. وفي مثل هذه الحالة كان الإمام يجمع مجلساً من الوجهاء والعلماء، لكي يبحثوا الموقف من جوانبه المختلفة، ويشترك

(١) أحمد محمد الحربي، المجالس المحلية والتطوير التعاوني - ٢٥ عاماً من العطاء التعاوني في ظل ثورة ٢٦ أيلول/ سبتمبر (١٩٦٢-١٩٨٧م)، مطابع صنعاء الحديثة، بلا، ص٥٤-٥٥.

(٢) أمين الريحاني، ملوك العرب، ج١، دار الريحاني للطباعة والنشر، ط٢، بيروت ١٩٥٤م، ص١٥٩.

هؤلاء معه في تحمل المسؤولية. فالإمام - على سبيل المثال - لم يؤثر عنه أن جمع مجلساً لبحث شؤون الدولة إلّا عند الانسحاب من الضالع عندما أجبره الإنكليز على ذلك(١)، حتى لا يتحمل بمفرده مسؤولية جلاء قواته من تلك المنطقة، التي أصبحت مرتعاً للنفوذ البريطاني. ومعنى ذلك كله هو إن الحكومة هي الإمام، والإمام هو الحكومة، وكان من العبث العثور على وزارات على نحو الدواوين المعروفة بدرجاتها الوظيفية(٢).

ويعتمد الإمام في إدارة شؤون البلاد على التقاليد القبلية والدينية في الدرجة الأولى، إذ تمسك بالألقاب الإسلامية الفخمة، التي انتشرت العصور الإسلامية المختلفة، وخصوصاً عصور التأخر مثل «القاضي العلامة» و«الفقيه الفهامة» وغيرها. وكذلك الحال بالنسبة للنظم المالية والإدارية، فقد أبقى الإمام الألقاب القديمة لموظفيه، فكان حكام الولايات يلقبون بـ«العمال» وحرص على لفظ «الزكاة» واستخدم لفظ «بيت المال»(٣).

وكان من أبرز مظاهر العسف التي عانى منها الشعب اليمني في

---

(١) نشرت جريدة الأهرام القاهرية الإنذار الذي وجهته إنكلترا إلى الإمام بالجلاء عن إمارة الضالع قبل يوم ١٧ تموز/ يوليو ١٩٢٨م، وإلّا فأنها ستعلن الحصار البحري على شواطئ اليمن، وتضرب مدنها بالقنابل وتتخذ كل ما تراه مناسباً من الأعمال الحربية لحماية المناطق المشمولة بحمايتها بجوار عدن، وجاء هذا الإنذار بعد مناقشة مجلس النواب الإنكليزي مسألة العلاقات بين إنكلترا واليمن بجلسته المنعقدة في ٢ تموز/ يوليو ١٩٢٨. انظر: جريدة الأهرام القاهرية بتاريخ ٥ تموز/ يوليو ١٩٢٨م.

(٢) فاروق عثمان أباظة، المصدر السابق، ص٤٣٧-٤٣٨.

(٣) المصدر نفسه، ص٤٨٠.

عهد الإمام، اتخاذه من «نظام الرهائن» الركيزة الأساسية لاستقرار سلطته[١]، ويهدف هذا النظام إلى قمع حركات المعارضة من القبائل وخصوصاً في المناطق الشافعية، فعلى هؤلاء المشايخ أن يبعثوا أبنائهم رهائن لإظهار الولاء والطاعة، وكانت السجون هي المقر الطبيعي لهم، ويعيشون على نفقة قبائلهم[٢]، وقد بلغ عدد الرهائن الذي احتفظ الإمام بهم في سنة ١٩٣٤م - وهي السنة التي اندلعت فيها الحرب اليمنية السعودية - أكثر من(٣٠) ألف رهينة[٣].

كان من الطبيعي والأوضاع تسير على هذا المنوال أن تتنامى النقمة الشعبية، وتقوم المعارضة بتنظيم صفوفها للإطاحة بهذا النظام المستبد المتخلف، فقامت الحركة الوطنية بمحاولات عدة منذ سنة ١٩٣٦م، وتتوجت بالثورة الدستورية اليمنية الأولى عام ١٩٤٨م التي كان هدفها أحداث تغيرات جوهرية في أجهزة الحكم السياسية والإدارية، ونص ميثاقها المقدس[٤] في مادتها (٣١) بشأن الإدارة المحلية:

---

(١) ادجار أوبلانس، اليمن الثورة والحرب حتى عام ١٩٧٠م، ترجمة عبد الخالق محمد، مكتبة مدبولي، ط٢، القاهرة ١٩٩٠م، ص٥٦؛ صلاح العقاد، المشرق العربي المعاصر دراسة تاريخية سياسية، مكتبة آل أنكلو مصرية، القاهرة ١٩٦٢م، ص٥٨٠.

(٢) عبد الوهاب آدم العقاب، تطور العلاقات اليمنية السعودية (١٩٤٨ - ١٩٧٠م)، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٩٨م، ص١٩.

(٣) جريدة المصور القاهرية بتاريخ ١١ أيار/ مايو ١٩٣٤م.

(٤) للاطلاع على نص الميثاق المقدس الذي وضعه الثوار وما رافق الثورة الدستورية لسنه ١٩٤٨م من أحداث يراجع: عبدالله السلال وآخرون، ثورة اليمن الدستورية، منشورات مركز الدراسات اليمنية، صنعاء ١٩٨٥م؛ أحمد قائد الصائدي، الحركة الوطنية اليمنية - ثورة عام ١٩٤٨م، منشورات مركز الدراسات اليمنية، صنعاء ١٩٨٣م.

«يجب تأسيس مجالس للألوية والبلديات على نحو ما هو موجود في البلدان العربية»[(١)].

إلّا إن هذه الثورة أجهضت بعد ثلاثة أسابيع فقط من اندلاعها، وكان الإمام أحد ضحايا أحداثها الدامية، وبقيت أسرة بيت حميد الدين في الحكم بعد تنصيب ولي العهد أحمد بن يحيى إماماً للبلاد، لتبدأ صفحة جديدة في تاريخ اليمن المعاصر تميزت بالقهر والإذلال والعسف للشعب اليمني دامت حوالي أربعة عشر عاماً أمتدت حتى عام ١٩٦٢م.

وكان الإمام أحمد قد كلف في عهد والده برئاسة لجنة لإدخال الإصلاحات على نظام حكم أبيه، وخرجت اللجنة بتوصيات من بينها تأليف مجلس سياسي لدراسة الأوضاع الداخلية للبلاد، وهي التوصيات التي لم يستفد منها والده، وبعد أن نصب إماماً ضرب تلك التوصيات - التي أقرها بنفسه - عرض الحائط، وطوال (١٤) عاماً لم يحاول الإمام أحمد أن يجري أي تطوير في الأجهزة الإدارية والتمثيلية، بل زاد إمعاناً في قهر الشعب، وحول الأجهزة الحكومية إلى أداة لتنفيذ مصالحه الشخصية فقط.

وعلى صعيد الإدارة المحلية احتفظ الإمام أحمد بكل ما ورثه عن النظام العثماني، وما تركه له نظام أبيه الإمام يحيى من تقاليد إدارية مفرطة في البدائية والتسلط، وقد أحدث تعديلاً طفيفاً بأن أضاف لوائين هما: «لواء رداع» و«لواء البيضاء»، وشهدت الإدارة عموماً المزيد من التدهور في عهده[(٢)].

---

(١) عبدالله عبد الوهاب الشماحي، اليمن الحضارة والإنسان، منشورات الدار الحديثة للطباعة والنشر، بلا، ص٢١٨.

(٢) أحمد محمد الحربي، تنظيم الإدارة المحلية والتنمية الذاتية، ص٩٥-٩٦.

وخلاصة القول إن هذا الاستعراض يسلط لنا الضوء الكافي الذي يؤكد إن الحكم العثماني في اليمن - على الرغم من السلبيات الكثيرة التي رفقته، وإشارات النقد والتجريح التي دونها أغلب الباحثين العرب في دراستهم لأوضاع الوطن العربي في حقبة الهيمنة العثمانية - كانت أرفق باليمنيين، من الإدارة الإمامية نفسها التي أعادت إلى الأذهان حكم القرون الوسطى. فلا يستطيع أحد نكران إن الأتراك أدخلوا بعض الإصلاحات الحديثة كإنشاء المدارس والمستشفيات، وإقامة دور العبادة، وحاولوا إدخال بعض الصناعات الحديثة، وأدخلوا نظام التلغراف والتلفون، لكنهم كانوا يصطدمون دائماً بالثورات الداخلية، وكان بعض الولاة المصلحين يحاولون دفع البلاد للإمام، لكنهم كانوا يتهمون بالخروج عن الدين، وكان نظام الدولة على الأقل يسير من الناحية الشكلية على نظام حكومي معالمة معروفة(١).

● العهد الجمهوري وتبلور مفهوم المجالس المحلية ●●●●●●●

تعد ثورة ٢٦ أيلول/ سبتمبر علامة فارقة في تاريخ اليمن المعاصر، خاتمة تاريخية لحقبة من العزلة الخانقة، والقيود المتراكمة، والتخلف، وبداية عهد جديد من النهوض والانفتاح والتقدم.

أعلنت الثورة صبيحة اليوم الأول لاندلاعها في بيانها الأول: إلغاء نظام الإمامة وإقامة النظام الجمهوري، وأصدرت قيادة الثورة سلسلة من القرارات التي تهدف إلى تقويض نظام الإمامة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، فعملت على(٢):

---

(١) أحمد فخري، اليمن ماضيها وحاضرها، المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع، صنعاء ١٩٨٨م، ص٢٠٦-٢٠٧.

(٢) أحمد محمد الحربي، (٢٥) عاماً من العطاء التعاوني، ص٥٥.

- إلغاء الفروق القبلية والدينية والمذهبية والمساواة التامة بين أبناء البلاد.
- إلغاء نظام الرهائن كقاعدة من قواعد الضغط السياسي على المجتمع.
- إلغاء نظام الرق وتحرير من تم استعبادهم أبان نظام حكم الإمامة.
- الوقوف بوجه الفساد الإداري ومعاقبة المرتشين والمفسدين بالشأن العام.
- مواكبة التطور ومحاربة مظاهر التخلف، وكافة الظواهر الضارة في المجتمع.

وفي إطار التركة الثقيلة كان على الثورة أن تولي أهمية كبيرة لبناء أجهزة الدولة ومؤسساتها، ووضع الأسس والركائز والقواعد المنظمة لعملية البناء، فأصدرت عدداً من القوانين والأنظمة واللوائح والقرارات التي تعبر عن ملامح العهد الجديد منها:

- إصدار أول دستور مؤقت للبلاد سنة ١٩٦٣م، تلته دساتير دائمة ومؤقتة(١).
- صدور أول قرار جمهوري بتشكيل مجلس الرئاسة سنة ١٩٦٣م الذي يضم (١٨) شخصية سياسية بارزة.
- صدور قرار جمهوري بتشكيل السلطة التنفيذية (مجلس الوزراء) لأول مرة في تاريخ البلاد.
- صدور أكثر من عشرين قانوناً بقرارات جمهورية تنظم شؤون الدولة وتعمل على إرساء البناء الهيكلي للإدارة الحكومية(٢).

---

(١) وهي: (الدستور الدائم الأول لسنة ١٩٦٤م) (الدستورين المؤقتين الأول والثاني لسنة ١٩٦٥م) (الدستور المؤقت الثالث لسنة ١٩٦٧م) (الدستور الدائم لسنة ١٩٧٠م). للاطلاع على النصوص الدستورية المذكورة يراجع: المعهد القومي للإدارة المحلية، وثائق الإدارة المحلية، صنعاء ١٩٨٢م.

(٢) أحمد محمد الحربي، (٢٥) عاماً من العطاء التعاوني، ص٥٦.

وبما أن دراستنا تنصب حول موضوع الإدارة المحلية والمشاركة الشعبية في الشأن المحلي، فأن من المنطقي الاعتماد على الوثائق الرسمية المتمثلة في الوثائق الدستورية ومجموعة القوانين والأنظمة والبيانات الحكومية التي تناولت هذا الموضوع.

أشار البيان الأول للثورة الذي صدر عن مجلس قيادة الثورة بوضوح إلى أهدافها بـ«**القضاء على الحكم الفردي المطلق... وإقامة حكم جمهوري ديمقراطي إسلامي أساسه العدالة الاجتماعية لدولة تمثل الشعب، وتحقق مطالبه السياسية العامة**»[١].

كما أن الوثائق الدستورية حملت في ثناياها نصوصاً مسهبة وواضحة تخص التطورات الإدارية، فقد جاء في المادة (١٣٨) من الدستور الدائم لعام ١٩٦٤م ما يأتي:

«**تقسم الجمهورية العربية اليمنية إلى وحدات إدارية، ويكون كل منها أو بعضها الشخصية الاعتيادية وفقاً للقانون**» وفي المادة (١٣٩) فيه ورد ما نص: «**تختص الهيئات الممثلة للوحدات الإدارية في كل ما يهم الوحدات التي تمثلها وتساهم في تنفيذ الخطة العامة للدولة، ولها أن تنشئ وتدير المرافق والمشروعات الاقتصادية والاجتماعية والصحية**» ومثل هذه الصلاحيات لم تألفها البلاد سابقاً.

وجاء في المادة (٣٥) من الدستور المؤقت الثاني عام ١٩٦٥م ما يأتي:

«**تقسم الدولة إلى وحدات إدارية، ويعاد تنظيم الوحدات الحالية حسب ظروف المناطق طبقاً للمصالح العامة**... وفي المادة (٣٦) منه ورد

(١) محمد يحيى الحداد، التاريخ العام لليمن، ص١٩٣.

ما نصه: «**يعمل مجلس الوزراء طبقاً للقانون على تهيئة الوحدات الإدارية وتدريبها على ممارسة الحكم المحلي**» وهو أمر جديد في التنظيم الإداري في اليمن.

كما تضمنت الدساتير اللاحقة مواد مماثله للمواد التي وردت في الدساتير السابقة فقد تضمن الدستور الدائم الثاني لعام ١٩٧٠م في المادة (١١٠) منه ما يأتي:

«**يكون للوحدات الإدارية مجالس محلية، تمارس فيها شؤون المنطقة بطريقة ديمقراطية وفقاً للقانون**» ويعد هذا النص تطوراً دستورياً جديداً بسبب انه أشار بوضوح إلى (المجالس المحلية).

كما أن الحكومات المتعاقبة أصدرت عدداً من القوانين واللوائح المنظمة للإدارة المحلية، أشارت في معظمها إلى الاهتمام بالمجالس المحلية والمشاريع الأهلية، وأعادت النظر في التقسيمات الإدارية بما يسهل توفير الخدمات ويحقق النمو في المجتمع اليمني[١]، بحيث أصبحت الجمهورية العربية اليمنية تتألف من ثمانية ألوية يتبعها عدد من القضوات (الأقضية) والنواحي والعزل والقرى والجدول الآتي يبين إعدادها بالتفصيل»[٢].

(١) للاطلاع على القوانين والبيانات التي أصدرتها الحكومات اليمنية المتعاقبة بشأن الإدارة المحلية يراجع: أحمد محمد الحربي، تنظيم الإدارة المحلية والتنمية الذاتية، ص١٠٩-١١٠.

(٢) خالص الأشعب، اليمن دراسة في البناء الطبيعي والاجتماعي والاقتصادي، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨٢م، ص٢٩٨.

جدول رقم (١)
التركيب الإداري لليمن سنة ١٩٦٢م

ت	اللواء	عدد القضوات (الأقضية)	عدد النواحي	عدد العزل	عدد القرى
١	صنعاء	٩	٣٩	٤٨٤	٤٨٠٧
٢	إب	٦	١٣	٢٦٧	٢٥٣٣
٣	تعز	٤	١٤	٢١٨	١٩٨٥
٤	صعدة	٥	٩	٨١	٩٦٣
٥	ذمار	٤	٩	٢٩٥	٩٠٣
٦	الحديده	٧	١٨	١١١	١٥١٣
٧	حجه	٤	٢٢	١٥٢	١٠٦٣
٨	البيضاء	٢	٩	٩٩	٣١٠
المجموع		٤١	١٣٣	١٧٠٧	١٤٠٧٧

كما تم استحداث «وزارة الإدارة المحلية»[١] التي تشرف على شؤون الألوية. لم يستمر الوضع الإداري هكذا، إذ أعيد النظر فيه مرة أخرى فضلاً عن إجراء بعض التحويرات وإبدال تسمية «اللواء» بـ«المحافظة»

(١) في عام ١٩٦٤م صدر أول قرار جمهوري بإنشاء وزارة شؤون الإدارة المحلية وتحديد اختصاصاتها. انظر: أحمد محمد الحربي، تنظيم الإدارة المحلية والتنمية الذاتية، ص١٠٩.

وإضافة محافظتي (الحويت - مأرب) واستحدثت دائرة جديدة أطلق عليها اسم «مكتب شؤون المحافظات والنواحي» ترتبط مباشرة بديوان رئاسة مجلس الوزراء[١].

جدول رقم (٢)

ت	المحافظة	ناحية	عزلة	قرية	محلة
١	صنعاء	٣٣	٢٩٢	٣٧٠٧	٧٢٥٨
٢	الحديدة	١٨	١٠٦	١٩٥٢	٤٣٩
٣	تعز	١٨	٢٦٨	١٦٦٦	٤٣٠٧
٤	صعدة	١٢	١١٠	١٥٤٦	٩٧
٥	حجه	٣١	١٧٢	١٩٢٩	٦٣٢٥
٦	ذمار	٩	٣١١	١٩٩٥	٢٥٩٧
٧	إب	٢٠	٢٦١	٢٥٥٩	٣٢٠٨
٨	البيضاء	١٠	٦٨	٧٢٩	٨٤٧
٩	الحويت	٧	١٣٤	١٤١٥	١٤٥٤
١٠	مأرب	٤	٢٥	٣٥٣	٣٦٤
المجموع		١٦٢	١٧٤٧	١٧٨٥١	٢٦٨٩٦

(١) خالص الأشعب، المصدر السابق، ص٣٠٠؛ وتم استحداث هذا المكتب بموجب القانون رقم (٦٤) لسنة ١٩٧٦م. انظر: أحمد محمد الحربي، تنظيم الإدارة المحلية والتنمية الذاتية، ص١٠٩.

وفي تطور لاحق تم إلغاء مرتبة «الأقضية» في التركيب الإداري الجديد في الجمهورية العربية اليمنية، وتبعاً لذلك أصبح مكوناً من عشرة محافظات يتبعها عدد من النواحي والعزل والقرى والمحلات كما يوضحها الجدول رقم (٢)[(١)]. ويدير المحافظة «المحافظ» والناحية «مدير الناحية» أما العزلة فيشرف عليها «شيخ القبيلة» في حين يشرف على القرية «شيخ القرية» ويعرف بالعامل[(٢)].

شهدت المدة من (١٩٦٢-١٩٨٠م) قيام عدد من أنواع المجالس المحلية والهيئات التعاونية أهمها:-

١ - مجالس الألوية والأقضية والنواحي لسنة ١٩٦٥م.

٢ - الهيئات الإدارية والتعاونية لسنة ١٩٧٥م.

٣ - مجالس التنسيق التعاوني في محافظات الجمهورية.

٤ - مجالس المحافظات والنواحي لسنة ١٩٧٦م.

٥ - المجالس المحلية البلدية لسنة ١٩٧٨م.

٦ - مجالس الألوية والنواحي لسنة ١٩٨٠م[(٣)].

وقد حققت هذه الهيئات والمجالس المحلية الفتية قدراً مقبولاً في إنجاز المشاريع الزراعية والخدمية. وبفعل هذا النجاح صدر القانون رقم

---

(١) الجهاز المركزي للتخطيط، الجمهورية العربية اليمنية، كتاب الإحصاء العام لعام ١٩٧٦م، صنعاء ١٩٧٧م، ص٢١.

(٢) خالص الأشعب، المصدر السابق، ص٣٠٢.

(٣) للاطلاع على مهام تلك المجالس والهيئات والقوانين التي صدرت بموجبها يراجع: وثائق الموسم الثاني للانتخابات التعاونية، المؤتمر العام الرابع للإتحاد العام لهيئة التعاون الأهلي للتطوير التعاوني، صنعاء ١٩٨١م، ص١٠-١٥؛ وثائق الموسم الثالث للانتخابات التعاونية، المؤتمر العام الخامس للإتحاد العام لهيئة التعاون الأهلي والتطوير التعاوني، صنعاء ١٩٨٢م، ص١١-١٧.

(١٢) لسنة ١٩٨٥م الخاص (بالمجالس المحلية للتطوير التعاوني) وأجريت الانتخابات العامة فتألف (٢٠٦) مجلس محلي في (٢٠٦) وحدة إدارية في عموم الجمهورية. ونجحت هذه المجالس في تلبية الحاجات الأساسية في مجال الخدمات والتعليم والصحة ومشاريع مياه الشرب والطرق[١].

كان لهذه المجالس أهمية كبيرة في زيادة الخبرة واستيعاب متطلبات العمل الشعبي في المناطق، كما أنها ولدت وعياً وطنياً عاماً لدى المواطنين بضرورة المساهمة الإيجابية في عملية التنمية، وأهمية ممارسة حقهم الانتخابي في اختيار ممثليهم في المجالس المحلية. وظلت هذه الهيئات والمجالس المحلية حتى عام ١٩٩٠م حيث توقفت أعمالها في أثناء المفاوضات والتوقيع على اتفاقية الوحدة بين الشطرين الشمالي والجنوبي لليمن[٢].

وكان من بين بنود اتفاقية الوحدة هو قيام المجالس المحلية، ولكن بسبب اختلاف الظروف السياسية والاقتصادية بين شطري البلاد، والخلافات التي حدثت في صفوف القيادات السياسية وقيام الحرب تأخر قيام هذه المجالس، لكنها كانت تخضع للدراسة من قبل المختصين والمهتمين طوال هذه المدة حتى صدر القانون رقم (٤) لسنة ٢٠٠٠م وقيام الانتخابات العامة لأعضاء تلك المجالس عام ٢٠٠١م[٣].

---

(١) عبدالله محمد المجاهد، التعاون والتنمية في اليمن، ج٢، مطبعة أطلس، القاهرة ١٩٧٣م، ص١٥.

(٢) حمود العودي، التنمية وتجربة العمل التعاوني في اليمن، دار الهنا للطباعة، ١٩٧٧م، ص٧١.

(٣) عبدالله محمد المجاهد، المصدر السابق، ص١٧.

● (قانون السلطة المحلية رقم (٤) لسنة ٢٠٠٠م) ●●●●●●●

■ انعقاد المؤتمر الأول سنة ٢٠٠٢م

أصدر الرئيس اليمني علي عبدالله صالح قانون السلطة المحلية رقم (٤) لسنة ٢٠٠٠م ولائحته التنفيذية، ويعد هذا القانون تتويجاً لكل الجهود المبذولة خلال الحقبة السابقة كونه وضع الأساس التشريعي والقانوني للانتقال إلى نظام السلطة المحلية القائم على مبدأ اللامركزية والمشاركة الشعبية، والذي يمكن المواطنين من ممارسة حقهم الدستوري في السلطة من خلال مجالس محلية منتخبة ديمقراطياً، والإشراف والرقابة على الأجهزة التنفيذية، والمشاركة في تسيير وإدارة الشؤون العامة، والاستفادة من الموارد، وتطوير المجتمعات المحلية، مما يفتح الأبواب أمام تضافر الجهود الشعبية والرسمية في عملية البناء والتنمية على المستويين المحلي والوطني.

ومما يسجل لهذا القانون إنه لم يكن تقليداً لتجارب مماثلة في دول أخرى أو نقلاً حرفياً عنها، وإنما جاء ملامساً لاحتياجات ومتطلبات الواقع اليمني، وجاء بعد مناقشات معمقة ومداولات مطولة من قبل المعنيين في الجهات الرسمية والشعبية. وهو خلاصة لتجارب سابقة في مجال الإدارة والتنمية المحلية قامت على المستويين الرسمي والشعبي في شطري اليمن قبل الوحدة. وقد استفاد - إلى حد بعيد - من تجربة المجالس المحلية للتطوير التعاوني في اليمن الشمالي (سابقاً) وتجربة مجالس الشعب في جنوبه، والمجالس البلدية وغيرها من التجارب والمحاولات السابقة[١].

---

(١) الجمهورية اليمنية، وزارة الإدارة المحلية، قانون السلطة المحلية ولائحته التنفيذية، مطابع وكالة الأنباء اليمنية سبأ، ط٢، صنعاء ٢٠٠١م، ص. د.

● **القانون رقم (٤) لسنة ٢٠٠٠م**: تألف القانون من أبواب تسعه، تناولت التسمية والتعاريف والمبادئ الأساسية، وتتألف السلطة المحلية بموجب هذا القانون من رئيس الوحدة الإدارية والمجلس المحلي والأجهزة التنفيذية للوحدة الإدارية التي تعبر عن سلطة الوحدة الإدارية، ويقوم نظام السلطة المحلية طبقاً لأحكام هذا القانون على مبدأ اللامركزية الإدارية والمالية، وتوسيع المشاركة الشعبية في اتخاذ القرار وإدارة الشأن المحلي في المجالات كافة، واقتراح البرامج والخطط والموازنات الاستثمارية للوحدات الإدارية والرقابة والإشراف على الأجهزة التنفيذية للسلطة المحلية ومسائلتها ومحاسبتها(١) ويعد ذلك تطوراً مهماً في الحياة الديمقراطية في البلاد.

كما تم تقسيم أراضي الجمهورية إلى وحدات إدارية، بناء على دراسات علمية أخذت بنظر الاعتبار العوامل السكانية والاقتصادية والاجتماعية والجغرافية لكل من تلك الوحدات(٢)، ويقوم في كل وحدة إدارية مجلس محلي منتخب، وأشار الباب الأول عدم جواز الجمع بين عضوية مجلس النواب والمجالس المحلية. وحدد مدة دورة المجالس المحلية بأربع سنوات شمسية(٣).

وتطرق الباب الثاني إلى: السلطة المحلية في المحافظة، وبموجبه يتألف المجلس المحلي في المحافظة بما لا يقل عن (١٥) عضواً بما فيهم

---

(١) المصدر نفسه، ص٢.

(٢) بلغ عدد المحافظات في اليمن عشية إصدار القانون المذكور وانعقاد المؤتمر الأول للمجالس المحلية تسعة عشر محافظة يتبعها عدد من الوحدات الإدارية. انظر: الجمهورية اليمنية، وزارة الإدارة المحلية، وثائق المؤتمر الأول للمجالس المحلية ١٣-١٦ أيار/ مايو ٢٠٠٢م، مطابع المفضل، بلا، ص٩-١٠.

(٣) الجمهورية اليمنية، وزارة الإدارة المحلية، قانون السلطة المحلية، ص٣-٤.

رئيس المجلس. وتمثل المديريات التابعة للمحافظة تمثيلاً متساوياً بواقع عضو واحد عن كل منها. ويكون مقر المجلس المحلي في عاصمة المحافظة.

يتولى مجلس المحافظة دراسة وإقرار مشروعات الخطط الشاملة على مستوى المحافظة والإشراف على تنفيذها، كما يقوم بالتوجيه والإشراف والرقابة على أعمال المجالس المحلية للمديريات والأجهزة التنفيذية للمحافظة. وتضمن هذا الباب أيضاً توزيع المسؤوليات وتشكيل اللجان وواجبات الأجهزة التنفيذية وعلاقتها بالمجالس المحلية في المحافظات(١) ويتضح من ذلك كله إن المجالس المحلية تقوم بالفعل برسم السياسات المحلية في الشؤون المختلفة والإشراف على تنفيذها، ولم يكن شخوصها دمئ باهتة بيد الحكومة. وذلك يؤكد المشاركة الشعبية على نحو لم يكن مألوفاً في الحياة السياسية في اليمن في الحقب السابقة.

واستعرض الباب الثالث من هذا القانون: السلطة المحلية في المديرية وتشكيلاتها ومهماتها والصلاحيات المناطة بها، وهي تتطابق إلى حد كبير مع ما تضمنه الباب الثاني الذي اختص بمجالس المحافظات(٢).

وأشار الباب الرابع إلى: الأحكام المشتركة للمجالس المحلية، وهي الشروط الواجب توافرها في المرشحين وحقوق وواجبات أعضاء المجالس المحلية، والضوابط التي تحكم بقاء العضو في عضوية المجلس. ومما يستحق الذكر في هذا الباب هو: منع المجالس المحلية

(١) للاطلاع على نصوص ما ورد في هذا الباب يراجع: المصدر نفسه، ص٥-١٧.

(٢) للاطلاع على نصوص مواد الباب الثالث يراجع: المصدر نفسه، ص١٩-٣٣.

من التعاقد (بالذات) أو (بالواسطة) مع أعضاء المجالس المحلية في تنفيذ أعمال المقاولات[١]. وهذا من شأنه - حسب اعتقادي - حماية أعضاء تلك المجالس من الانزلاق في مهاوي المغريات المادية، والانصراف لأداء مهامهم الوطنية بطريقة نزيهة.

وتناول الباب الخامس: الموارد المالية للوحدات الإدارية من حيث مصادرها وطريقة توزيعها[٢]. في حين عالج **الباب السادس** الخطط والموازنات السنوية لكل وحدة إدارية التي تعد من قبل المجالس المحلية، وترفع للمحافظة بعد إقرارها، واللجان المشكلة لهذا الغرض، والصلاحيات المالية للمجالس المحلية[٣].

وتحدث الباب السابع عن الدور الرقابي للمجالس المحلية على الأجهزة التنفيذية للوحدات الإدارية على اختلاف مستوياتها[٤].

وتناول الباب الثامن: الحالات التي تخول رئيس الجمهورية حل المجالس المحلية، وأشارت المادة (١٤٩) منه بوضوح إلى عدم جواز **«حل المجالس المحلية بإجراء شامل إلّا بقانون، كما لا يجوز حل المجلس المحلي أثناء دورته الانتخابية مرتين لسبب واحد»**[٥].

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٦.

(٢) أصدر رئيس الوزراء قراراً برقم (٢٨٣) حدد بموجبه قيم الرسوم المحلية التي تعد الموارد الرئيسة للمجالس المحلية. للاطلاع على نص القرار يراجع: الجمهورية اليمنية، وزارة الإدارة المحلية، قرار رئيس مجلس الوزراء رقم (٢٨٣) لسنة ٢٠٠١م بشأن تحديد قيم أوعية الرسوم المحلية والمشتركة على مستوى المحافظة، مطابع المفضل، صنعاء ٢٠٠١م.

(٣) الجمهورية اليمنية، وزارة الإدارة المحلية، قانون السلطة المحلية، ص٤٤-٤٧.

(٤) المصدر نفسه، ص٤٧-٤٨.

(٥) المصدر نفسه، ص٤٩.

وأشار الباب التاسع والأخير من هذا القانون إلى: أحكام ختامية وانتقالية تطرقت للجان الانتخابية ومهماتها، واللجان المركزية التي تتولى الانتقال إلى نظام السلطة المحلية، والمؤتمرات السنوية لتلك المجالس، والقواعد القانونية التي تنظم الشؤون المالية للوحدات الإدارية، والعلاقة بين المجالس المحلية والأجهزة التنفيذية المركزية(١).

وإذا أدركنا إن تجربة المجالس المحلية تعني في النهاية حكم الشعب نفسه بنفسه عن طريق ممثليه المنتخبين، فإن هذا المفهوم ينبغي أن لا ينصرف بنا بعيداً عن فكرة، تنمية المجتمع التي تقوم على حشد الجهود الشعبية والحكومية وتنظيمها لتحقيق الأهداف المقصودة، وهو الأمر الذي لم يغفله القانون المذكور، وقد وردت إشارات واضحة لذلك في ثناياه.

وعلى أثر صدور هذا القانون، صدر القرار الجمهوري رقم (٢٦٩) لسنة ٢٠٠٠م بشأن **اللائحة التنفيذية لقانون السلطة المحلية** التي تناولت في أبوابها الإحدى عشرة سبل التمهيد والتهيئة للانتقال إلى نظام السلطة المحلية وتحديد اختصاصاتها(٢) وتمثل هذه اللائحة الإجراءات التطبيقية لقانون السلطة المحلية الآنف الذكر.

بعد صدور قانون السلطة المحلية ولائحته التنفيذية جرت في ٢٠ شباط/ فبراير ٢٠٠١م الانتخابات المحلية في جميع محافظات

---

(١) المصدر نفسه، ص٥٠-٥١.

(٢) للاطلاع على نصوص أبواب اللائحة التنفيذية يراجع: المصدر نفسه، ص٥٧ - ١٨٧.

ومديريات الجمهورية بطريقة حرة ومباشره، وقامت المجالس المحلية المنتخبة بممارسة مهامها. وبعد مرور أكثر من عام أصدر رئيس الوزراء (عبد القادر باجمال) قراراً برقم (٣٨٦) لسنة ٢٠٠٢م لعقد المؤتمر السنوي الأول للمجالس المحلية، بغية الوقوف إمام هذه التجربة اليافعة وتقييمها موضوعياً وعلمياً. وبموجب هذا القرار قامت وزاره الإدارة المحلية بالتحضير والإعداد للمؤتمر الذي عقد في الفترة ١٣-١٦ أيار/ مايس ٢٠٠٢م في قاعة الشوكاني في العاصمة صنعاء تحت شعار:

● «الحوار المركزي المحلي لتعزيز نظام السلطة المحلية»[1] ● ● ●

حضر المؤتمر طبقاً لأحكام المادة (١٦١) من قانون على:

(أولاً): من أجهزة السلطة المركزية: (رئيس وأعضاء مجلس الوزراء - رئيس الجهاز المركزي للرقابة والمحاسبة - محافظ البنك المركزي - عميد المعهد الوطني للعلوم الإدارية - رئيس دائرة السلطات المحلية بمكتب رئاسة الوزراء - رئيس الجهاز المركزي للإحصاء - رئيس مصلحة الضرائب - رئيس مصلحة الكمارك - رئيس مصلحة الأحوال المدنية والسجل المدني - رئيس مصلحة الهجرة والجوازات والجنسية - رئيس مصلحة المساحة والسجل العقاري - رئيس مصلحة أراضي وعقارات الدولة - رئيس مصلحة شؤون القبائل - رئيس هيئة الموارد المائية - رئيس الهيئة العامة لمشاريع مياه الريف - رئيس الهيئة العامة للتنمية السياحية رئيس الهيئة العامة للبيئة - رئيس الهيئة العامة للآثار والمتاحف - رئيس

---

(١) الجمهورية اليمنية، وزارة الإدارة المحلية، وثائق وأدبيات المؤتمر الأول للمجالس المحلية، ص٥.

الهيئة العامة للمحافظة على المدن التاريخية - رئيس الهيئة العامة لرعاية أسر الشهداء ومناضلي الثورة اليمنية - رئيس مجلس إدارة الخطوط الجوية اليمنية - رئيس المؤسسة العامة للنقل البري - رئيس المؤسسة العامة للمياه والصرف الصحي - المدير التنفيذي لصندوق الرعاية الاجتماعية - المدير التنفيذي لصندوق رعاية النشئ والشباب والرياضة - المدير التنفيذي لصندوق صيانة الطرق - المدير التنفيذي لصندوق تشجيع الإنتاج الزراعي والسمكي - مدير عام الهيئة العامة للبريد والتوفير البريدي - مدير المؤسسة العامة للاتصالات السلكية واللاسلكية - مدير عام الشركة اليمنية العامة لتوزيع المنتجات النفطية (شركة نفط) - مدير عام المؤسسة العامة للكهرباء - مدير عام المؤسسة العامة للمسالخ وأسواق اللحوم والأسماك - مدير عام المرور - مدير عام الأشغال العامة.

(ثانياً): من أجهزة السلطة المحلية: (محافظو المحافظات - أمناء عموم المجالس المحلية للمحافظات - رؤساء اللجان المتخصصة للمجالس المحلية للمحافظات - مديرو عموم المديريات - أمناء المجالس المحلية للمديريات)[١]. وقد بلغ عدد المشاركين في المؤتمر المذكور (٨٠٨) شخصاً مثلوا الجهات والمحافظات المبينة في الجدول الآتي[٢]:

---

(١) ورد هذا التحديد في المادة الثانية من النظام الداخلي للمؤتمر السنوي للمجالس المحلية. للاطلاع على نص النظام الداخلي يراجع: المصدر نفسه، ص٣٠٤ - ٣٢١.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٩-٣٠؛ وللاطلاع على أسماء المشاركين في المؤتمر وصفتهم يراجع: المصدر نفسه، ص٣١-٦٢.

جدول رقم (٣)

الجهة - المحافظة	عدد الأعضاء
الوزراء	٣٥
رؤساء الأجهزة المركزية	٣٢
أمانة العاصمة	١٦
محافظة حضرموت	٦٥
محافظة شبوة	٣٨
محافظة أبين	٢٧
محافظة تعز	٥١
محافظة اب	٤٥
محافظة صعدة	٣٤
محافظة المهره	٢٣
محافظة الحديدة	٥٧
محافظة البيضاء	٤٣
محافظة الجوف	٢٨
محافظة الضالع	٢٢
محافظة حجة	٦٧
محافظة عدن	٢١

محافظة مأرب	٢٨
محافظة ذمار	٢٩
محافظة صنعاء	٤٧
محافظة لحج	٣٥
محافظة المحويت	٢٣
محافظة عمران	٤٢
المجموع	٨٠٨

وهذه البيانات والمعلومات تؤكد إن تجربة المجالس المحلية في اليمن حظيت برعاية كبيرة من الحكومة اليمنية، وأن الشخصيات التي شاركت في المؤتمر تمثل معظم شرائح المجتمع في عموم الجمهورية، إضافة لحضور جميع الجهات التنفيذية في الدولة، وهي مما لا شك فيه خطوات سليمة لبناء تجربة ديمقراطية على وفق أسس سليمة.

وضع المؤتمر هدفاً مركزياً له هو: (**بحث وتقييم نظام السلطة المحلية وتطبيقاته وسبل دعمه وتطويره**). وتشكلت لجان الإعداد والتحضير لانعقاد المؤتمر السنوي الأول للمجالس المحلية على الوجه الآتي:

١ - لجنة التقرير العام

٢ - لجنة السكرتارية

٣ - لجنة الاستقبال

٤ - اللجنة الإعلامية

٥ - اللجنة المالية[١].

وناقش المؤتمر على مدى أربعة أيام أربعة محاور هي:

- نظام السلطة المحلية (ورقة عمل وزارة الإدارة المحلية).
- نظام إعداد وتنفيذ الموازنات وتطوير أساليب التخطيط في ظل نظام السلطة المحلية (ورقة عمل وزارتي المالية والتخطيط).
- الموارد المالية للوحدات الإدارية (ورقة عمل وزارة الإدارة المحلية).
- الإدارة والتشريع - تطوير البنية التشريعية للدولة في ظل نظام السلطة المحلية - (ورقة عمل وزارة الخدمة المدنية والتأمينات)[٢].

وبعد مناقشات مستفيضة لتلك المحاور صدر البيان الختامي الذي اتخذ سلسلة من القرارات والتوصيات، أكدت على: وجوب الالتزام محلياً ومركزياً بقانون السلطة المحلية واللوائح المنفذه له، وتقديم الدعم المركزي لها، وتعزيز مواردها المالية وعدم التجاوز على الصلاحيات التي كفلها لها القانون. والتأكيد على قيامها بوضع وتنفيذ البرامج الخاصة بتوعية المواطنين بنظام السلطة المحلية، وتبادل الأفكار معهم حول الهموم المشتركة. وإلزام الحكومة بتبني سياسات وخطط واضحة ومعلنه للوفاء بمتطلبات تطبيق نظام السلطة المحلية في

---

(١) للتعرف على أسماء رؤساء تلك اللجان وأعضائها يراجع: الجمهورية اليمنية، وزارة الإدارة المحلية، وثائق وأدبيات المؤتمر الأول، ص١٢.

(٢) المصدر نفسه، ص١١.

الواحات الإدارية. هذا فضلاً القرارات والتوصيات التي تعنى بالجوانب المالية والإدارية والتعبوية[١].

ولا بد لنا في نهاية البحث من وقفة نقدية لهذه التجربة، والتي تقوم بالدرجة الأساس على المشاركة الشعبية في اتخاذ القرار وإدارة الشأن المحلي في المجالات المختلفة، وقد أثرنا أن لا ترتكز هذه الوقفة على المصادر الوثائقية والمؤلفات فحسب، حيث إن دراسات من هذا النوع لا بد أن تعتمد على الواقع، فرجعنا إلى الميدان واتصلنا ببعض الذين شاركوا بالفعل في هذه التجربة من أعضاء المجالس المحلية كونهم مورداً مهماً من موارد هذه الدراسة.

أثبتت المرحلة المنصرمة من عمر هذه التجربة إن العديد من المجالس المحلية في المحافظات والمديريات أثبتت قدرتها على ملامسة الواقع على نحو مقبول وهي - حسب اعتقادي - لغاية انعقاد المؤتمر الأول تعد مرحلة انتقالية لتجربة السلطة المحلية في اليمن نقلت التجربة من وضع تجريبي نتوقع إن تعتريه العديد من العراقيل ونقاط الضعف نتيجة لعوامل ذاتية وموضوعية. ومن هذه العراقيل على سبيل المثال لا الحصر:

- ضعف ومحدودية الوعي الشعبي بالتجارب الديمقراطية.
- ضعف أداء الكثير من أعضاء المجالس المحلية وعدم استيعابهم لأبعاد تجربة ديمقراطية من هذا النوع، بسبب نقص الكفاءة والتعليم مما يضعف أدائهم في عمليات الرقابة والإشراف والمحاسبة[٢].

---

(١) للاطلاع على نص البيان الختامي يراجع: المصدر نفسه، ص١٤١-١٤٧.

(٢) محمود حسين الحضي، رئيس لجنة الخدمات للمجلس المحلي لمديرية ميفعة عنس، رسالة بعث بها للباحث بتاريخ ٢٥-١-٢٠٠٤م.

- انصراف البعض لتحقيق المكاسب الشخصية مستغلين مواقعهم في المجالس المحلية.
- انحياز بعض أعضاء المجالس في توزيع المشاريع في الوحدة الإدارية لصالح منطقة أو فئة بعينها، دون أخذ المصلحة العامة بنظر الاعتبار.
- غياب أعضاء المجالس المحلية عن حضور اجتماعات الدورية المقررة، فضلاً عن الخلافات التي تحدث بين أعضاء المجلس المحلي أنفسهم لأسباب ضيقة(١).
- الاختلاف في وجهات النظر وضعف التنسيق بين المجالس المحلية من جهة والأجهزة التنفيذية من جهة أخرى، وتورط بعض أعضاء المجالس المحلية في عمليات الفساد الإداري الذي تشهده الأجهزة التنفيذية في اليمن.
- غياب الدورات التدريبية والتأهيلية لتطوير أداء أعضاء المجالس المحلية(٢).

إلا إننا وفي ضوء المعطيات الواقعية نستطيع أن نقرر إن المجالس المحلية المنتخبة تمثل أحد درجات التطور النوعي للمنهج الديمقراطي، وهي خطوة لترسيخ وتوسيع المشاركة الشعبية في صناعة القرار، ومحصلة طبيعية لتطور الوعي والممارسة المؤسسية الديمقراطية وثمرة لجهود مضنية استمرت سنوات عدة سبقتها محاولات كثيرة في التشريع والممارسة والدراسات حول السلطة المحلية، حتى تم الوصول إلى القانون رقم (٤) لسنة ٢٠٠٠م بشكله الحالي.

---

(١) عبدالله علي الجندلي، عضو المجلس المحلي لمديرية ميفعة عنس، رسالة بعث بها للباحث بتاريخ ٣٠-١-٢٠٠٤م.

(٢) زين الله عبدالله الأقمري، رئيس لجنة التخطيط والتنمية في مديرية ميفعة عنس، رسالة بعث بها للباحث بتاريخ ١٨-٤-٢٠٠٤م.

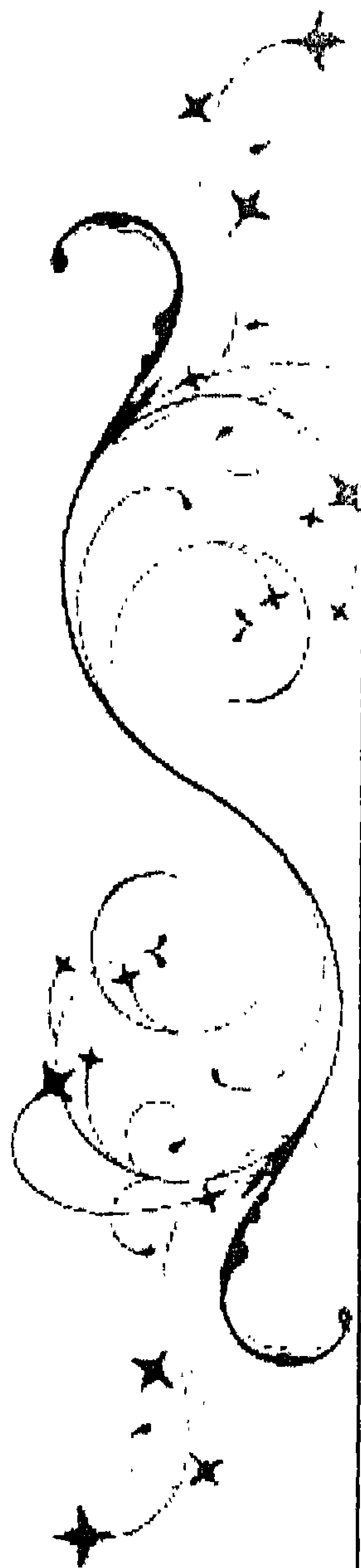
• الخاتمة •

شهدت اليمن في عهد الاحتلال العثماني الثاني (١٨٧٦-١٩١٨م) محاولات بطيئة لتنظيم الإدارة المحلية منها: إنشاء مجالس محلية في الألوية والأقضية أطلق عليها «مجالس الإدارة» مهمتها تقديم الخدمات والبت في القضايا التي تخص الشؤون المحلية، وكانت تلك المحاولات انعكاساً للإصلاحات التي حدثت في الدولة العثمانية نفسها، وبعد انسحاب الدولة العثمانية من اليمن في أعقاب هزيمتها في الحرب العالمية الأولى، بدأت اليمن كدولة مستقلة تحت حكم الإمامة الزيدية. وبدلاً من أن تتجه الإدارة الإمامية لتطوير أجهزة الدولة إدارياً، قامت بإجراء بعض التعديلات الطفيفة التي تعزز نفوذ الأئمة الزيديين، واستعان الإمام يحيى بن حميد الدين بعدد من الموظفين العثمانيين من المدنيين والعسكريين الذين أثروا البقاء في اليمن، وكانت لا توجد أجهزة إدارية مركزية بالمعنى المتعارف عليه، ويمكن القول أن اليمن كانت أفضل حالاً في عهد الإدارة العثمانية، من الإدارة الإمامية نفسها. إلّا إن قيام ثورة ٢٦ أيلول/ سبتمبر عام ١٩٦٢م كانت نقطة تحول بارزة في تاريخ اليمن المعاصر، نقلت البلاد من عهد العزلة الخانقة والقيود المتراكمة والعسف والتخلف إلى عهد الانفتاح والتقدم.

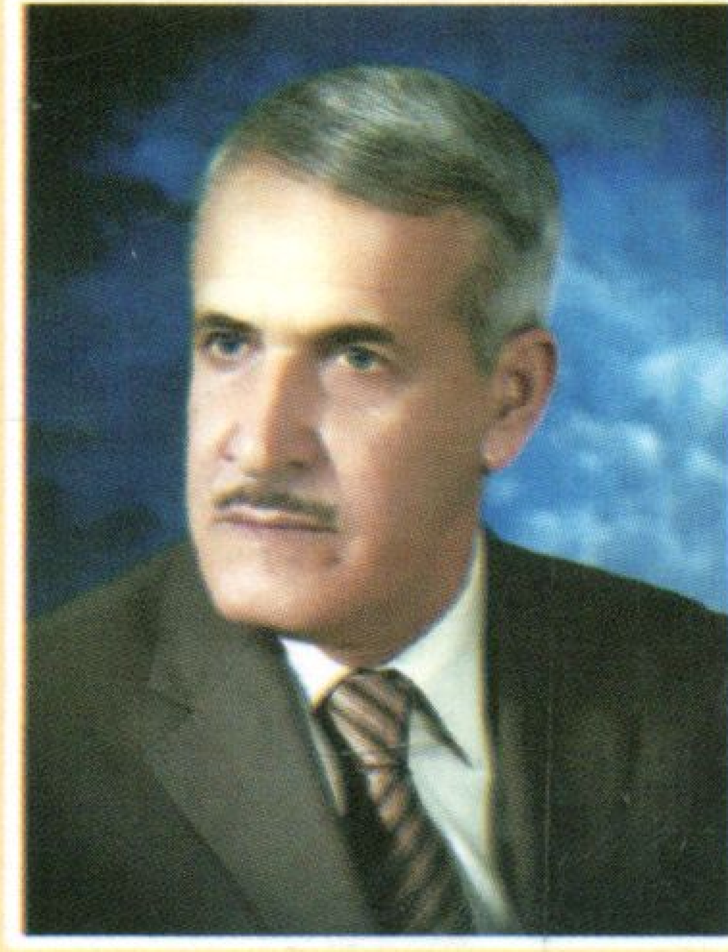
أصدر النظام الجمهوري الجديد سلسلة من الوثائق الدستورية والقانونية والقرارات التي تعزز من المشاركة الجماهيرية في الشأن المحلي، وكانت بحق تتسم بالجرأة في بلد نامي مثل اليمن الذي عانى من قيود ثقيلة في العهود السابقة، وتتوجت تلك التوجهات بإصدار القانون رقم (٤) لعام ٢٠٠٠م وإجراء الانتخابات في عموم المحافظات عام

٢٠٠١م، وانعقاد المؤتمر الأول للمجالس المحلية في عموم البلاد عام ٢٠٠٢م الذي يعد انتقاله مهمة في الحياة السياسية في اليمن، إلّا إن الظروف التي مرت بها البلاد في الحقب السابقة، جعلت هذه التجربة اليافعة تسير ببطء، غير إن الجهود الرسمية والشعبية تعمل سوية من أجل التغلب على الصعوبات، وهي تبشر بأن هذه التجربة قد شارفت على النجاح.

فهرس المحتويات



فهرس المحتويات



أ.د. غانم محمد رميض العجيلي

- مواليد قضاء الصويرة (العراق) عام ١٩٤٨.

- أكمل دراسته الابتدائية والثانوية في قضاء الصويرة، ومعهد المعلمين في الأعظمية عام ١٩٦٦-١٩٦٧.

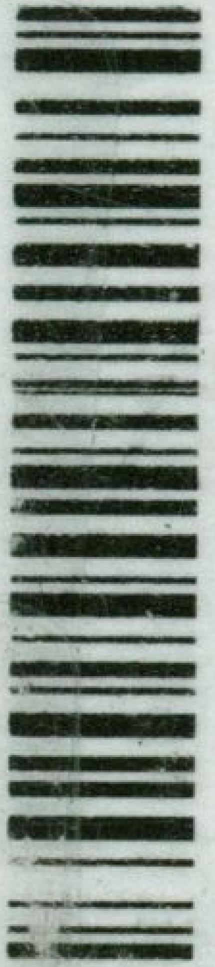
- خريج كلية التربية - قسم التاريخ للعام الدراسي ١٩٨١-١٩٨٢.

- حاصل على شهادة الماجستير في الدراسات التاريخية بتقدير امتياز عام ١٩٨٧.

- حاصل على شهادة الدكتوراه من الجامعة المستنصرية عام ١٩٩٢.

- أشرف وناقش عشرات الرسائل والأطاريح الجامعية، وله أربعة مؤلفات وأكثر من أربعة عشر بحثاً منشوراً في المجلات العلمية العراقية والعربية.

- متخصص في تاريخ الخليج العربي وشرق أفريقيا، وحاصل على لقب الأستاذية منذ عام ٢٠٠٨.




ISBN 978-614-424-142-4
9 786144 241424

تصميم: فراس صاحب